محمد عطا الرحيم

عيسى المسيح والتوحيد

عرض تاريخى للمسيحية والأناجيل والموحدين المسيحين الأوائل والأواخر

ترجمة

عادل حامد محمد



محمد عطا الرحيم

عيسى المسيح والتوحيد

عرض تاريخي

للمسيحية والأناجيل

والموحدين المسيحيين الأوائل والأواخر

ترجمة

عادل محمد حامد



مقدمة

يعتبر الإنجيل واحداً من الكتب المقدسة التى أنزلها الله على عباده ونزل فى جبل الزيتون فى القدس ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة التين « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين » حيث يقسم الله بأماكن نزول الرسالات ؛ فجبل التين بلبنان نزل فيه الزبور على نبى الله داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، والزيتون هوجبل الزيتون حيث نزل الإنجيل على المسيح عليه السلام، وجبل الطور حيث نزلت التوراة على موسى عليه السلام، والبلد الأمين المقصود به مكة المكرمة حيث نزل القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلمة الإنجيل تعنى البشارة باللغة العبرية القديمة ونزلت هذه الرسالة السماوية نقية طاهرة على السيد المسيح فى وقت ازدادت فيه المادية فى الحياة وحب الشهوات والزنا ، ونسى الناس التوراة وأحكامها أو كادوا أن ينسوها نظراً لأن الدولة الرومانية كانت مسيطرة على الدولة اليهودية في ذلك الوقت ، وخرج كثير من اليهود من ديانتهم واتبعوا ديانة الدولة الرومانية الوثنية ولكنهم بقوا على تسميتهم باليهود أو بنى إسرائيل خوفاً من توعد القلة القليلة ، التى كانت مؤمنة فى ذلك الوقت ، لهم بغضب الله عليهم وكان المجتمع الإسرائيلى فى ذلك الوقت يتكون من ثلاث طوائف هم الإسينيين وهم الذين اعتزلوا الناس لفسادهم تارة وذهبوا إلى الصحارى والجبال خوفاً من بطش الدولة الرومانية بهم لعبادتهم الله الواحد الأحد وطائفة الفريسيين وهم طائفة كانت تتبع دين إلياس عليه السلام ولكنها انحرفت عن ذلك وغرتهم الحياة الدنيا وكان منهم العلماء والأحبار وكانوا يستغلون الناس باسم الله فيأخذون الصدقات على أنهم سيعطونها للفقراء

ويأخذونها لأنفسهم وهم الذين قرعهم السيد المسيح فى بداية رسالته أشد تقريع ثم بقية بنى إسرائيل من العشاريين والخطاة وهم الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » لأنهم كانوا لا يعلمون أى شيء من أحكام التوراة أو أحكام دينهم وكان كثير منهم لا يعرف القراءة أو الكتابة ومن الغريب أن كل الحواريين كانوا من العشاريين ومن البسطاء ولذلك كانت رسالة الإنجيل بسيطة وكانت تدعو الناس إلى ترك المادية والاتجاه إلى الروح وكان فيها رفض لبعض الأغلال التى كانت على بنى إسرائيل كيوم السبت وأكل لحم الإبل وكانت قلة قليلة من الفريسيين هى التى تؤمن بالله حق الإيمان ولم تكن تتجه للدنيا وهذا الكتاب يعرض لرسالة المسيح عليه السلام وسيرته وبعض الظروف التى أحاطت بميلاده وقصة الحواريين وكيف حُرِّف الإنجيل وغيرها من الأمور التى لا يتسع المقام لذكرها ولذلك أدعوك أيها القارئ إلى قراءة هذا الكتاب بتمعن ودقة حتى يمكن لك أن تحيط بهذه الأمور .

الفصل الأول
التوحيد والمسيحية

تظهر البحوث التاريخية أن عبادة الأرواح والأوثان للناس البدائيين في العالم في كل الأحوال عبارة عن انشقاق عن مذهب توحيدى أصلى.

فوحدانية الله في المسيحية واليهودية والإسلام نمت كفكرة معارضة لتعدد الآلهة ، وهكذا في أية عبادة تكون التعاليم صافية في بدايتها ثم يعقب ذلك بالضرورة فساد هذه التعاليم . ومن هذا المنطلق يمكن استعراض تاريخ المسيحية وقد بدأت بالإيمان بوحدانية الله ثم حرفت وحل محلها مذهب التثليث ، وكان نتيجة ذلك فترة اضطراب حادت بالناس بعيداً عن الطريق المستقيم ، وفي القرن الذى تلا اختفاء المسيح كان المؤمنون به يؤكدون حقيقة وحدانية الله .

وهذا يجليه حقيقة أن إنجيل راعى هرمس وقد كُتب حوالى ٩٠ ميلادية وكانت تنظر إليه الكنيسة كإنجيل معترف به يبدأ في أول وصاياه الاثنى عشر بالآتى :

« قبل كل شيء آمن أن الله واحد وأنه خلق كل شيء ودبر أمره ومن العدم خلق الأشياء كلها وهو يسع الكون كله ولا يسعه الكون » وطبقاً لتيودور زان كانت عبارة الإيمان حتى سنة ٢٥٠ ميلادية كالآتى .

« أؤمن بالله القدير » وبين عام ١٨٠ و ٢١٠ ميلادية أضيفت كلمة الأب قبل كلمة القدير ، وكان هذا مستهجناً من جانب عدد من قادة الكنيسة .

وتسابق القس فيكتور والقس زيفيزياس فى إدانة هذه الإضافة على اعتبار أنها نوع من التدنيس غير المسبوق للمقدسات بإضافة أو حذف أية كلمة للكتب المقدسة ، ولقد عارضا فكرة ألوهية المسيح وأكدا وحدانية الله كما هو معبر عنه فى التعاليم الأصلية للمسيح ، وأضافا أنه بالرغم من كون المسيح نبياً فإنه بالضرورة بشر مثل بقية الناس حتى لو كان مفضلاً عند الله . وكان هذا المعتقد تتبناه الكنائس التى نشأت فى إفريقيا وغرب آسيا .

وعندما انتشرت تعاليم المسيح واختلطت بالثقافات الأخرى وتصارعت مع أصحاب السلطة والجاه استوعبتها وهضمتها هذه الثقافات وتم تغييرها لتقليل اضطهاد الحكام لأتباعها وفى اليونان على الأخص أصبحت ممسوخة سواء عن طريق التعبير عنها بلغة جديدة للوهلة الأولى أو بتوافقها مع أفكار وفلسفة تلك الثقافة وقد كان لمعتقد الإيمان بآلهة متعددة عند اليونان إسهامه الكبير فى تكوين مذهب التثليث للمسيحية مع ما صاحبه من اعتقاد بولس الطرسوسى بارتفاع المسيح التدريجى من درجة البشرية إلى الألوهية .

وفى عام ٣٢٥ ميلادية أصبح مذهب التثليث هو المذهب الرسمى للكنيسة وحتى عندئذ لم يؤمن بعض من اعتمدوا هذه العقيدة بها لأنهم لم يجدوا أى تأصيل لها فى الكتب المقدسة حتى إثناسيوس الذى يعتبر من مؤسسى هذا المذهب لم يكن متأكداً منه كل التأكد فهو يعترف بأنه «عندما أرغم فكره على التبحر فى ألوهية المسيح بدأت مجهوداته المتناهية والمضنية فى الارتداد على بعضها البعض لدرجة أنه كلما كتب أكثر كلما كان غير قادر أكثر على التعبير عن أفكاره » وقد كتب أيضاً "لا يوجد ثلاثة بل إله واحد" ولم يكن إيمانه بمذهب التثليث مبنياً على الإقناع ولكن على السياسة والضرورة الملحة .

وكان هذا القرار التاريخى لمجمع نيقية يعتمد على البعد السياسى فى

كثير منه وأيضاً على التعليل الفلسفى الخاطئ ويظهر ذلك الدور الذى لعبه قسطنطين حاكم روما الوثنى فى السيطرة على مجمع نيقية وقد كان لزيادة عدد المسيحيين قوة لم يكن له غرض فى معارضتها نظراً لأنها أضعفت مملكته ولم يكن لمساندتها له أية قيمة فى تقويتها .

ولقد كان يأمل عن طريق إعادة تشكيل المسيحية فى الحصول على تأييد الكنيسة وفى نفس الوقت إنهاء الاضطراب الذى حدث داخلها والذى كان مصدر القلاقل الكثيرة فى إمبراطوريته والطريقة التى تمكن عن طريقها من تحقيق هدفه بصورة منحازة يوضحها الموقف الذى حدث فى الحرب العالمية الثانية فعندما اقترب موعد الاحتفال بالعيد فى سنغافورة التى كانت محتلة من اليابان بدأت الدعاية اليابانية تركز على صلاة العيد التى ستقام هناك ولأن هذه مناسبة تاريخية فقد تم الإعلان عن ميعاد صلاة العيد لأن تأثير ذلك ممكن أن يمتد إلى العالم الإسلامى وهذا التركيز على صلاة العيد من جانب الحكومة اليابانية توقف بعد أيام قليلة فجأة ، وهذا اللغز من جانب الحكومة اليابانية تكشف فجأة عندما تم القبض على يابانى واستجوابه فى مشادة فقد أوضح هذا اليابانى أن رئيس الحكومة اليابانية توجوكان يخطط للقيام بدور مصلح إسلامى عظيم للعصر الحديث وكان يدبر لكى يكيف تعاليم الإسلام مع مقتضيات العصر الحديث ، وطبقاً لوجهة نظره كان على المسلمين بدلاً من توجيه القبلة نحو مكة فى الصلاة توجيهها نحو طوكيو التى ستصبح المركز الإسلامى المستقبلى تحت حكم توجو ولقد رفض المسلمون هذا التوجه نحو تغيير القبلة ففشل هذا التدبير ونتيجة لذلك لم يسمح بصلاة العيد فى سنغافورة ، ولقد أدرك توجو قيمة الإسلام وكان يريد توظيفه لخدمة أطماعه الاستعمارية ولكنه لم ينجح فى ذلك ونجح قسطنطين فيما فشل فيه توجو وحلت روما محل القدس كمركز للمسيحية التى ابتدعها بولس وهذا الامتهان لتعاليم المسيح

النقية والذى نتج عنه حتماً قبول المسيحية التى تقبل بتعدد الآلهة لم يكن هناك من لم يتحداه .

ففى عام ٣٢٥ ميلادية حيث اعتبر مذهب التثليث المذهب الرسمى للمسيحية وقف آريوس وهو أحد زعماء المسيحية الأوائل فى شمال إفريقية ضد إرادة كل من قسطنطين والكنيسة الكاثوليكية وأكد لأفراد المجمع أن المسيح كان يؤكد مبدأ وحدانية الله . وحاول قسطنطين أن يسحق الموحدين بكل القوة والعنف الذى لديه ولكنه فشل ، وبالرغم من كون قسطنطين نفسه قد مات موحداً أصبح مذهب التثليث - وبالسخرية القدر - فى نهاية الأمر المذهب الرسمى المقبول كأساس للمسيحية فى أوربا وهذا المذهب أثار كثيراً من الاضطراب بين أتباعه لأنه طلب منهم أن يؤمنوا به بدون محاولة لفهمه . والآن لم يعد ممكناً منع الناس من محاولة إثباته وتوضيحه فكرياً وهناك ثلاث مدارس فكرية تكلمت فى ذلك ؛ المدرسة الأولى ترتبط بـ إستى أوغسطين الذى عاش فى القرن الرابع والذى قال بأن هذا المذهب لا يمكن إثباته ولكن يمكن توضيحه ، والمدرسة الثانية مدرسة إستى فيكتور الذى عاش فى القرن الثانى عشر والذى اعتقد أن هذا المذهب يمكن شرحه وتوضيحه ، والمدرسة الثالثة فى القرن الرابع عشر والتى قالت بأن مذهب التثليث لا يمكن توضيحه أو إثباته ولكن يمكن قبوله والاعتقاد به بصورة عمياء .

وبالرغم من أن الكتب التى كانت تحوى تعاليم المسيح قد اختفت إما لكونها قد أتلفت كلية أو منعت أو حرفت لتجنب أية أفكار معاكسة للمذهب التثليثى - فقد بقى جزء كبير من الحقيقة فى الكتب التى بقيت وهذه الحقيقة تحظر الاعتقاد بمذهب التثليث .

ولقد كان هناك تغيير فى المعنى مما فى الكتب عما يقال على لسان زعماء الكنيسة ، والمذهب التثليثى مبنى على وحى خاص إلى الكنيسة «عروس المسيح» وكمثال : قال البابا فى خطاب فى بلوم فلا فلجينو :

«إن الوعظ من الكتب المقدسة شيء يثير الشك فمن يقترب من الكتب المقدسة يخرج عن المذهب الكاثوليكى» . وفى خطابه التالى كان أكثر وضوحاً وهو يحذر أكثر من الاعتماد على الكتب المقدسة أكثر : «فمن يقترب أكثر من الكتب المقدسة يخرج عن المذهب الكاثوليكى» ويرجع ترك تعاليم المسيح كلية إلى الغموض الكامل لحقيقته التاريخية فالكنيسة جعلت الدين ليس فقط يعتمد على الكتب المقدسة ولكن أيضاً على المسيح لدرجة أن الرجل نفسه قد أصبح شخصية أسطورية والإيمان بالمسيح لا يعنى بالضرورة الإيمان بمسيح سيبعث ففى حين أن أتباع المسيح المبشرين قد بنوا حياتهم عليه كقدوة بنت المسيحية البولسية اعتقادها فى المسيح بعد صلبه المفترض ولم تعد حياة وتعاليم المسيح وهوحى تأخذ نفس القدر من الاهتمام وعندما أبعدت الكنيسة القائمة نفسها أكثر وأكثر عن تعاليم المسيح أصبح قادتها مرتبطين أكثر بشئون من يملكون السلطة على الأرض ، ولأن الفارق بين تعاليم المسيح وبين من يملكون السلطة كان قد أصبح غير واضح وبدأت الأمور تختلط بعضها ببعض وكانت الكنيسة بالرغم من تأكيدها على انفصالها عن الدولة ترتبط بها أكثر لكى توسع من سلطاتها وبينما كانت الكنيسة خاضعة لسلطان الإمبراطور وكانت تحيد نفسها تماماً انقلب الوضع .

وكانت المعارضة للانحراف عن تعاليم المسيح مستمرة وكلما زاد نفوذ الكنيسة فى ذلك الوقت كان من الخطر بمكان مذهب التثليث وكانت التهمة الملصقة بمن يفعل ذلك جزاؤها هو الإعدام .

وبالرغم من خروج مارتن لوثر على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومذهبها فقد كانت ثورته على البابا أكثر منها على المذهب الأساسى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ؛ وكانت نتيجة ذلك تأسيسه لكنيسة ومذهب جديد وأصبح هو زعيم هذا المذهب ، وهذا بدوره أدى إلى

تأسيس مذاهب وكنائس إصلاحية جديدة و لكن مسيحية ما قبل الإصلاح لم تنزعج من ذلك واستمرت مبادئ الكنيسة البولسية كما هي حتى يومنا هذا . وكانت تعاليم آريوس يعتنقها عدد كبير من الناس في غرب آسيا وشمال إفريقية حتى جاء الإسلام فكانت استجابتهم له سريعة نظراً لأنهم كانوا يؤمنون بوحدانية الله وبالتعاليم الحقيقية للمسيح فآمنوا بالإسلام كحقيقة ولم ينقطع الإيمان بوحدانية الله فى المسيحية فى أوربا و نمت هذه الحركة بالرغم من خضوعها للاضطهاد العنيف والمستمر للكنائس القائمة فى الماضى والتمييز بينهم اليوم ويعلم عدد كبير من الناس اليوم أن المسيحية التى يعرفونها ليس لها علاقة بالتعاليم الأصلية للمسيح .

ففى خلال القرنين الماضيين لم يكن هناك مجال لبحوث المؤرخين للبحث فى الأسرار المسيحية ، وكانت حقيقة أن مسيح الكنائس القائمة ليس له علاقة بالمسيح فى التاريخ كحقيقة مثبتة لا تساعد المسيحيين فى حد ذاتها نحو الوصول للحقيقة .

والمشكلة الحالية للمسيحيين تتجلى فيما يكتبه مؤرخو الكنيسة الحاليون ويوضح ذلك أدولف هارناك حيث يقول : « فى القرن الرابع لبس الإنجيل الحى قناع الفلسفة اليونانية ومشكلة المؤرخين هى إزالة هذا القناع وتوضيح مدى اختلاف أبعاد العقيدة الأصلية عما هو عليه الآن » . ويشير هارناك إلى صعوبة إتمام هذه المهمة بقوله إن القناع المذهبى الذى لُبس فترة طويلة من الممكن أن يغير شكل الديانة وإليك نص ذلك : «القناع جعل له حياة خاصة به : التثليث - طبيعتا المسيح - العصمة - وكل المسميات التى تلى تلك العقائد هى نتاج مواقف وقرارات تاريخية متناقضة تماماً سواء كانت قديمة أو حديثة لتصبح هذه العقيدة كما هى منذ نشأتها عادة فلسفة سيئة التقطها المسيح من اليونانيين وذلك عندما هرب من اليهود» . ويفصل ذلك هارناك فى

كتاب آخر حيث يعترف أن «الإنجيل الرابع لا يمكن أن يصدر عن يوحنا الرسول ولا يمكن قبوله كسلطة تاريخية حيث كان يعمل مؤلف الإنجيل الرابع بحرية كاملة لقلب الأحداث ووضع ضوء غامض عليها فهو الذى وضع المجادلات بنفسه وكان يوضح الأفكار الكبيرة (العظيمة) بمواقف خيالية واسعة».

ويشير هارناك إلى أعمال المؤرخ المسيحى المشهور ديفيد شتراوس والذى يصفه بأنه أزال التأصيل التاريخى ليس فقط للإنجيل الرابع ولكن أيضاً للثلاثة أناجيل الأولى ، وطبقاً لأقوال جوهانز ليهمانن وهو مؤرخ آخر يعتبر أن كاتبى الأناجيل الأربعة المعتمدة يصفون مسيحاً مختلفاً عما هو موجود فى الواقع التاريخى ويقتبس ليهمانن فقرات مما كتبه هاينز تسارنت الذى يصف نتائج ذلك «إذا كانت البحوث التاريخية تثبت أن هناك مفارقات متناقضة بين المسيح التاريخى والمسيح كواعظ يصبح بناء على ذلك أى إيمان بالمسيح لا تؤيده أقوال المسيح ذاته ولايمكن أن تكون كلمات مصيرية من ناحية الإيمان بالله كما يقول إن إيه دال وإنما يعنى ذلك نهاية قصة المسيح وأنا مقتنع أننا نحن المؤرخين قد يمكن أن نجد حلاً لذلك وقد لا نجد وقد نكذب فى هذه الحالة أو تلك».

وبينما هذه الاقتباسات القصيرة توضح مشكلة المسيح اليوم تظهر كلمات تسارنت شيئاً أخطر من ذلك كثيراً وهو أنه من الممكن أن تفهم من كثير من تعاليم المسيح والكنائس والمذاهب المسيحية التى تلته أن الغرض الأصلى من تعاليمه قد انتهى وقته وأصبح منسياً . وهكذا يوضح تيودورتسان كمثال الصراع العنيف بين الكنائس القائمة وهو يحدد أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تتهم الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بتعديل نصوص الكتب المقدسة وذلك عن طريق الحذف والإضافة سواء بنية طيبة أو نية سيئة واليونانيون بطبعهم يتهمون أتباع

المذهب الكاثوليكي الروماني بالابتعاد كلية عن النصوص الأصلية وبالرغم من الاختلافات بين الكنيستين فإنهما يتحدان لمهاجمة المخالف عنهما بالابتعاد عن الطريق المستقيم ويصفونه بتهمة الهرطقة والهراطقة بدورهم يتهمون الكاثوليك بقلب الحقائق كالمزورين ويستنتج هو من ذلك «أن الاتهامات المتبادلة لا تساندها الحقائق».

فالمسيح نفسه قد تم نسيانه كلية وهؤلاء الذين لديهم وعى بهذا الانحدار والذين يبتغون إخلاص المعايشة والعودة إلى التعاليم الأصلية للمسيح يمنعون من ذلك لأن التعاليم الأصلية قد اختفت كلية ولا يمكن استعادتها ويقول إراسموس : «لقد وضع الأقدمون نظريات فلسفية قليلة جداً عن الله وكان الإيمان سابقاً يرتبط بالواقع أكثر منه بالعقائد وعندما أصبح الإيمان فى الكتب أكثر منه فى القلوب تسبب ذلك فى تعدد العقائد بقدر تعدد البشر وانتشرت المادة وقل الإخلاص وزادت الضغينة وقل الحب فعقيدة المسيح التى كانت صلبة فى أول الأمر أصبحت تعتمد على العون الفلسفى وكان هذا أول خطوة فى انحدار الكنيسة» .

وهكذا كان على الكنيسة أن تشرح مالا يمكن التعبير عنه بالكلام وكان على كلا الطرفين الكنيسة والهراطقة اللجوء إلى كسب تأييد الإمبراطور لوجهة نظره ويعلق إراسموس على ذلك بقوله : «لم يساعد تدخل الإمبراطور فى هذا الأمر على جعل العقيدة خالصة فعندما يكون الإيمان بالفم وليس بالقلب وعندما تخذلنا المعرفة القوية بالكتب المقدسة فلا يمكن للقوة أن تدفع الناس على الإيمان بشىء لا يؤمنون به أو يحبون شيئاً لا يحبونه أو يعرفون شيئاً لايعرفونه فلا يمكن للجبر أن يدفع إلى الإخلاص فى الإيمان» وفهم إراسموس أن المسيحيين الأوائل وهم التابعون المباشرون للمسيح كان لهم معرفة بالتوحد ولكن لم يعبروا عنها وعندما انتشرت تعاليم المسيح ونشأ الخلاف بين الكنائس

كان على أولى الألباب أن يحاولوا ويشرحوا معرفتهم بالحقيقة وعندئذ فقد هؤلاء تعاليم المسيح كلية ، ولغة الوحدانية داخلها وكان عليهم أن يلجئوا إلى مفردات ومصطلحات الفلسفة اليونانية التى لم تكن تنظر إلى التوحيد ولكن لتقسيم ثلاثى للوجود وكانت الثقة البسيطة والخالصة بالحقيقة ترتبط مع لغة غريبة على المسيح بصورة حتمية وهذا أدى إلى تكوين مذهب التثليث مع مافيه من تأليه المسيح والروح القدس . وكانت نتيجة فقدان النظر إلى وحدة الوجود أن أدى ذلك إلى الفوضى والانشقاق وهذا الفهم كان ضرورياً على أى إنسان يريد أن يعرف من كان المسيح وما هى تعاليمه مع معرفة أن الناس عندما فقدوا الاهتمام بالرجوع إلى أفعال المسيح اليومية والتى لم تكن أكثر من تجسيم لتعاليمه ضلوا لذلك سواء كانوا مؤمنين بمذهب التثليث أو يبوحون بالتوحيد شفوياً .

الفصل الثانى

وصف تاريخى للمسيح

كلما حاول أكثر الناس أن يعرف حقيقة المسيح كلما اكتشف أن القليل هو المعروف عنه ويوجد آثار محدودة لتعاليمه وبعض أفعاله ولكن القليل هو المعروف عن كيفية حياته وكيف كان يتصرف فيها من لحظة لأخرى وكيف كان يتعامل مع الآخرين يومياً .

وتعتبر الصور التى وضعها أكثر الناس عن المسيح ، من كان وماذا فعل؟ صوراً فاسدة حتى ولو كان فيها بعض الحقيقة وهناك حقيقة قائمة وهى أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لم تبدل أوينقص منها على مر العصور فقط ولكن أيضاً ليست قصصاً شاهدة له فأول إنجيل هو إنجيل مرقص وقد كتب حوالى ٦٠- ٧٥ ميلادية وهو ابن أخت إستى برنابا أما مَتَّى فقد كان جامع ضرائب وموظفاً صغيراً لم يستطع السفر مع المسيح أما إنجيل لوقا فقد كتب فى مرحلة متأخرة ويعتمد على نفس المصدر كإنجيل مرقص ومتى فى الواقع .

ولوقا هو طبيب بولس ولم يقابل المسيح مثل بولس أما إنجيل يوحنا فهو يعتمد على مصدر مختلف وقد كتب فى مرحلة متأخرة حوالى ١٠٠ ميلادية ولا يجب أن يحدث الاضطراب بشأن اسمه مع اسم يوحنا الحوارى وهو رجل آخر ولقد ظل الجدال حول هذا الإنجيل لمدة قرنين من الزمان عما إذا كان يمكن قبوله كإنجيل معتمد يصف حياة المسيح وبالتالى يدخل ضمن الكتب المقدسة ، وقد أدى اكتشاف «لفائف» البحر الميت إلى إلقاء ضوء جديد على طبيعة المجتمع الذى ولد

فيه المسيح ، أما إنجيل برنابا فهو يغطى حياة المسيح بصورة أوسع من الأناجيل الأخرى مع ما قام به القرآن والحديث النبوى من توضيح حقيقة المسيح ونجد أنه ليس ابناً لله بالمعنى الحرفى للكلمة ولكنه مثل إبراهيم وموسى قبله ومحمد بعده ؛ رسول لله كان يأكل الطعام ويذهب إلى السوق مثل كل البشر ولقد وجد نفسه مختلفاً مع هولاء الذين كانت تعاليمه تتناقض معهم لم يقبلوا هدايته أو تجاهلوها مع علمهم أنها حقيقة ، فى سبيل الحصول على النفوذ أو الثروة أو الجاه أمام الناس ، ونجد أكثر من ذلك أن حياة المسيح على الأرض هى جزء مكمل للتاريخ اليهودى ولكى نفهم سيرته فمن الضرورى أن ننظر إلى التاريخ اليهودى .

ولقد كان المسيح فى حياته ملتزماً أشد الالتزام بالتعاليم اليهودية وما جاء إلا ليؤكد ويحيى تعاليم موسى الأصلية والتى بدلت على مر التاريخ .

ولم يكن المسيح هو الذى صُلب ولكن شخص آخر يشبهه . ويصف لنتيولس وهو ضابط رومانى المسيح بقوله : كان شعره بنياً ينخدل إلى الآذان فى نعومه مكوناً خصلات ناعمة وينساب إلى كتفيه فى بهاء مع وجود فاصل فى وسط رأسه يشبه شكل أهل الناصرة مع وجود حاجب لامع وصاف ووجه أحمر بدون تجاعيد ولا حبوب وأنفه وفمه كانا مستقيمين وكان له لحية جميلة بنية مثل لون شعره وكان بها فاصل فى الوسط وكانت عينه رمادية زرقاء وكانت معبرة بطريقة غير عادية وكان طوله متوسطاً حوالى ١٥,٥ مثل قبضة اليد وكان يبتهج عندما يكون جاداً ولكن لم يره أحد يضحك . وهناك وصف من أحد المسلمين له وهو يعطى صورة مختلفة قليلاً طبقاً لمصدره «هو رجل أبيض يميل إلى الحمرة وليس له شعر طويل ولم يكن يغطى رأسه وكان يمشى حافياً ولم يكن له بيت ولا كان يتزين ولم يكن له ملابس أو مستلزمات أو سلع إلا قوت

يومه وكان شعره أشعث وكان وجهه صغيراً وكان يزهد في العالم ويتطلع إلى الآخرة ويتشوق إلى عبادة الله».

ولا يعرف تاريخ الميلاد الحقيقى للمسيح فطبقاً لأقوال لوقا كان يرتبط ميلاده بتعداد أجرى فى عام ٦ بعد الميلاد وطبقاً لبعض الأقوال فإنه قد ولد فى فترة حكم هيرودس و الذى مات عام ٤ قبل الميلاد ويستنتج فنسننت تيلور من ذلك أن ميلاده قد يكون مبكراً عن عام ٨ قبل الميلاد لأن مرسوم هيرودس قد صدر عند سماعه لأخبار ميلاد المسيح الفعلية .

وكان على كل مولود يولد فى بيت لحم أن يذبح طبقاً لذلك وقد سبق ذلك بوضوح وفاة هيرودس وعندما نتبع لوقا فى روايته نجد أن الفرق بين الحادثين فى نفس الإنجيل يصل إلى ١٠ سنوات ويعتقد معظم المؤرخين أن الحادثة الثانية تشير إلى أنه ولد عام ٤ قبل الميلاد . وقد كان للميلاد المعجز و المفهوم المعجز للمسيح أثره فى الجدال الذى تم بعد ذلك فبعض الناس يعتقد أنه ليس أكثر من ابن ليوسف النجار بينما يعتقد الآخرون أنه نقى طاهر وبناء على ذلك يستنتجون أنه ابن الله ولكن ذو طبيعتين بالمعنى الحرفى أو الوضعى لهذه الكلمة يقول لوقا :

«فى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت فى النساء . فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية ، فقال لها الملاك لاتخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع . فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا ولست أعرف رجلاً ؟ فأجاب الملاك وقال لها : ليس هناك شيء غير ممكن لدى الله . فقالت مريم هوذا أنا أمة الرب ليكن لى كقولك .

فمضى من عندها الملاك» . ونفس الواقعة يصفها القرآن كالتالى :
(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

ولقد صمت إنجيل مرقص ويوحنا بالنسبة لحقيقة ميلاد المسيح وذكرها مَتَّى بصورة سطحية ثم ناقض إنجيل لوقا نفسه بإعطاء المسيح نسباً بشرياً بينما لا يذكر يوحنا ذلك فى إنجيله . وبالنسبة لإنجيل متى ولوقا نجد أن الأول يذكر ٢٦ شخصاً بين آدم وعيسى بينما يذكر لوقا ٤٢ اسماً فى قائمته ولذلك توجد فجوة بين سجلى نسب المسيح فى الإنجيلين ولا يوجد أثر لتلك المتناقضات فى الوصف القرآنى بين طهارة المسيح وميلاده المعجز ، فالقرآن يرفض بثبات مبدأ ألوهية المسيح فيما هو مذكور عما حدث بعد ميلاد المسيح بفترة قصيرة . (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ماكان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) .

ولقد كان ميلاد آدم أكبر معجزة لأنه بدون أب ولا أم وكذلك ميلاد حواء كان معجزة أكبر من معجزة ميلاد المسيح نظراً لأنها ولدت بدون أم ويقول القرآن : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» وقد يكون مُهمًا أن نبحث ميلاد المسيح فى نطاق ما يحدث من الناحية السياسية والاجتماعية فى المجتمع الذى ولد فيه ولقد

كان عصر اضطراب شديد فى التاريخ اليهودى ولقد سُحق اليهود تحت أقدام الغزاة واحداً بعد آخر فى سلسة من الغزوات سنبحثها بتفصيل أكثر فيما بعد فى هذا الكتاب ونتج عن الهزائم التى مُنُوا بها أن اضطرمت نار الكراهية فى قلوبهم ولكن حتى فى أسوأ حالاتهم كان قسم كبير منهم يحتفظ بتوازنه العقلى ويبدأ فى البحث عن موسى جديد لعله يستطيع مع أتباعه طرد الغزاة وإعادة حكم ياهوه (الله) لبنى إسرائيل وموسى الجديد هذا إما أن يكون مسيا أو المبشر به .

وكان يوجد قسم من بنى إسرائيل يعبد أى شمس تسطع معلناً خضوعه لأى حاكم يسود فى ذلك الوقت وذلك لكى ينال شيئاً من هذه الصفقة الخاسرة وكان هؤلاء يملكون الثروة والمكانة سواء الدنيوية أو الدينية وكان بقية بنى إسرائيل يكرهون هؤلاء ويصفونهم بالخونة وبعيداً عن هذين القسمين من بنى إسرائيل كان يوجد قسم ثالث يختلف عنهم كلية وكان أتباعه يلجئون إلى الصحراء حيث يمكنهم أداء عبادتهم طبقاً للتوراة وإعداد أنفسهم لمقاومة الغزاة حينما يتمكنون من ذلك وخلال تلك الفترة حاول الرومان اكتشاف مخابئ تلك الطائفة بدون فائدة وبدأ عدد أتباعهم يتزايد ولقد أمكننا معرفة ذلك عن طريق المؤرخ اليهودى يوسف وهو يسمى تلك الثلاث طوائف من بنى إسرائيل الفريسيين والصدوقيين والإسينين على الأخص وكان معروفاً وجود الإسينيين ولكن لم تكن هناك معرفة تفصيلية بهم وهذه المجموعة ليست مذكورة ولامرة واحدة فى الأناجيل .

ولقد حدثت مفاجأة دراماتيكية وهى اكتشاف لفائف البحر الميت فى جبال الأردن بالقرب من البحر الميت وكان هذا الاكتشاف مفاجأة عاصفة للعالم الفكرى والإكليريكى وسنتحدث بشىء من التفصيل عن هذا الاكتشاف .

ففى عام ١٩٤٧ كان أحد الرعيان العرب يرعى غنمه بالقرب من

منطقة قمران وضلت منه إحداهن ولذلك قرر أن يتسلق الجبل المجاور لكى يبحث عنها وأثناء بحثه عنها ذهب إلى فتحة أحد الكهوف التى اعتقد أنها ضلت هناك وعندما رمى حجراً هناك توقع أن يسمع صوت حجر يضرب حجراً وبدلاً من ذلك سمع صوت صلصلة كما لو أن الحجر لمس قدرة من الفخار وكان تخيله كبيراً فقد اعتقد أنه قد عثر على كنز ذهبى فعاد فى اليوم التالى إلى الكهف ومعه صديق له لكى يساعده ودخلا الكهف وبدلاً من ذلك عثرا على جرار طينية عديدة وبقايا فخار مكسور فأخذوا واحدة منها إلى الخيمة التى يعيشون فيها وكانت خيبة أملهم كبيرة عندما وجدوا أن ما عثروا عليه لم يكن إلا لفافة جلدية تنبعث منها رائحة كريهة وأخذوا يقلبونها حتى أخذ طولها يمتد إلى جميع جوانب الخيمة وكانت واحدة من اللفائف التى بيعت بعد ذلك مقابل ربع مليون دولار وقد باعوها إلى رجل مسيحى سورى اسمه كاندو مقابل نقود قليلة وكان كاندو هذا صانع أحذية وكان مهتماً فقط بالجلد الذى فى اللفائف حيث يستخدم فى ترقيع نعال الأحذية القديمة ولاحظ كاندو أن الجلد مكتوب عليه بحروف لغة غير معروفة لديه وبعد نظرة دقيقة قرر أن يظهره للمطران السورى لدير إستى مرقص فى القدس وقرر الاثنان أن يلفا فى البلاد آملين فى بيعها مقابل نقود كثيرة .

واكتشف فى المعهد الشرقى الأمريكى للأردن أن هذه اللفائف أقدم نسخة معروفة لكتاب إشعيا فى العهد القديم ووضعت اللفائف بعد ذلك بسبع سنوات فى مكتبة القدس عن طريق الحكومة الإسرائيلية وعلى أقل تقدير يوجد حوالى ٦٠٠ كهف تغطى جانب التل فوق ضفة نهر الأردن وفى هذه الكهوف عاش الإسينيون وهم عبارة عن طائفة من الناس اعتزلوا الحياة والمجتمع لأن اليهودى الحقيقى فى نظرهم يخضع لسلطة ياهوا (الله) ولا يطيع أى حاكم إلا الله واليهودى الذى

يعيش تحت سلطة الحاكم الرومانى ويعترف به كحاكم مطلق يرتكب ذنباً كبيراً .

ونظراً لسقمهم من أبهة وزخرف الدنيا وصراعهم مع اليهود الآخرين الغير خاضعين لهم مما قد يؤدى إلى الحرب وتدمير القومية اليهودية فقد لجئوا إلى هدوء الكهوف التى توجد فوق شواطئ البحر الميت ولجئوا إلى أحد كهوف الجبال لكى يستطيعوا أن يحيوا حياة دينية نقية وبذلك يصلون إلى الخلاص من الآثام ولم يكونوا مثل بقية أحبار اليهود الذين استغلوا العهد القديم للكسب الدنيوى وإنما حاولوا أن يعيشوا طبقاً لتعاليمه وعن طريق هذه الحياة يمكن أن يصلوا إلى الصلاح والتقوى وكان هدفهم أن يكونوا قدوة لبقية اليهود فى كيفية الهروب من الطريق المؤدى إلى الخطيئة والهلاك الذين كانوا يعرفون أنه آت لا محالة وبسرعة إذا لم يتبعوا كلمة الله ولقد كتبوا أغانى دينية روحية تشد القلوب بصورة عميقة للكلمات التى تعبر عنها ، وتقول إحدى الأغانى : إن الحياة الدينية الروحية مثل السفينة فى العاصفة . وفى أغنية أخرى يوصف الإسينى كالمسافر فى غابة مليئة بالأسود ومع ذلك فإن له لساناً كالسيف .

وفى بداية الطريق تعتبر التجارب التى تمر بمن يخوض هذه الحياة مرة محفوفة بالمكاره والتى تشبه المرأة التى تعانى فى وضع مولودها الأول . وإذا نجح الإسينى فى المرور بهذه التجربة والشدة يهديه نور الله القويم وعندئذ يدرك أن الإنسان مخلوق تافه وفارغ وأنه مخلوق من الطين الممزوج بالماء ، وعندما يجتاز محنة المعاناة ويتحمل آثار الشك واليأس فإنه يحصل على السلام عند الضيق ، والفرح عند الأسف ، والسعادة عند الألم ، ثم يجد نفسه محفوفاً بمحبة ورضوان الله وعندئذ مع قليل من الشكر فإنه ينتزع من فخ الشك واليأس ويوضع على قمة الإيمان وعندما يسير هناك فى نور الله يصبح صالحاً ولا يلويه اعوجاج الدنيا

ولم تكن هناك إلا آثار قليلة معروفة عن الإسينيين وذلك قبل اكتشاف لفائف البحر الميت .

وذكرهم المؤرخان اليهوديان يوسف وبليني وتجاهلهم المؤرخون الأحدث منهما فعلياً ويصفهم بليني بالطائفة اليهودية الأكثر بروزاً من الطوائف الأخرى ويقول : «فهم لا يتزوجون وليس لديهم نساء ويرفضون الحب والعاطفة وليس لديهم مال وعددهم يتزايد باستمرار من خلال الناس الذين ينجذبون لطريقتهم فى الحياة ، ولذلك استمرت هذه الطائفة لآلاف السنين مع عدم وجود مواليد منها» ، ويكتب يوسف الذى بدأ حياته كإسينى أن الإسينيين يؤمنون أن النفس خالدة وأنها هبة من الله وأن الله يصطفى بعضها لنفسه مزيلاً منها كل العيوب الجسدية وأن الرجل الصالح له قداسة وخال من كل النواقص واستمر الإسينيون سكان الكهوف فى حياتهم المنعزلة .. غير متأثرين بموجات الغزاة الذين دمروا الهيكل وقهروا اليهود مرات عديدة ولم تكن حياتهم فى البرية هروباً من المسئولية التى يضطلع بها كل يهودى وهى الكفاح فى سبيل نقاء العقيدة وحماية اليهودية من العدوان الخارجى . ولكن كانت هناك جماعة بالتوافق مع الصلوات اليومية ودراسة الكتب المقدسة تقوم بتكوين خلية فعالة .. لم تعظ بتعاليم موسى فقط ولكنها كانت مستعدة للقتال فى سبيل حرية الحياة بالطريقة التى أشارت إليها التعاليم وهكذا يعتبر هذا القتال بالنسبة لهم فقط فى سبيل الله وليس للحصول على نفوذ أو أية أهداف شخصية وكان الأعداء يسمونهم «الزيلوتينيين» أى اليهود المتحمسين وكانت هذه الجماعة تجمعها راية واحدة وكل قبيلة كان لها رايتها الخاصة .

ولقد قسم الزيلوتينيين أنفسهم إلى ٤ أقسام وعلى كل قسم منها رئيسه وكل قسم كان مكوناً من أناس من ثلاث قبائل إسرائيلية وبهذه الطريقة ضمنوا وضع كل قبائل بنى إسرائيل تحت راية واحدة ورئيس

كل قسم يجب أن يكون من اللاويين وهو ليس فقط قائداً عسكرياً ولكنه أيضاً معلم للشريعة وكل قسم كان له مدرسته أو المدارس الخاصة به وبالإضافة إلى ما يقوم به رئيس كل قسم من واجبات عسكرية كان عليه أن يلقى دروساً دينية منتظمة فى المدارس .

وهكذا بالحياة فى البرية فى هذه الكهوف تخلى الإسينيون عن المتع الدنيوية واحتقروا الزواج واقتناء المال وكونوا المجتمع السرى الخاص بهم ومنعوا نقل أسرارهم إلى أى شخص ليس عضواً فى جماعتهم وكان الرومانيون يعلمون بوجودهم ولكن لم يحاولوا أن يخترقوا قناع السرية حولهم وكان حلم كل يهودى مغامر أن يصبح عضواً فى الجماعة ، وذلك لأن هذه هى الطريقة العملية المتاحة له لمقاومة الغزاة الأجانب والإسينيون كما صورنا حالهم من قبل من تاريخ بلينى كانوا يأنفون من الزواج وكانوا يتبنون أطفال الناس الآخرين طالما كانوا يطيعونهم ويرغبون فى تلقى التعاليم وكانوا يعتبرونهم أقاربهم ويعودونهم على طريقتهم فى الحياة . وخلال عدة قرون تمكن المجتمع الإسينى من تثبيت نفسه بالرغم من عدم وجود مواليد منه وهكذا أرسل زكريا وهو الحبر الأعظم فى هيكل سليمان ابنه يحيى الذى أنجبه وهو طاعن السن إلى الإسينيين فى البرية حيث تربى هناك وهو المعروف تاريخياً باسم يوحنا المعمدان ، وعندما نعلم أن المجتمع الإسينى كان يعيش فى البرية قد لا نجد تصرف زكريا النبى مفهوماً وهو يرسل ابنه الوحيد العزيز عليه إلى الصحراء ولكنه كان يرسله إلى أكثر المجتمعات التى يمكن الوثوق بها ، مجتمع يعيش بأسلوب يُرضى (ياهوا) الله .

أما مريم بنت خالة زوجة زكريا الياصابات فقد رباها زكريا لأنها كانت تتعبد فى المسجد طبقاً لعهد قطعته أمها على نفسها وفى هذه البيئة وُلد المسيح .

وكان بين اليهود الذين يتوقعون وصول مسيا شائعة * بأن زعيماً جديداً سُيعمد ويمسح عليه كملك لليهود وانتشرت هذه الشائعة بين اليهود عن ميلاد المسيح المنتظر مما أدى بهيرودس إلى إصدار مرسوم بقتل كل المواليد المولودة فى بيت لحم حيث سيظهر المسيح المنتظر ولقد كان دور زكريا فعالاً فى توجيه مجتمع الإسينيين السرى القوى ونجحت مريم فى الهروب من قبضة الجنود الرومانيين وذهبت مع المسيح إلى مصر حيث كان للإسينيين موطن آخر ولقد كان الاختفاء المفاجئ لمريم وعيسى المسيح وهروبهما الآمن من السلطات الرومانية قبل اكتشاف لفائف البحر الميت لغزاً وأمراً محيراً فلا إنجيل من الأناجيل يغطى هذه الفترة فوجود مجتمع الإسينيين يُظهر كيف كان ممكناً لهما الهروب ممن كانوا يلاحقونهما بمثل ذلك النجاح بالرغم من الدعاية التى صاحبت مولد المسيح وفى ظروف أخرى لم يكن يستطيع الطفل الذى يتكلم فى المهد بحكم وعلم والذى يراه الرعاة والسحرة أن يختفى بمثل تلك السهولة . وفى عام ٤ قبل الميلاد عندما كان عمر المسيح ثلاث أو أربع سنوات مات هيرودس ، وهكذا زال الخطر المباشر الذى كان يهدد حياة المسيح واستطاع أن ينتقل بحرية ولقد تربى على النظام الصارم للمعلمين الإسينيين ولكونه كان تلميذاً ذكياً فلقد تعلم التوراة بسرعة وعندما كان عمره اثنى عشر عاماً أرسل إلى الهيكل وبدلاً من كونه يكرر الدروس التى تعلمها كان يتكلم بثقة وعلم أكثر .

وتوجد بعض الروايات الإسلامية عن المواهب الفردية التى كان يتمتع بها المسيح فى بداية حياته وإليك هذا القول من كتاب الثعلبى قصص الأنبياء :

«يقول وهب بن منبه إن أول آية رآها الناس من المسيح أن أمه كانت تعيش فى منزل عظيم القبط فى مصر وذلك عندما رحلت إليها مع

* لم تكن هذه أكذوبة ولكن كانت نبوءة من يعقوب عليه السلام .

يوسف النجار ، وكان أحد الفقراء يقوم بإصلاح منزل عظيم القبط هذا ، وسُرق بعض المال من خزينة عظيم القبط هذا ، ولكنه لم يشك إلا فى هذا الرجل الفقير وحزنت مريم على المصيبة التى حلت بهذا القبطى وعندما رأى المسيح حزن أمه على مصيبة هذا القبطى قال لها : يا أماه هل تريدينى أن أدل هذا الرجل على ماله ؟ فردت : نعم يا ابنى . فقال لها : قولى له أن يجمع الفقراء لأجلى فى هذا المنزل . فقامت مريم بإبلاغ عظيم القبط بذلك فجمع الفقراء لأجله كما قال وعندما اجتمعوا ذهب المسيح إلى اثنين منهم أحدهما أعمى والآخر أعرج ورفع الرجل الأعرج على كتف الرجل الأعمى وقال له : ارتفع معه . فرد الرجل الأعمى : إنى لا أقوى على ذلك . فقال له المسيح : كيف ؟ كنت قادراً على ذلك أمس . وعندما ما سمعوه يقول ذلك ضرب المجتمعون الرجل الأعمى حتى قام وفعل ذلك وعندما فعل ذلك الرجل الأعمى ووصل الرجل الأعرج الراكب على كتفه إلى فتحه الخزينة قال المسيح إلى عظيم القبط : هكذا تآمر هذان الاثنان ضدك أمس لأن الرجل الأعمى اعتمد على قوته والأعرج اعتمد على عينه . عندئذ قال الأعمى والأعرج : والله لقد قال الحقيقة .

وقاما برد المال إلى هذا الرجل فقام بأخذه ووضعه فى خزانته وعرض على مريم أخذ نصف المال فردت : «لم أخلق لذلك» فقال الرجل العظيم : «أعطيه لابنك» فردت : «إنه أعلى منى فى المرتبة» ولقد كان عمره فى ذلك الوقت ١٢ عاماً .

وهناك آية أخرى فقد روى السعدى «عندما كان المسيح عليه السلام فى المدرسة كان يخبر التلاميذ بما كان يفعله آباؤهم وكان يقول لأحدهم : اذهب إلى البيت لأن أهلك يأكلون كذا وكذا وكذا وقد أعدوا لك كذا وكذا وهم يأكلون كذا وكذا ، لذلك كان الصبى عندما يرجع إلى البيت ويبكى حتى يقدموا له هذا النوع من الطعام الذى

أعدوه له والذى أخبره به المسيح كان أهله يقولون له من أخبرك بذلك فيقول المسيح لذلك تجمع التلاميذ فى أحد المنازل وجاء المسيح للبحث عنهم فيقول له أصحاب البيت ليسوا هنا فيقول إذاً فماذا فى هذا البيت فيقول له أصحاب البيت خنازير فيقول اللهم اجعلهم خنازير فيفتح أصحاب البيت للتلاميذ الباب فيتحولوا إلى خنازير فعلاً لذلك عندما كانت أمه تخاف عليه ركبت به الأتان ورحلت هاربة إلى مصر» .

ويقول عطاء :

«عندما أخذت مريم المسيح من المدرسة كانت تعطيه لمن يعلمه حرفاً مختلفة وكانت آخر حرفة تعلمها الصباغة لذلك سلمته إلى زعيم الصباغين حتى يتعلم منه ، وكان عند هذا الرجل أقمشة كثيرة وكان عليه أن يسافر فى مهمة لذلك قال للمسيح : «لقد تعلمت هذه الحرفة وإنى مسافر فى مهمة ولن أعود قبل عشرة أيام وهذه الأقمشة لها ألوان مختلفة ولقد علمت كل قطعة من القماش باللون الذى ستصبغ به وأريدك أن تنتهى من صباغتها عندما أعود ثم سافر كبير الصباغين فجهز المسيح عليه السلام إناء يحتوى على صبغة واحدة ووضع كل الأقمشة فيها وقال لها : «كونى بإذن الله كما أراد الله لك أن تكونى». ثم جاء كبير الصباغين وكانت جميع الأقمشة فى إناء واحد لذلك قال له : «أيها المسيح ماذا فعلت ؟» فرد عليه : «لقد انتهيت منها» فقال له : «وأين هى» فرد عليه : «فى الإناء» فقال له : «كلها» فرد عليه : «نعم» فقال له : «كيف توضع كل الأقمشة فى إناء به صبغة واحدة لقد أفسدتها» فرد عليه : «تعال وانظر» وعندما نظر أخرج المسيح من الإناء أقمشة صفراء وحمراء وخضراء حتى أخرجها كلها طبقاً للألوان التى أخبره بها وبدأ كبير الصباغين يتعجب وعلم أن ذلك آية من الله العظيم والجليل ثم قال كبير الصباغين للناس : «تعالوا وانظروا ماذا فعل المسيح عليه السلام» وأصبح هو وأصحابه الحواريين وآمنوا به والله عليم بكل شىء» .

وخلال فترة الرجولة للمسيح انتشرت شائعة أن يوحنا أو يحيى قد ابتعد عن المجتمع الإسينى وأنه يعيش منفرداً فى البرية ويقول مَتَّى فى الإصحاح الثالث : ٤ «ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من جلد وكان طعامه جراداً وعسلاً برياً» وابتدأ يحيى يعظ الناس مباشرة ولم يعتمد على فترة التعليم الطويلة التى كانت ضرورية لأى شخص يرغب فى العضوية الكاملة للمجتمع الإسينى وكانت دعوته علنية وكان يدعو كل شخص أن يتجه إلى الله (يا هوا) بالعبادة ويؤكد لهم أن ملكوت الله قد اقترب .

ومن المفيد بالنسبة إلى ذلك أن نقرأ فى تاريخ يوسف عن ناسك آخر كان هذا المؤرخ حواريه ولقد قضى يوسف ثلاث سنوات فى الصحراء كزاهد وخلال تلك الفترة كان يهتدى بأحد النساك ويسمى بانص وكان يلبس جريد الشجر ويأكل ما ينبته الشجر البرى وكان يعود نفسه على الخشونة بأخذ حمامات باردة بصفة مستمرة .

وهكذا كان يحيى عليه السلام يتبع سُنة النساك المعروفة وكانت البرية هى المكان الذى لجأ إليه داود والأنبياء من قبله وكانت المكان الذى يشعر فيه اليهودى بالحرية بعيداً عن سيطرة الحكام الأجانب وتأثير الآلهة الكاذبة ، ففى الصحراء لا أمل للحكام الوثنيين وفى هذه البيئة لا اعتماد إلا على الخالق وعبادته فقط وهى مهد التوحيد حيث يعتمد الإنسان على الحقيقة فقط ففى جدب الصحراء يفشل أى عون إلا العون الإلهى ويكون الإنسان أمام الله الأحد القوى مصدر كل الحياة ومنبع كل الأمن وهكذا كان الكفاح فى البرية يشمل جانبين :

أولاً : أنه كان يحدث من داخل قلوب الرجال الذين كان عليهم أن يجاهدوا أنفسهم إذا كانوا يريدون إرضاء الله سبحانه وتعالى .

ثانياً : كما بحثنا من قبل نتج عن اختيار هذا الطريق صراع حتمى مع هؤلاء الذين يريدون أن يعيشوا بطريقة مخالفة له .

وكان أول صراع حول قضية الإيمان بالله والمكاسب الروحية بصرف النظر عما إذا كان الصراع الثانى قد تم حسمه أم لا وبدأت دعوة يحيى عليه السلام فى جذب عدد كبير من الناس وبدأت تضع شرطاً مهماً فى قانون السلوك الإسينى وهو «عدم كشف أسرار العقيدة من جانب الإسينى للآخرين حتى ولو عُذب حتى الموت» . وقد أدى الفشل فى تطبيق هذه القاعدة إلى اختراق الرومان لهذه الحركة بالجواسيس ولقد رأى يحيى عليه السلام بنظراته النبوية هؤلاء من خلال تخميناتهم وأطلق عليهم لقب أولاد الأفاعى كما جاء فى إنجيل متى (الإصحاح الثالث - ٧).

وانضم لهذه الحركة المسيح ابن خالة يحيى عليه السلام الصغير وكان أول من عُمد ومن المرجح أن برنابا الذى كان الرفيق الدائم للمسيح قد عُمد معه ومعه رفيقه الآخر ماتياس ولقد علم يحيى عليه السلام أن أولاد الأفاعى سينجحون فى مسعاهم قبل أن يبدأ الصراع معهم ، ولذلك كان لتعميد المسيح أثره فى إدخال الرضا إلى نفسه وتيقنه من أن دعوته لن تنتهى بنهاية حياته وكما تنبأ يحيى عليه السلام فقد قام هيرودس بقطع رقبته وسقط ثوبه على كتفى المسيح .

وكان عمر المسيح وقتئذ ثلاثين عاماً ولم تستمر دعوته لأكثر من ثلاث سنوات وأدرك المسيح أن فترة التحضير لدعوته قد انتهت وأن الجزء الأخطر من حياته قد بدأ ، ولكى نقدر المعنى الكامل لهذه الفترة التاريخية علينا أن نرى المسيح فى الجانب المعاكس لخلفيته التاريخية وخصوصاً تاريخ اليهود وهذا بالتالى يؤدى إلى وضوح الصورة أكثر بعد أن بدأت فى الاتضاح من قبل ، فوجود المجتمع الإسينى ونشاط يحيى عليه السلام وأخيراً الصراع بين المسيح والرومان كانت كلها أجزاء من شكل واحد يكرر نفسه مرة ومرات فى التاريخ اليهودى وفى كل حالة كان الدافع لليهود للثورة على الغزاة الأجانب محاولة هؤلاء الغزاة

إشراكهم فى عبادة إلههم ، وكان إيمان اليهود بوحدانية الله وأنه هو وحده المستحق للعبادة وليس أى شيء آخر شديداً .

وكان اليهود ينقصهم رجل الدولة الذى يمكنه توحيدهم بعد إقامة دولتهم بالرغم من ازدهار العبودية السياسية فى عهدهم ومنذ فجر التاريخ نجد اليهود يتآمرون ضد ملكهم لأنه فعل الشر فى نظر الرب على حسب (سفر الملوك الثانى ١٣ - ١١) .

وعندما استولى نُبُوخَذ نَصَّر على القدس لم يمس الهيكل ولكن خزائن الهيكل والقصر الملكى كانت موضوعة تحت يده ولم يتوان اليهود فى الثورة على الحاكم البابلى وهذا أدى إلى قيامه بهجوم جديد ودمرالهيكل والمدينة .

واستدارت عجلة الحظ وغزا الفرس بقيادة قورش بابل وبدأ اليهود فى التآمر على البابليين لصالح الغزاة الفرس ، ولذلك أدرك قورش خطر وجود هذا العدد الكبير من الغرباء فى بابل وطلب منهم مغادرة بابل والعودة إلى القدس ، نظراً لأن نبوخذ نصر كان قد سباهم عند غزوه للقدس وسمح لهم قورش بإعادة بناء الهيكل .

وكانت القافلة العائدة إلى القدس تتكون من ٤٢٣٦٠ يهوديًا هذا خلاف ٧٣٣٧ من العبيد والنساء ، وشمل هذا العدد ٢٠٠ من المُغَنّين الرجال والنساء ، وكانت هذه القافلة محمولة على ٧٣٦ حصان و٢٤٥ بغلة و ٤٣٥ جملاً و٦٧٢٠ حماراً (سفر عزرا ٢ : ٦٤ - ٦٩) وهذا خلاف الحيوانات التى تحمل الكنوز التى جمعوها فى بابل وعند وصولهم للقدس بدءوا فى التخطيط لإعادة بناء الهيكل فجمعوا حوالى ٦١٠٠٠ أوقية من الذهب و ٥٠٠٠ مثقال من الذهب ، وهذا خلاف الكنوز التى حملوها معهم من بابل والتى كانت تساوى حمولة ٣٠ حصان من الذهب و ١٠٠٠ حصان من الفضة هذا خلاف ٥٤٠٠ وعاء ذهبى وفضى لكى توضع فى الهيكل (عزرا ١ : ٩ - ١١) .

وزاد عدد وثروة الأسرى اليهود الذين عادوا من بابل ولم يتمتع اليهود بالسلام فترة طويلة كحكام للقدس . وكانت فتوحات الإسكندر الأكبر فى ذلك الوقت قد وصلت إلى الهند قبل وفاته ، فى عام ٣٢٣ قبل الميلاد وتقاسم قواده مملكته فيما بينهم بعد وفاته وحكم بطليموس مصر جاعلاً الإسكندرية عاصمته وانقسمت مملكة سلوقس * إلى جزأين فأصبحت أنتيوخ عاصمة الجزء الشمالى وبابل عاصمة مملكة الإسكندر . وبدأ الحكام السلوقسيين والبطالمة فى التنافس على الأراضى وفى إحدى المواجهات الأولى بين الاثنين سقطت القدس فى قبضة الحكام اليونانيين الذين حكموا مصر ، ولم تكن سعادتهم كبيرة بوجود ذلك العدد الكبير من اليهود فى إسرائيل لذلك تم تهجير عدد كبير منهم بالقوة إلى مصر .

وأدى هذا إلى تكوين أكبر مستعمرة يهودية خارج إسرائيل وإلى الاحتكاك المباشر بينهم وبين الحضارة اليونانية وترجمت الكتب المقدسة العبرية إلى اليونانية ولقد كانت إسرائيل فى نظر البطالمة مستعمرة منبوذة وكان البطالمة يطلقون لهم الحرية طالما قاموا بدفع الجزية السنوية . وفى عام ١٩٨ قبل الميلاد استولى السلوقسيون على القدس من الحكام البطالمة وكانت القدس مستعمرة مهمة بالنسبة لهم ولذلك اهتم السلوقسيون بأحوال سكان القدس أكثر مما فعل من قبلهم من الغزاة .

وكانت عملية التهلن * تحدث بصورة تدريجية وطبيعة تحت الحكم البطلمى ، ولقد أسرع بها الحكام الجدد فى محاولة دقيقة لطبع اليهود بطباعهم وطريقتهم فى الحياة وهذا أدى إلى التوافق الثقافى والذى وصل إلى أكبر مداه فى فترة حكم أنتيخوس إبلبياتس ولقد ارتكب

---

* سلوقس : قائد الإسكندر الأكبر .

* التهلن : إحلال الثقافة واللغة الهلينية محل الثقافات واللغات الأخرى .

خطأ تنصيب تمثال زيوس فى هيكل سليمان مما أدى إلى ثورة اليهود ضد يهوذا المكابى تابعه فى إسرائيل ، وكان شعار ثورتهم المطرقة ونجحوا فى طرد اليونانيين من القدس وذلك على حساب تدمير الهيكل وكان قدس الأقداس مهجورا والمذبح منتهكاً حرمته واحترقت بوابة الهيكل فأعاد اليهود بناء الهيكل طبقاً للتوراة وازدادت شعبية الحكام اليهود الجدد لدرجة أنهم وصلوا لمرتبة كبير الأحبار وملوك إسرائيل ولقد أصبح الحكام مع الاحتفاظ بقوتهم أكثر حزماً فى تطبيق الشريعة اليهودية وبدأ اليهود يشتاقون مرة ثانية إلى حكام الغزاة الأجانب .

ولقد كان اليهود المكابيون أكثر غطرسة وتعاليا لأنهم لم يكونوا راضين أن يحكمهم يهود مثلهم . وبدأ اليهود يتآمرون على حكامهم الوطنيين وهذا أدى دورا كبيراً فى إدخال الحكم الرومانى إلى القدس وفى نفس الوقت الذى ولد فيه المسيح كرر الرومان خطأ الحكام السابقين لهم فقاموا بنصب نسر ذهبى كبير على بوابة الهيكل مما أدى إلى إثارة غضب اليهود ونتج عنه سلسلة من الثورات ضد الرومان .

وكان أول من رفع راية الثورة اثنين من خلفاء اليهود المكابيين وكان هدفهم تدمير النسر الذهبى . ولم يكن هذا بالنسبة للرومان عملاً يحرض على الفتنة ولكنه كان تهديدا لديانتهم . ولقد أمكن سحق الثورة بعد كثير من سفك الدماء وقبض على زعيمى الثورة وتم حرقهما أحياء .

وكان على الرومان بعد ذلك بفترة قصيرة أن يواجهوا ثورة أخرى وتم القبض على اليهود الذين قاموا بها وصُلب منهم ٢٠٠٠ وبالرغم من فشل الثورات اليهودية فقد كانت معنويات الثوار عالية ، وفى عام ٦ بعد الميلاد أمر الإمبراطور أغسطس بإجراء تعداد لليهود لتسهيل فرض الضرائب واعتبر اليهود دفع الضرائب إلى المؤله ضد تعاليم التوراة وكانوا يعتبرون (ياهوا) الله هو ملكهم الوحيد مما أدى إلى عصيانهم لذلك . وكانت العناصر المعتدلة منهم تدرك أن هذا العصيان

قد يؤدى إلى مذبحة كاملة لليهود ولذلك اقترحوا حلاً وهوالموافقة على دفع الضرائب لإنقاذ اليهود من ارتكاب انتحار قد لا يشعرون به ، ولم يكن زعماء هذا الحل على درجة من الشعبية بينهم وكان ينظر إليهم كخونة للأمة اليهودية وكان الموقف الاجتماعى والسياسى فى عصر ميلاد المسيح مع الأحداث التى أدت إلى وفاة يوحنا (يحيى عليه السلام) تؤدى إلى اتجاه وهو تركيز حركة المقاومة حول شخص يوحى إليه من الله وهو المسيح وكان على المسيح قبل أن يفعل أى شىء أن يمكث ٤٠ يوماً بالصحراء متعبداً لله وكان عمره فى ذلك الوقت يصل إلى الثلاثين وطبقاً للشريعة اليهودية كان هذا هو العمر الذى يتحرر فيه الإنسان من سيرة أبيه . وخلاف يحيى عليه السلام لم يقم المسيح بالوعظ جهاراً عندما وعظ الجموع أن تقف ضد الحكام الرومان وكان لابد من عمل ترتيبات لذلك فالمحاولات السابقة انتهت بكارثة وكانت فجيعة قتل يحيى عليه السلام منطبعة فى ذهن المسيح ، وبالحكمة وبعد النظر بدأ يُعد وينظم اليهود ولم يعمد كما فعل يحيى عليه السلام وكان هذا بالضرورة لا يجذب انتباه الرومان وقد يكون عملاً سيئاً فى أنه لم يمنع أولاد الأفاعى* من اختراق حركة المقاومة ولذلك قام بنصب ١٢ حوارياً وهو عدد يمثل قبائل بنى إسرائيل الاثنى عشر وقام هؤلاء الحواريون بتعيين ٧٠ وطنياً للخدمة تحت قيادتهم .

وكان الفريسيون يحتفظون باليهود الأقوياء فى الجسم فى القرى ولقد ضمهم المسيح تحت رايته ، وكثير من هؤلاء القرويين كانوا من الإسينيين الذين أصبحوا من المتحمسين لدعوة المسيح والتضحية بأرواحهم فى سبيل دعوته وكانوا يعرفون باليهود المتحمسين دينياً . وطبقاً للكتاب المقدس كان ٦ من الحواريين الاثنى عشر من المتحمسين دينياً وكان المسيح الذى جاء ليكمل تعاليم موسى لا ليرفضها قد أكد

* أولاد الأفاعى : الجواسيس اليهود .

دعوة العهد القديم : «من يكون متحمساً للشريعة ويحافظ على العهد فليأت ورائى» (المكابيين ٢ : ٢٧ - ٣) وبدأ عدد كبير فى التطوع لخدمة الدعوة وكان تطوعهم سرياً ويجرى تدريبهم فى الصحراء وكان يطلق عليهم «ياريونيم» والذى يعنى أبناء البرية ، وكان من بين هؤلاء مجموعة تعلمت حمل الخناجر وكانت هذه المجموعة تعرف «بالسيكارى» حاملى الخناجر ، وهناك مجموعة أخرى تمتاز بطول اليد وكونوا ما يعرف بفرقة الحراسة وعرفوا «ببارجيسس» أى أبناء المسيح ، وهناك مجموعة من الأشخاص تعرف بأبناء المسيح مذكورة فى المصادر التاريخية ولكن تحوطهم سحابة من الغموض ولا يعرف الكثير عنهم وكان هؤلاء ينتمون إلى أقرب فرقة من أتباع المسيح ، وكان لابد من إخفاء شخصياتهم بعيداً عن عيون الجواسيس الرومان وأصدر المسيح الأوامر لأتباعه قائلاً : «لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترى سيفاً» (لوقا ٢٢ - ٣٦) وزاد عدد أتباعه طبقاً لذلك متأثرين بتعاليمه ومعجزاته .

وكانت نتيجة كل هذه الترتيبات أن خليفة بيلاطس سوسيانس هيروكليس (هذا نص مقتبس من أحد آباء الكنيسة لاكتاينوس) يقول باستخفاف وكذب أن المسيح كان زعيم عصابة من قطاع الطرق تقدر بـ ٩٠٠ رجل وهناك نسخة عبرية من جزء ضائع من كتاب للمؤرخ اليهودى يوسف تقول إن المسيح كان معه ما بين ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ تابع مسلح ، واهتم المسيح جل الاهتمام بألا يحيد عن تعاليم الإسينيين وهذا يتضح كحقيقة فى أن طقوس وتعاليم الأناجيل والرسالات توجد فى كل صفحة من متن العقيدة ولم يكشف المسيح خلال بعثته جل تعاليمه على معظم أتباعه فلقد كانت الحقيقة معروفة لعدد قليل من الناس : «إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأمّا متى جاء ، ذاك روح الحق فهو يُرشدكم إلى

جميع الحق لأنه لا يتكلم به من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا ١٦ : ١٢ - ١٤).

فهو لم يكن يبحث عن المجد الدنيوي سواء كحاكم للبلد أو في النطاق المغلق للكتبة والفريسيين وعلى أية حال فلقد كانت شعبيته بين الناس والعامة وازدياد عدد أتباعه محل خوف لدى الرومان والكهنة الذين سيتبعونهم من أن تكون نيته كذلك وكان هذا التهديد الواضح لنفوذهم هو السبب في تعجيلهم بالتخلص منه .

وكانت مهمة المسيح هي فقط جعل عبادة الخالق بالطريقة التي أمر بها وكان مستعداً هو وأتباعه لجهاد أي شخص يحاول منعهم من الحياة بالطريقة التي أمرهم بها الله ، ولقد كان أول صراع يحدث مع اليهود الموالين للرومان بزعامة باراباس وقتل باراباس في هذه المواجهة مما أدى إلى ضعف معنويات هذه الطائفة وقبض على باراباس قبل ذلك .

وكان الهدف التالي لهذه المواجهة هو الهيكل ذاته وكان للرومان قوة قريبة منه وكان هذا وقت الاحتفال السنوي وقرب اقتراب عيد الفصح عند اليهود وكان الرومان في ذلك الوقت من السنة على أتم استعداد لأية مناوشات صغيرة وفي كامل أهبتهم ، وكان يوجد إلى جانبهم حراس الهيكل الذين كانوا يحرمون هذا المكان المقدس وكان دخول المسيح للهيكل مخططاً له بحيث يفاجئ دخوله الجنود الرومان مفاجأة تامة ويستولي المسيح على الهيكل وهذه المواجهة تعرف بـ «تنظيف الهيكل» ويصف إنجيل يوحنا هذه الحادثة بهذه الكلمات : « وكان فصح اليهود قريباً فصعد يسوع إلى أورشليم ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً فصنع سوطاً من حبال وطرد الجميع من الهيكل الغنم والبقر وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم» (يوحنا ٢ : ٤ -١٥) ويعلق على هذه

الكلمات كارميكل بقوله :

«لقد كانوا يطبقون العنف بطريقة صحيحة وكانوا يعبرون بطريقة حقة عن صدى قليل لرغبة عامة فلو تخيلنا مساحة الهيكل ببساطة وعشرات الآلاف من الحجاج الذين يدخلون ويخرجون منه والحاضرين الكثيرين وحرس الهيكل والجنود الرومانيين ورد الفعل العادى لباعة البقر وعدم وجود رد فعل عند الصيارفة فربما يستغرق هذا المشهد أكثر من الدهشة نفسها لكى يتم ، والصورة التى تنبض خلف هذا التجمع المحدد فى الإنجيل الرابع يجب أن تكون أكثر تميزاً والمؤرخ يحاول أن يُنعم هذا الوصف بصبغه بالصبغة الروحية بعيداً عن أى واقع» . ويضع أى مدافع عن الحرية فى علمه أن البوليس المحلى يتعاطف مع الوطنيين وليس مع جيش الاحتلال وهذا العامل ساهم فى الانهيار الكامل لقوة البوليس المكلفة بالدفاع عن الهيكل ، وكان الرومان يعانون من بعض التراجع ولكن قوتهم لم تنته ولذلك فسرعان ما طلبوا تعزيزات . وبدأت القوات الجديدة تتحرك نحو أورشليم واستمر الدفاع عن بوابة القدس لعدة أيام ولكن فى النهاية كان الجيش الرومانى أقوى من مقاومة الوطنيين وهرب كل أتباع المسيح - حتى الحواريين - تاركين المسيح مع عدد قليل ممن ناصره . واختبأ المسيح وبدأ الرومان حملة بحث واسعة عنه وتوجد عدة تعبيرات متناقضة تعبر عما حدث بعد ذلك مثل القبض على المسيح ومحاكمة المسيح وصلب المسيح من الصعب عدم التطرق إليها وبحثها لمعرفة حقيقة ما حدث فنحن نعرف أن الحكومة الرومانية نجحت فى الاستفادة من خدمات مجموعة صغيرة من اليهود الذين كان لهم مصلحة دائمة فى استمرار الحكم الرومانى على أورشليم ومنهم يهوذا الإسخريوطى حوارى المسيح الذى تلقى وعداً بالحصول على ثلاثين مثقالاً من الفضة إذا ساعدهم فى القبض على المسيح ، ولكى يتجنب أية متاعب قرر أن يقوم بهذه المحاولة ليلاً وعند وصوله إلى

المكان الذى كان فيه المسيح مع قليل من أتباعه أخبر الرومان يهوذا بأن يقبل المسيح حتى يستطيعوا التعرف عليه ولكن خطتهم أخفقت فعندما برز الجنود الرومان فجأة أعقب ذلك اضطراب واختلطت شخصية الاثنين المسيح ويهوذا فى الظلام وقبض الجنود الرومان خطأ على يهوذا بدلاً من المسيح وهكذا نجح المسيح فى الهروب ونجد فى القرآن : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وعندما أحضر السجين أمام بيلاطس الحاكم الرومانى كان للواقع الدرامى للأحداث رضاً عند كل إنسان فأغلبية اليهود كانت سعيدة لأنه طبقاً للمعجزة التى حدثت عندما ألقى شبه المسيح على يهوذا مما أدى إلى وقوف الخائن يهوذا فى حظيرة الاتهام بدلاً من المسيح ، واليهود الموالون للرومان كانوا سعداء بذلك أيضاً لأنه بوفاة يهوذا «المعتقد أنه المسيح» يسقط الدليل على اتهامهم بالخيانة وأكثر من ذلك بوفاة المسيح الشرعية فلن يكون قادراً على أن يظهر للناس جهاراً لكى يسبب لهم المتاعب .

أما الدور الذى قام به بونتيوس بيلاطس فمن الصعب تحديده فالغموض الذى كان فيه كما هو موصوف فى الكتاب المقدس وتحيزه ضد الزعماء اليهود وشعوره الودى نحو المسيح تجعل هذه القصة من الصعب تصديقها وقد تكون نتيجة محاولة من كتاب الأناجيل لتحريف الحقائق لرمى الشعب اليهودى كله بجرم صلب المسيح ، ولتبرئة الرومان كلية من مسئوليتهم عن وفاة المسيح والطريقة الوحيدة لجعل قصة حياة المسيح مستمرة هو وصفها بأسلوب غير معادى للحكام الأجانب وبحذف أوتغيير هذه التفاصيل الغير مرضية لأصحاب السلطة وهناك رواية قوية تقول بشرح آخر أن مرتشياً كبيراً اتفق مع بيلاطس على تسليم المسيح مقابل ٣٠٠٠٠ دينار وإذا كان ما كتب فى الأناجيل صحيحاً يكون من الواضح أن بيلاطس قام بدور كبير فى الدراما التى حدثت ذلك اليوم فى أورشليم ، وفى النهاية نصل لحقيقة أخرى

واضحة ففى تقاوم القديسين للكنيسة القبطية سواء المصرية أو الإثيوبية يظهر بيلاطس وزوجته فيها كقديسين وهذا قد يكون مقبولاً فقط لو علمنا أن بيلاطس كان يعلم علم اليقين أن جنوده قبضوا على يهوذا خطأ وأدانوه بدلاً من المسيح ، وأنه سمح للمسيح بالهرب . أما فى رواية برنابا عن هذه الحادثة فإنه يخبرنا بأن يهوذا تحول فى شكله ساعة القبض على المسيح إلى رجل شبيه به تماماً لدرجة أنه حتى والدته وأقرب الناس إليه ظنوه المسيح وهذا من فعل الخالق سبحانه وتعالى ، ولم يعلموا بالحقيقة إلا بعد أن ظهر لهم المسيح بعد وفاته وأخبرهم بما حدث حقيقة وهذا يوضح الاضطراب الذى يحيط بالأحداث التى وقعت فى ذلك الوقت ولماذا بعض الروايات من بعض الناس الذين لم يشاهدوا هذه الواقعة تؤيد الاعتقاد الخاطئ بأن المسيح هو الذى صلب ولا يتفق معظم الكتاب عما إذا كان المسيح أويهوذا الخائن هو الذى صلب . فالسيرينسيون وبعدهم الباسيليديون وهم من المسيحيين الأوائل أنكروا صلب المسيح ولكنهم اعتقدوا أن سيمون السيرينى قد صلب بدلاً منه وهناك سيرينسي معاصر لبولس وبيتر ويوحنا أنكر أيضاً صلب المسيح وقيامته من الأموات ، وهناك طائفة مسيحية أخرى قديمة كانت تؤمن بأن المسيح لم يصلب ولكن الذى صلب واحد من أتباعه يشبهه فى الشكل وبلوتينس الذى عاش فى القرن الرابع يخبرنا أنه قرأ كتاباً يسمى يوميات الرسل كان يتكلم عن أعمال بيتر ويوحنا وأندروس وتوماس وبولس وهذا الكتاب يقرر من ضمن أشياء أخرى أن المسيح لم يصلب ولكن الذى صلب شخص آخر وبناء على ذلك كان يسخر من هؤلاء الذين اعتقدوا أنه صلب . وهكذا بالرغم من معرفة أن المسيح لم يصلب فهناك بعض المصادر التى تختلف فبعضها يحدد شخصية من صلب مكان المسيح والمصادر الأخرى تجدها عملية شاقة «فعندما يفكر المرء فى أن مسلسل الانتهاكات المنسوب إلى الجنود

الرومانيين يكرر صفحات معينة من العهد القديم عندئذ يبدأ فى الشك بأن القصة كاملة هى اختراع محض» ولا يوجد أى مصدر تاريخى معروف يخبرنا عما حدث للمسيح بعد عملية الصلب المزعومة إلا فى القرآن وإنجيل برنابا فهذان الكتابان يصفان الواقعة المعروفة برفع المسيح فى الأناجيل الأربعة المعتمدة والتى انطلق فيها المسيح من هذه الدنيا .

الفصل الثالث

إنجيل برنابا

لا يعتبر إنجيل برنابا الإنجيل الوحيد المعروف والباقى والذى كتبه حوارى للمسيح وهو رجل قضى معظم وقته فى صحبة المسيح خلال الثلاث سنوات التى كان يتلقى فيها الرسالة ، ولذلك فقد كان يملك خبرة كبيرة ومعرفة بتعاليم المسيح وذلك خلاف كل كُتَّاب الأناجيل الأربعة المعتمدين ، ولا يعرف متى سجل ما كان يحفظه عن المسيح ودعوته سواء كانت الوقائع والخطب مسجلة كما حدثت عنده أو يكون قد كتبها بعد أن رفع المسيح بوقت قليل خشية أن تتعرض تعاليمه للتغيير أو الضياع .

ومن الممكن أنه لم يسجل أى شيء حتى عاد إلى قبرص مع يوحنا مرقص فالاثنان قاما بهذه الرحلة بعد رفع المسيح ببعض الوقت ، وذلك بعد مصاحبتهم لبولس الطرسوسى والذى رفض أن يصاحب برنابا فى أى رحلة وكذلك مرقص ولكن لا يهم معرفة متى كتب ومع ذلك فهو لم يسلم مثل الأناجيل الأربعة المعتمدة من عملية الترجمة والتغيير إلى لغات متعددة ولكنه على أية حال شاهد عيان يروى حياة المسيح .

وكان هذا الإنجيل مقبولاً كإنجيل شرعى فى كنائس الإسكندرية حتى ٣٢٥ بعد الميلاد ومن المعروف أنه اقتبس منه فى القرن الأول والثانى بعد الميلاد فى كتابات إيرانيس (١٣٠ - ٢٠٠ بعد الميلاد) والذى كتب يؤيد وحدانية الله ، ولقد عارض إيرانيس بولس واتهمه

بالمسئولية عن إدخال الديانة الرومانية الوثنية والفلسفة الأفلاطونية إلى التعاليم الأصلية للمسيح ، واقتبس من إنجيل برنابا بصورة موسعة لكى يؤيد وجهة نظره وفى عام ٣٢٥ بعد الميلاد انعقد مجمع نيقيا المشهور والذى اعتبر فيه مذهب التثليث هو المذهب الرسمى للكنيسة البولسية . وكان من نتائج هذا الاجتماع أنه تم اختيار أربعة أناجيل من ثلاثمائة إنجيل فى ذلك الوقت كأناجيل رسمية للكنيسة وصدرت الأوامر بحرق الأناجيل المكتوبة بالعبرية وصدر مرسوم بإعدام أى شخص يحتفظ بأى من الأناجيل غير المعتمدة ، وكانت هذه أول محاولة منظمة لإزالة كتب التعاليم الأصلية للمسيح سواء كان فى صورة أشخاص أو كتب تعارض مذهب التثليث وبالنسبة لإنجيل برنابا لم تنفذ هذه الأوامر كلية ، ولازالت تذكر هذه الأوامر والمراسيم إلى الآن فلقد أصدر البابا داماسس (٣٠٤ - ٣٨٤ بعد الميلاد) والذى أصبح بابا عام ٣٦٦ بعد الميلاد مرسوماً بمنع قراءة وتداول إنجيل برنابا ولقد أيد هذا المرسوم جيلاسس قس قيصرية والذى مات عام ٣٩٥ ميلادية . ولقد ذكر هذا الإنجيل فى قائمة كتب الأبوقراط الغير معترف بها وتعنى كلمة الأبوقراط «المخفى عن الناس» وهكذا فى تلك المرحلة الزمنية لم يعد إنجيل برنابا متاحاً لأى شخص ولكن كان يشار إليه من قبل زعماء الكنيسة ومعلوم أن البابا احتفظ بنسخة من إنجيل برنابا عام ٣٨٣ بعد الميلاد فى مكتبته الخاصة وصدرت مراسيم عديدة تشير إلى الإنجيل فلقد تم منعه بمرسوم من الكنائس الغربية عام ٣٨٢ بعد الميلاد وعن طريق البابا إينوسنت عام ٤٦٥ ميلادية وفى مرسوم جلاسيان عام ٤٩٦ بعد الميلاد وضع إنجيل برنابا فى قائمة الكتب الممنوعة .

ولقد أكد هذا المنع البابا هورميسيداس والذى كان بابا من عام ٥١٤ بعد الميلاد إلى ٥٢٣ بعد الميلاد ولقد ذكرت كل هذه المراسيم فى فهرس المخطوطات اليونانية فى مكتبة المستشار سيجير (١٥٥٨ -

١٦٧٢) والذى أعده ب . ديمونتيفوسون (١٦٥٥ - ١٧٤١) وذُكر أيضاً فى فهرس نيسيفورس كما يلى : رقم مسلسل ٣ ، رسالة برنابا .. الأسطر ١٣٠٠ .

وذكر أيضاً فى قائمة الكتب الستين كما يلى :

رقم مسلسل ١٧ . رحلات وتعاليم الرسل .

رقم مسلسل ١٨ . رسالة برنابا .

رقم مسلسل ٢٤ . إنجيل برنابا .

وهذه القائمة المشهورة معروفة بكشاف الكتب الستين ، وكان المسيحيون يخشون من قراءة هذه الكتب خوفاً من العقاب الأبدى وقام كوتيليريس بفهرسة مخطوطات مكتبة الملك الفرنسى واضعاً إنجيل برنابا فى كشاف الكتب المقدسة الذى أعده عام ١٧٨٩ ووضع هذا الإنجيل مع ٢٠٦ مخطوطة لمجموعة البروشيان فى المكتبة البوديلية فى أوكسفورد ويوجد أيضاً جزء منفرد لترجمة يونانية لإنجيل برنابا فى متحف بأثينا وهو بواقى نسخة أحرقت وفى أكتا سنكتورم بولاند يونى الجزء الثانى الصفحات من ٤٢٢ - ٤٥٠ المنشورة فى أينتو برب عام ١٦٩٨ مسجل أنه فى العام الرابع لحكم الإمبراطور زينو عام ٤٦٨ بعد الميلاد اكتشف أجزاء من إنجيل برنابا ، واكتشفت نسخة مكتوبة بخط يده موضوعة على صدره ، ولقد زعمت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن الإنجيل الموجود فى قبر برنابا هو إنجيل مَتَّى ولكن لم يتخذ أية خطوة لعرض هذه النسخة على الناس وبقيت محتويات مكتبة الفاتيكان التى يبلغ طولها ٢٥ ميلاً غير معروفة .

أما المخطوطة التى ترجمت منها النسخة الإنجليزية لإنجيل برنابا فقد كان يملكها فى الأصل البابا سيكتس (١٥٨٩ - ١٥٩٠) وكان له صديق راهب يسمى فرامارنيو كان مهتماً بإنجيل برنابا بعد قراءته لكتابات إيرانيس والتى كان فيها اقتباسات واسعة منه ، وفى أحد الأيام

ذهب لكي يرى البابا سيكتس وتغدى الاثنان معاً وبعد الأكل نام البابا . وبدأ الراهب مارينو يعبث بالكتب الموجودة في مكتبة البابا الخاصة مما أدى إلى اكتشافه وكان للدعاية التي قدمها تولاند أن جعل من المستحيل على هذه المخطوطة أن تشارك في نفس المصير الذي لقيته مخطوطة أخرى للإنجيل باللغة الأسبانية وكانت المخطوطة الأسبانية قد قُدمت إلى مكتبة كلية في إنجلترا في نفس الوقت الذي قدمت فيه هذه المخطوطة إلى مكتبة هوف ، ولم تلبث المخطوطة الأسبانية في إنجلترا فترة طويلة قبل أن تختفي بصورة غامضة .

وترجمت المخطوطة الإيطالية إلى الإنجليزية عن طريق كانون ومدام راج وطبعتها ونشرتها مطبعة جامعة أوكسفورد عام ١٩٠٧ .

وفجأة اختفت النسخة الإنجليزية المترجمة من الأسواق بصورة غامضة ولم يبق إلا نسختان من هذه الترجمة واحدة في المتحف البريطاني والأخرى في مكتبة الكونجرس بواشنطن وهناك تم عمل نسخة ميكروفيلمية لها ، وتم طباعة النسخة المترجمة إلى الإنجليزية من جديد في باكستان واستخدمت نسخة من الإنجيل لأغراض إعادة طباعة باقي النسخ بعد مراجعتها هناك ومن المعروف عموماً أن أول ثلاثة أناجيل معترف بها وهي الأناجيل المتشابهة قد كتبت من إنجيل قديم غير معروف يشير إليه الباحثون الآن بحرف « كيو » (Q) بالإنجليزية لعدم معرفة اسمه وهنا تثور مسألة أن يكون إنجيل برنابا الأبوقريطي هو في الواقع هذا الإنجيل الغير معروف اسمه ، وللعلم فإن مرقص الذي يعتبر إنجيله أقدم إنجيل من الأناجيل الأربعة المعترف بها كان ابن أخت برنابا وهو لم يقابل المسيح على الإطلاق ولذلك فكل مارواه عن حياة المسيح وتعاليمه في إنجيله قد يكون مروياً له من الآخرين الذين سبقوه ومن المعروف من كتب العهد الجديد أنه صاحب بولس وبرنابا في كثير من رحلاتهم التبشيرية حتى دب خلاف حاد بينهم ونتج عنه أن ذهب

برنابا ومرقص إلى قبرص معاً ، ومن غير المرجح أن يكون مرقص قد اعتمد على بولس فى رواياته لأن بولس لم يقابل المسيح أيضاً والتفسير المنطقى لذلك أن يكون مرقص قد كرر ما أخبره خاله برنابا عن المسيح ويروى البعض أنه عمل كمترجم لبطرس وسجل ما علمه من بطرس وهذا قد يكون صحيحاً لأن مرقص قد يكون قد اتصل بالحواريين الآخرين عندما ترك مصاحبة برنابا أو بولس فى رحلاتهم التبشيرية ويخبرنا جود سبيد فى بحثه عن ذلك أن أى شىء تعلمه مرقص من بطرس كان شاملاً .

« فهو قد أصبح مترجم بطرس وكتب بدقة وليس بترتيب كل شىء تذكره بطرس عن أقوال وأفعال المسيح بالرغم من أن مرقص لم يسمع المسيح ولا تبعه ولكنه كما قلت رأى بطرس بعد ذلك والذى كيف تعاليمه طبقاً لطلبات السامعين ، ولم يقدم رواية مترابطة عن تعاليم المسيح ولوقا الذى كتب أيضاً أعمال الرسل لم يقابل المسيح وكان الطبيب الشخصى لبولس ، ومتى أيضاً الذى كان جامع ضرائب لم يقابل المسيح وهناك جدال على أن إنجيل مرقص قد يكون الإنجيل الغير معروف اسمه « كيو » وأن متى ولوقا قد يكونان استفادا من إنجيله عند كتابة إنجيلهما ولكنهما كتبا تفاصيل لم يكتبها وهذا يعنى أن إنجيل مرقص لم يكن مصدرهما الوحيد والبعض يقول إن هذا ليس مهمًّا لأنه من المعروف أن إنجيل مرقص كان مكتوباً بالعبرية ونقل وقتئذ إلى اليونانية ، وأعيدت ترجمته مرة ثانية إلى اللاتينية . وكل الترجمات القديمة لإنجيل مرقص سواء كانت يونانية أو عبرية لم يعد لها وجود وانحصر كل التفكير فى الكم الكبير من إنجيل مرقص الذى تغير أو تعدل أثناء تلك الترجمات من لغة إلى أخرى . ومن المفيد أن نلاحظ أنه تجرى محاولات للعودة إلى مصدر رواية الأناجيل عن طريق عمل توليفة منها وذلك لأن المتناقضات التى نشأت بينها كانت تسبب أحياناً حرجاً

كبيراً للكنائس القديمة ، ولقد حاول تيشيان أن يصنع توليفة من الأناجيل الأربعة المعتمدة والتى اعتبرتها الكنيسة البولسية الكتب المقدسة الرسمية فى القرن الثانى بعد الميلاد .

وفى هذا الإنجيل المؤلف من الأناجيل الأربعة استفاد فيه تيشيان فى معلوماته من ٩٦ ٪ من إنجيل لوقا و ٥٠ ٪ من إنجيل مرقص ورفض بقية الأناجيل .

ومن المعلوم أن ثقته كانت قليلة فى الأناجيل القديمة واعتمد فى كتابة الأناجيل المؤلف على الأناجيل الحديثة ولذلك لم ينجح الإنجيل المؤلف الذى أعده .

وهناك جدل كبير حول النظرة إلى إنجيل مرقص كمصدر عام للأناجيل الثلاثة المتشابهة حيث إن كل الوقائع المسجلة فى هذه الأناجيل متضمنة فى إنجيل برنابا .

وسواء كان هؤلاء الرجال الثلاثة متى ولوقا و يوحنا بخلفياتهم المختلفة المستمدة من نفس مصدر الرواية أو من مصادر مختلفة فإن المنطلق بالنسبة لإنجيل برنابا .

«إن أتى إليكم فاقبلوه» .

«رسالة بولس إلى أهل كولوسى ٤ : ١٠» .

الفصل الرابع

كتاب راعى هرمس

الراعى كتاب كتبه هرمس بين ٩٧ و٨٨ بعد الميلاد فى باتموس بالقرب من إيفسوس ، وهذا الكتاب مثل إنجيل برنابا يقر الوحدانية الإلهية ولذلك السبب بُذلت جهود مكثفة لإزالته بمجرد أن أصبح مذهب التثليث متأصلاً فى الكنيسة البولسية القائمة ، وكان واحداً من الكتب المحرمة نتيجة لقرارات مجمع نيقيا سنة ٣٢٥ بعد الميلاد . ويبدو أن هرمس كتب كتاب الراعى فى نفس الوقت الذى كان يوحنا فيه يكتب إنجيله بالرغم من أن بعض الناس يعتقدون أن كتاب الراعى قد كتب قبل هذا ولكن لا خلاف فى أن هرمس لم يقرأ أو يرى أيًّا من الأربعة أناجيل المشتملة فى العهد الجديد ، والبعض يعتقد أن كتاب الراعى كان إنجيلاً قديماً ولم يعد موجوداً حالياً ولكن هذا لا يؤيده رواية هرمس عن كيفية كتابة هذا الإنجيل وحتى قبل انعقاد مجمع نيقيا كان هذا الكتاب معترفاً به وكان يستعمله أتباع المسيح الأوائل ، وكانوا ينظرون إلى هرمس كنبى وحتى نهاية القرن الثانى بعد الميلاد تم الاعتراف به كجزء من العهد الجديد من جانب الأب الرحيم أوريجن السكندرى (١٨٥- ٢٥٤ بعد الميلاد) والذى اعترف به ككتاب مقدس ووضعه فى آخر الكتب المقدسة التى كانت مستعملة فى منتصف القرن الرابع بعد الميلاد .

واعترف به تيرتوليان (١٦٠- ٢٢٠ بعد الميلاد) فى أول الأمر ولكنه أنكر اعترافه به عندما أصبح من طائفة المونتيين .

واعترف به إيرانيس (١٣٠ - ٢٠٠) بعد الميلاد ككتاب مقدس ورفضه إيزيبيس من قيصرية ولكن اعترف به أثناسيوس عام ٣٦٧ بعد الميلاد ككتاب للاطلاع الخاص بالنسبة للمرتدين الجدد ، وهناك مسيحى فارسى يدعى مانيكيوس أخذه معه فى رحلته إلى الشرق ولقد أثر هذا الإنجيل فى كتابات دانتى بصورة واضحة .

ولذلك يعتبر كتاب الراعى كتاباً لا يمكن تجاهله بصورة واضحة وقد اعترف به من جانب أغلبية المفكرين المسيحيين الأوائل وأحباب الله ككتاب مقدس ، ولقد كتب هذا الكتاب عندما كانت دعوة صبغ تعاليم المسيح بالصبغة الهللنستية فى مهدها وفى وقت كان المسيحيون مدركين أن المسيح قد أتى لإعادة ونشر تعاليم موسى إلى اليهود ، ولقد كانوا يدعون اليهود الذين كان فهمهم لما يفعلونه يزينه المعرفة التى جاء بها المسيح ولقد كان هؤلاء المسيحيون يؤمنون ويتبعون تعاليم العهد القديم ، وذلك لأن كتاب الراعى كان يقرر ما كانوا يعرفونه ولذلك وضعوه ضمن كتبهم المقدسة وعندما جاء بولس بتعاليمه التى تقرر أن شريعة اليهود لا يجب أن يتبعها مسيحى نشأت التناقضات بين متون الكتب المقدسة المكتوبة حديثا والتى سميت فيما بعد بالعهد الجديد تمييزا لها عن العهد القديم وعلى أية حال احتفظت الكنيسة القائمة بالعهد القديم بالرغم من تلك التناقضات فى العهد الجديد نظرا لأن أى رفض صريح للعهد القديم قد يعنى فى نظر كثير من الناس رفضا للمسيح نفسه ونتج عن ذلك اضطراب حتمى .

ولقد نشأت التناقضات من داخل العهد الجديد والتى تدعو للاعتراف به أو رفض العهد القديم نظرا لأن العهد الجديد يجب أن يكون جديداً بدون رفض العهد القديم جهارا . وفى الأيام الأولى للكنيسة لم تكن هناك محاولة حقيقية لترتيب الأناجيل بصورة رسمية والتأكد من أن كل الروايات والمذاهب مفصلة فى كل إنجيل وآخر .

وكان زعماء المجتمعات المسيحية الأولى أحراراً فى تمييزهم وإشارتهم إلى الكتب المقدسة التى يعتقدون أنها تحوى أحسن تعاليم المسيح .

ومع تكوين وتطور مذهب التثليث والاعتراف به عام ٣٢٥ ميلادية لم يعد مد الحقيقة مقبولاً لدى الكنيسة البولسية القائمة فتم الاعتراف بأربعة أناجيل ، وحظرت الكتب المقدسة الأخرى التى كتبت بعد ميلاد المسيح .

ولم يكن زعماء الكنيسة البولسية راضين تمام الرضا عن مذهب الأسرار الخاص بهم والذى بدأ يتطور بعد ذلك واعترفوا بصحة بعض الكتب المحظورة ، وبدأت محاولاتهم للاحتفاظ بها بالرغم من كونها تعارض المذهب الجديد للكنيسة ، ولذلك جمعوها معاً ولكن إمكانية الاطلاع عليها أتيحت لذوى النفوذ فى الكنيسة وأصبحت هذه الكتب المحظورة بالنسبة إليهم تعرف بالأبوقريط والتى تعنى الكتب المخفية عن الناس وانفصلت هذه الكتب عن الكتاب المقدس ، ولقد تم التخلص منها وممن كان يحتفظ بها ولم يكن إلا عند أشخاص قليلين نسخ منها .

ولقى إنجيل راعى هرمس نفس مصير إنجيل برنابا فانفصل عن العهد الجديد ونظراً لأنه قد أوجد اضطراباً فى عقول الذين آمنوا بمذهب التثليث فلقد بذلت محاولات للتخلص منه نهائياً ، ولم تنجح هذه المحاولات ولذلك توجد سجلات مرجعية تشير إليه ولم يتح لأى واحد فى الغرب الفرصة لقراءته مدة طويلة ، وفجأة فى عام ١٩٩٢ خرجت إلى النور مخطوطة بردى له ترجع إلى القرن الثالث .

وهذا الكتاب مكتوب باللغة اليونانية العامية والبسيطة وبلغة يفهمها عامة الناس ومن الواضح أن هذا الكتاب مكتوب لكل واحد وليس لطبقة مثقفة معينة وأسلوبه واضح ويمتلك أصالة فى التعبير تجعل من السهل على أى فرد أن يفهمه .

ويبدأ هرمس كتابه بروايته عن أربع رؤى رآها ، آخر رؤية فيها يطلق

عليها لفظ وحى لأنه فى تلك اللحظة زاره مَلَك من عند الله يلبس زى الراعى وأخبر الملك هرمس أنه مرسل من الملك الأمين جبريل لكى يعيش مع هرمس بقية أيام حياته ، وأمر الملك عندئذ هرمس أن يكتب كل الوصايا والمثل التى سيمليها عليه والتى سيرويها بوحى من الملاك جبريل الروح الأمين وكان هذا الكتاب يعترف به المسيحيون الأوائل ككتاب مقدس وكانت تلك الوصايا كالآتى :

وصية رقم (١)

« قبل كل شيء آمن أن الله واحد وأنه خلق كل شيء ودبر أمره ومن العدم خلق الأشياء كلها وهو يسع الكون كله ولا يسعه الكون ، توكل عليه ، واخشه واملك نفسك عند خشيته وعندما تحفظ تلك الوصية تبعد عن نفسك كل الشر وتضع مكانه كل فضائل الاستقامة وإذا حفظت هذه الوصية ستعيش حسب رضا الرب » .

وصية رقم (٢)

« كن مخلصاً وبسيطاً ولا تتكلم بالشر عن أى أحد ولا تجلس مع أى واحد يفعل ذلك ، كن مستقيماً وكريماً » .

وصية رقم (٣)

« أحب الصدق » .

وصية رقم (٤)

« كن طاهراً ليس فقط فى الأفعال ولكن فى التفكير » .

وصية رقم (٥)

« كن صبوراً ومتفهماً فبالصبر تعيش لله وبالطبع السيئ تعيش للشيطان » .

وصية رقم (٦)

« ثق فيما هو صواب ولا تثق فيما هو خطأ فالاستقامة طريقها مستقيم وسوى والشر طريقه متعرج وملتو ، يوجد مع كل إنسان

ملكان واحد للخير والثانى للشر» .

وصية رقم (٧)

«اتق الله واحفظ وصاياه» .

وصية رقم (٨)

« تمالك نفسك عند فعل الشر ولاتفعل الشر ولكن سابق بالخيرات وافعل الخير وابعد نفسك عن الشر وسر على الطريق المستقيم» .

وصية رقم (٩)

«انزع الشك من نفسك واسأل الله بدون شك يعطك الله كل شيء فالله ليس كالإنسان الذى يتذمر دائماً ولكنه يغفر ويحن على ما خلقه ولذلك انزع من قلبك كل كبرياء دنيوى» .

وصية رقم (١٠)

«ابعد الحزن عنك لأنه شقيق الشك والطبع السيئ» .

وصية رقم (١١)

« يشرك بالله الرجل الذى يستشير النبى الكاذب ويخلو قلبه من الصدق» .

وعندئذ سأل هرمس الملاك كيف يميز بين النبى الحقيقى والنبى الكاذب فرد الملاك : «إنه فى المقام الأول يكون الرجل المقدس وديعاً وهادئاً ومتواضعاً عن كل شر والرغبات الدنيوية الشهوانية ولا يتكلم من تلقاء نفسه ولكنه يتكلم بإرادة الله وبكلام الله لأن الله على كل شيء قدير ، أما النبى الكاذب فيعلى من قيمة نفسه ويريد أن يكون له الرفعة وهو جرىء ولا يستحى ويتكلم كثيراً ويعيش فى أبهة كبيرة ويقبل أن تدفع له الأموال مقابل تعاليمه وهو يتجنب المتقين ويلتصق بالشكاكين والمغرورين ويتحدث إليهم بالكذب طبقاً لرغباتهم فالوعاء الفارغ عندما يوضع بين الأوعية الفارغة فإنه لا ينكسر ولكنه يتناسق معها ، خذ حجراً وألقه فى السماء وانظر إذا كنت تستطيع أن

تصل إليه ! لا تستطيع ، فالأشياء الدنيوية هشة وضعيفة ولكن استعن بالقوة التى تأتى من السماء لأن حبة القمح الصغيرة عندما تسقط على الرأس فإنها لا تسبب أى ألم وانظر إلى قطرة الماء عندما تسقط على الأرض وتشق الحجارة لأن القوة الإلهية التى تأتى من فوق قوة قديرة» .

وصية رقم (١٢)

«انزع من نفسك كل رغبة شريرة وارغب فقط فى كل ما هو خير ومقدس ولقد خلق الله الدنيا من أجل الإنسان وجعل الخلق كله مسخراً للإنسان وجعل له السلطة الكاملة فى السيطرة على كل الأشياء التى تحت السماء ، والرجل الذى يذكر الله فى قلبه قادر على التغلب على كل الأشياء ، تصرف كعبد من عباد الله وليس للشيطان سلطان على عباد الله ومن الممكن له أن يصارعهم ولكنه لا يستطيع أن يقهرهم» .

الفصل الخامس
برنابا والمسيحيون الأوائل

برنابا أو بارنابا التى تعنى « ابن المواساة أو « ابن الحذر» كان يهودياً وولد فى قبرص ولقد كان يعرف بيوسف أو يوسيس وسماه الحواريون برنابا وبالرغم من أن ما ذكر عنه يعد قليلاً فى الأربعة أناجيل المعترف بها ولكن نعلم من بعض الكتب الأخرى فى العهد الجديد أنه قد أصبح أحد زعماء الحواريين بعد وفاة عيسى المسيح .

ولقد بذل جهداً أكبر بكثير من الآخرين فى التمسك بتعاليم المسيح الحقيقية ومعارضة البدع خاصة من بولس الطرسوسى .

ولوقا الذى كتب أعمال الرسل كان الطبيب الخاص لبولس ولذلك كان متأثراً بوجهة نظر بولس وهذا يوضح لماذا ذكر برنابا فقط فى إنجيله عندما كان ذلك يوضح قصة بولس .

ولسوء الحظ تخلصت الكنيسة البولسية من كتاب رحلات وتعاليم الرسل نظراً لتبنيها مذهب التثليث ولذلك ألغت أية سجلات تاريخية تعارض هذا المذهب والكثير مما نعرفه عن برنابا والمسيحيين الأوائل قد فقد وهذه كانت سياسة الداعين إلى هذا المذهب وهذا يوضح لماذا لا نجد أى إشارة لبرنابا خلال بعثة المسيح من الأناجيل الأربعة المعترف بها ولماذا برنابا بالذات الذى طبقاً لـ«لوقا» احتل المرتبة الثانية بعد المسيح بعد وفاته يختفى من صفحات التاريخ بمجرد أن يختلف مع بولس وينفصل كلاهما فى رحلته وواضح أن برنابا كان مع المسيح منذ بداية بعثته ويوضح إنجيله إخلاصه الكبير إلى المسيح وحبه له ولم يكن برنابا فقط رفيقه الدائم

ولكنه كان الفاهم والحافظ لتعاليمه ، ولذلك حصل بعد ذلك بوقت قصير على شهرة كبيرة مذكورة فى تعاليم الرسل كرجل عنده القدرة على نقل ما تعلمه من سيده وكرس مكانته كواعظ وكمصدر للفداء والشجاعة ولقد كان مخلصاً وكريماً أيضاً ولقد باع كل ما كان يملك بعد مقابلته للمسيح وكرس المال لخدمة الرسالة وأتباعها وتتجلى المحبة التى كان المسيح والحواريون يبدونها له أكثر ما تتجلى فى الأسماء المتعددة التى سمى بها وعندما قرر الحواريون نصب حوارى مكان يهوذا من هؤلاء الذين كانوا يلازمون المسيح ملازمة دائمة من وقت تعميد يوحنا له اختاروا رجلين أحدهما يوسف الذى يدعى برنابا الذى كان لقبه يوستاس وماتياس «أعمال الرسل ١ : ٢٢ - ٢٣» ولا يوجد أى رجل آخر يدعى يوسف صاحب المسيح وكان مذكوراً فى العهد الجديد سوى ذلك المعروف عند الناس ببرنابا . وعلى أية حال برنابا الذى يخبرنا جود سبيد بأنه ذات مرة شرب سماً قاتلاً ولم يشعر بأى ضرر لا شىء غير برنابا الحوارى ، وإذا كان ذلك صحيحاً فإنه يظهر بوضوح أنه إذا لم يكن واحداً من الحواريين الاثنى عشر فإنه واحد من أول سبعين رجلاً آمنوا بالمسيح ومعلوم أن حقيقة النظرة إليه كواحد من الحواريين الاثنى عشر تؤيدها رواية أن مريم أم المسيح عندما كانت فى مرضها الأخير نادت على الحواريين وكان برنابا منهم ولذلك يشير إليه كليمنت السكندرى كحوارى فى كتاباته .

ومن المحتمل أن يكون المسيح قد نشأ فى المجتمع الإسينى ، وتقول رواية أن برنابا كان تلميذاً لجماليل وهو أعظم مُعلم لليهودية الأصولية فى ذلك الوقت وكان يعنى التقاء المسيح وبرنابا التقاء كل ما هو خير فى التعاليم الروحية للإسينيين واليهودية الأصولية للهيكل ومما لا شك فيه أن ذلك أدى إلى وجود تفاهم كبير بين الرجلين ، ونظراً لأن برنابا كان لاوياً فمن الممكن أن يكون أحد زعماء فرقة من اليهود الإسينيين المتحمسين .

وبالرغم من قلة معلوماتنا عن برنابا فقد كشفت أحدث البحوث

التاريخية عن أهميته في حياة المسيح ومن المعلوم الآن أن العشاء الأخير (المائدة) قد حدث في منزل أخت برنابا ويصف ألبرت شفايتزر في كتابه «ملكوت الله والاعتقاد المسيحي الأول» ذلك بقوله :

«قد نستدل من أعمال الرسل أن الحواريين والمؤمنين من الجليل قد التقوا في منزل والدة يوحنا مرقص والذى صاحب برنابا وبولس بعد ذلك فى أول رحلة تبشيرية (أعمال الرسل ١٢ : ٢٥) . وكان مكان الالتقاء هو الحجرة العليا وهى الحجرة التى تقع تحت سطح المنزل (أعمال الرسل ١ : ١٢ - ١٤) ولابد أنها كانت حجرة كبيرة لكى تستوعب كل هذا العدد ولقد كان المؤمنون مجتمعين فى هذه الحجرة فى عيد الخمسين (أعمال الرسل ٢ : ١) .

كيف يمكن لنا إذاً أن نقارن هذا العيد بالعيد الذى احتفل به المسيح مع الحواريين وهو العشاء الأخير ، وعندما أرسل المسيح اثنين من الحواريين من بيسانى إلى المدينة لكى يعدا له فصحاً فأخبرهما أنه سيلاقيهما إنسان يحمل جرة ماء فأمرهم باتباعه إلى منزل فيه حجرة عليا كبيرة مفروشة معدة حيث يقومان هناك بإعداد الفصح له ، إذاً فنحن ندين لمرقص بهذه المعلومة القيمة (مرقص ١٤ : ١٣ - ١٥) والتى تعتمد على رواية خاصة به وحده .

أما متى فيروى أن المسيح أرسل اثنين من الحواريين مبلغاً إياهم أن يخبرا شخصاً ما فى المدينة بأن المعلم يقول إن وقتى قريب عندك ، اصنع الفصح مع تلاميذى (متى ٢٦ : ١٨) ويرى تيودور أن المنزل الذى حدث فيه العشاء الأخير مماثل لمنزل والدة يوحنا مرقص الذى التقى فيه الحواريون مع المؤمنين من الجليل .

وبالرغم أن شفايتزر يرى أن المنزل الذى حدث فيه العشاء الأخير هو منزل والدة مرقص فإنه لا يذكرنا بأن والدة مرقص كانت أخت برنابا ونظراً لأن برنابا ، عندئذ كان قد باع كل ما يملكه فمن المرجح أنه أقام مع

أختـه في أورشليم خصوصاً إذا كان عندها منزل به حجره واسعة جداً بحيث تجعل الحواريين يلتقون فيه أما السبب في عدم ذكر كل ذلك في العهد الجديد فهو أن الحواريين أرادوا أن يجعلوا مكان التقائهم سراً في ذلك الوقت الذى يضطهد فيه المؤمنون بسبب إيمانهم وقد نتساءل لماذا لم يذكر برنابا في روايات العشاء الأخير في الأناجيل الأربعة المعترف بها نظراً لأنه سيكون المضيف لأى تجمع من الناس في منزل أخته ، وربما ذكرولكنه أزيل أو لم يكن موجوداً .

ومن المحتمل أنه لم يكن موجوداً لأنه كان في السجن ومن المعلوم أن رجلاً يدعى باراباس هاجم مع مجموعة من الأشخاص مجموعة من اليهود الموالين للرومان واشتبك معهم في القتال قبل عيد الفصح بوقت قصير ؛ ونتيجة لذلك قتل زعيم اليهود الموالين للرومان وأسر باراباس ووضع في السجن ويرى هينريش هولتزمان والذى بحث في تفصيلات تلك المعركة أن من بين الذين قبض عليهم كان باراباس المعروف بوطنيته وقيادته السياسية وحوكم في نفس الوقت الذى حوكم فيه المسيح .

ونظراً لأن برنابا كان لاوياً وواحداً من حواريى المسيح فقد يكون واحداً من زعماء فرق اليهود المتحمسين دينياًوهذه الفرق كانت أربع فرق كما نعلمها من لفائف البحر الميت وكانت جزءاً مكملاً للمجتمع الإسينى وكانت مهمتها تحرير الوطن من الغاصبين الأجانب ومن يؤيدونهم ، وكانت واحدة من هذه الفرق مهمتها القيام بهجمات منظمة على اليهود الموالين للرومان في ذلك الوقت وهكذا فقد يكون صحيحاً أن برنابا وباراباس نفس الشخصية .

ولذلك من الممكن تماماً أن الكنيسة البولسية مع التصويبات الأخرى التى قامت بها قد محت أو غيرت اسم برنابا عندما علم ارتباطه بالواقعة التى لم تكن جزءاً من قصة بولس ، ولم تستطع الكنيسة أن تسير على هذا المنوال كل مرة كان يذكر فيها اسم برنابا في كتب العهد الجديد لأن

سفر أعمال الرسل يقرر أنه لولا المساعدة التى قدمها برنابا لبولس فى الأيام الأولى للكنيسة لم يكن لبولس أى ذكر فى تاريخ المسيحية على الإطلاق .

ويوجد بعض الذكر لما حدث لأصحاب المسيح بعد وفاته ، لقد تفرق جزء كبير منهم بعد حادثة الصلب المزعومة وبعدها ابتدءوا فى التجمع ، مرة ثانية فى أورشليم ولايعرف كم من الحواريين الاثنى عشر والأتباع الذين عادوا إلى التجمع ولكن من المؤكد أن هؤلاء الذين فعلوا ذلك كانوا رجالاً مؤمنين ومخلصين وذوى شجاعة وكانوا يحبون المسيح حباً كبيراً ونظراً لبروز دور برنابا كرجل وثيق الصلة بالمسيح فلقد كان دوره بارزاً فى مجموعة الحواريين واستمر هؤلاء فى العيش كيهود ولكنهم يمارسون تعاليم المسيح تابعين لناموس الأنبياء الذى أتى المسيح لا لكى يهدمه ولكن ليكمله (متى ٥ : ١٧) . وكانت ديانة المسيح ديانة جديدة بالنسبة لهم وكان هؤلاء مخلصين فى ممارسة تعاليم الدين اليهودى ولكن الذى كان يميزهم إيمانهم برسالة المسيح .

وفى هذه الأيام الأولى للمسيحية لم ينظم أتباع المسيح أنفسهم كطائفة منفصلة ولم يكن لهم كنيس خاص بهم ولم يكن هناك شيء فى رسالة المسيح يستدعي التوقف عن اتباع وإعادة إحياء الهدى الذى جاء به موسى ، وبدأ النزاع بين أتباع المسيح واليهود عن طريق اليهود الذين كانوا يكيفون تعاليم موسى لخدمة أغراضهم والذين كانوا يخشون إن أيدوا أتباع المسيح أن يؤدى ذلك إلى فقدانهم لثروتهم ونفوذهم والجاه الذى يتمتعون به .

وقد كان هناك اتفاق بين الطبقة الأرستقراطية اليهودية والرومان فى أن يقوم الرومان بحماية مصالحها المستغلة والامتيازات التى كانت تتمتع بها لعدة قرون مما استدعى انفصالها عن التعاليم التى كانت تدرسها وقامت هذه الطبقة اليهودية بمساعدة الرومان فى اضطهاد اليهود الذين كانت

أعمالهم ودعواتهم تمثل تهديداً لها ولذلك كان هناك اليهودى الذين يؤمن بالمسيح واليهودى الآخر الذى لا يؤمن به ولم يكن هذا الزمن سهلاً بالنسبة لأتباع المسيح الأوائل فمن ناحية قام الرومان بتصفيتهم لأنهم كانوا يمثلون تهديداً لنفوذ الدولة الرومانية السياسى ، ومن ناحية أخرى كان اليهود الآخرين يلاحقونهم خشية من تعرض سلطتهم الدينية للخطر ، وبمرورالزمن ابتدأت الفجوة بين اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح وهؤلاء الذين آمنوا فى الاتساع ولذلك نجد أثناء حصار القدس (أورشليم) عام ٧٠ بعد الميلاد قام أتباع المسيح بمغادرة المدينة وكذلك فى عهد العصيان الذى قام به باركوشابا عام ١٣٢ ميلادية وكانت مسألة أصل المسيح وطبيعته وعلاقته بالله والتى أصبحت موضع جدل شديد بعد ذلك مستمرة بين أتباع المسيح الأوائل.

وكانت مسألة أنه بشر نبى وأن الله قد أمده بالمعجزات معترفاً بها بدون جدال ولم يكن هناك شىء سواء فى تعاليم المسيح أو وقائع حياته على الأرض يؤدى إلى تغيير هذا اليقين ، وطبقاً لرواية أريستيد وهو واحد من المدافعين عن الدين المسيحى الأوائل فإن عبادة المسيحيين الأوائل كانت توحد الله أكثر من اليهود أنفسهم ولقد سار بولس وسط هذا النطاق من الأتباع المخلصين وهو لم يقابل المسيح ولم يتعرف حتى على أى من الحواريين القريبين منه ، وكانت شهرته فقط فى أنه واحد من أعدى أعداء المسيح فهو قد شاهد عملية رجم ستيفانوس وكان ستيفانوس مملوءاً بالإيمان والروح القدس (أعمال الرسل ٦ : ٥) .

وكان واحداً من العدد الكبير من الناس الذين انضموا لأتباع المسيح بعد وفاته وعندما حاول جاماليئل أن يحمى استيفانوس رجم هوأيضاً حتى الموت ، ومن المعلوم أن بولس الذى كان يسمى وقتئذ شاؤل كان مسئولاً عن قيام اضطهاد كبير ضد الكنيسة فى ذلك الوقت وكان يخرب فيها ويدخل البيوت ويقبض على رجال ونساء ويسلمهم إلى السجن (أعمال

الرسل ٨ : ١ - ٣) وبولس نفسه يعترف : «فإنكم سمعتم بسيرتى قبلاً فى الديانة اليهودية أنى كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها وكنت أتقدم فى الديانة اليهودية على كثيرين من أترابى فى جنسى إذ كنت أوفر غيرة فى تقليدات آبائى» (رسالة بولس إلى أهل غلاطية ١ : ١٣ - ١٥).

وكما هو مدون فى سفر أعمال الرسل (٩ : ١١) «أما شاؤل فكان لم يزل ينفث تهديداً وقتلاً على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم » ويقال إنه أثناء رحلة بولس هذه إلى دمشق رأى المسيح فى رؤيا ونتيجة لهذه الرؤيا أصبح واحداً من أتباع المسيح .

ومن المعلوم أنه بعد هذه الوقائع بفترة قليلة رغب بولس فى أن يتزوج امرأة تدعى بوبيا وكانت من أجمل وأكثر بنات كبير كهنة اليهود طموحاً ، وكان لها جمال أخاذ وعقل نافذ وكانت تحب بولس ولكنها رفضت عرضه للزواج وذهبت إلى روما حيث أصبحت ممثلة وقفز مركزها فى روما حتى أصبحت عشيقة نيرون ، وأخيراً تزوجته وأصبحت إمبراطورة روما ولذلك كان عند بولس سبب قوى فى أن يكره اليهود والرومان .

وتصادف تحول بولس إلى المسيحية مع رفض بوبيا له مما أدى إلى وقوعه فى أزمة عاطفية وعقلية فى ذلك الوقت ، ويعول على هذه الأزمة فى حياته فى تحوله من أقصى المناصرين للشريعة اليهودية إلى عدو لدود لها ، وبعد تحول بولس إلى المسيحية مكث مع أتباع المسيح فى دمشق وبدأ على الفور يبشر بالمسيح فى المجامع على أنه ابن الله (أعمال الرسل ٩ : ٢٠) .

ونتيجة لذلك بدأ يذوق طعم الاضطهاد الذى أذاقة هوللآخرين ولقد ساعد استعماله لكلمة ابن الله فى وصفه للمسيح على إغضاب اليهود لأن فكرة ابن الله كانت ممقوته من جانبهم لأنهم آمنوا بوحدانية الله .

وعندئذ غادر بولس دمشق وبدلاً من البحث عن أحد من أتباع المسيح

لكى يصاحبه ذهب إلى الجزيرة العربية حيث اختفى لمدة ثلاث سنوات .

وفى هذه الفترة بدأ يكون مذهبه فى تعاليم المسيح وهذا يعنى عدم الاعتراف بالشريعة اليهودية والتى كانت تضفى حقيقة هامة وهى أن المسيح من خلال حياته كان يمارس الشريعة اليهودية ويناصر تعاليم موسى من قبله .

وبعد فترة الاختفاء الكبيرة هذه لبولس فى الصحراء العربية عاد إلى الحواريين فى أورشليم وكانوا يشكون فى ظهوره المفاجئ وكانت قصص اضطهاده لأتباع المسيح لازالت واضحة فى أذهانهم ، وهل يمكن للبؤة أن تغير من طباعها ، ولذلك لم يكن هناك مبرر لقبوله وسطهم . وبولس لم يكن فقط من مضطهدى أتباع المسيح ولكنه يدعى أنه يعرف تعاليم المسيح بالرغم من أنه لم يره شخصياً أو قضى وقتاً قصيراً مع هؤلاء الذين فعلوا ذلك وبدلاً من أن يحاول بولس أن يتعلم من هؤلاء الذين كانوا وثيقى الصلة بالمسيح عندما كان حياً على الأرض أراد أن يعلمهم ويبرر بولس مسلكه ذلك فى رسالته إلى أهل غلاطية حيث يقرر : «وأعرفكم أيها الأخوة الإنجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح» (رسالة بولس إلى أهل غلاطية (١ : ١٠ - ١٢) وهكذا ادعى بولس أنه قريب من المسيح مع أنه كان مرفوضاً من أقرب أتباع المسيح على الأرض وهم الحواريون وبدأ يهذى بتعاليم ادعى أن المسيح علمه إياها لم يسمعها الحواريون على لسان المسيح وهو حى على الأرض ، ولذلك يشك الحواريون فى طريقة تحوله من اليهودية إلى المسيحية واعتبروا تعاليمه غير موثوق بها وكان الكثير من الناس فى ذلك الوقت يعتقد أنه ليس أكثر من جاسوس يدعى أنه من أتباع المسيح ونشب جدال مرير حول الاعتراف ببولس كمسيحى وظهوره المفاجئ كنتيجة لذلك .

وطبقاً للروايات تدخل برنابا والذى كان زميل دراسة لبولس وكان

معلمهم جمالئيل فى هذا الجدال وتكلم لصالح بولس ونجح فى ضمه إلى أتباع المسيح بالرغم من معارضة الحواريين الإجماعية وهذا يوضح مدى قوة تأثير برنابا على الحواريين ومدى العلاقة الوثيقة التى يتمتع بها مع المسيح عندما كان على الأرض . وأدرك بولس أنه قُبل بين أتباع المسيح بفضل جهود برنابا وليس بسبب جهوده الخاصة ولذلك لم يكن راضياً كنتيجة لذلك وهذا يوضح سبباً من أسباب رجوعه إلى طرسوس موطنه الأصلى وبعد ذلك بفترة قصيرة روُى أنه غادر أورشليم لأنه شعر أن حياته فى خطر ، ولقد أجبر اضطهاد أتباع المسيح ليس فقط عن طريق الرومان ولكن أيضاً عن طريق اليهود كثيراً منهم على التفرق فى بلاد الله فاتخذ بعض الحواريين طريقه إلى أنطاكية حيث كانوا يرجون الهروب من اضطهاد بولس وأتباعه وأصبحت مدينة أنطاكية من أكبر ثلاث مدن للإمبراطورية الرومانية بعد أن زاد عدد سكانها والمدينتان الأخريان هما روما والإسكندرية وكانت هذه المدينة فى وقت من الأوقات عاصمة المملكة اليونانية ومركزاً تجارياً كبيراً .

ونتيجة لغنى سكانها بدأت هذه المدينة تعيش حياة رفاهية ودعة ولذلك اكتسبت شهرة كونها مدينة الحياة الرغدة وفى هذه المدينة بدأت جماعة الحواريين الغريبة والصغيرة والتى تلبس الخرق تعيش حياة بسيطة وزاهدة من خشية الله .

وبدأ سكان المدينة الذين ملوا من هذه الحياة الغير أخلاقية فى الالتفاف حول الحواريين ولكن معظمهم كان ينظر إليهم بسخرية واحتقار ولذلك سموهم المسيحيين على سبيل الاستهزاء ، وكانت هذه الكلمة موضع احترام لعدد قليل من الناس وللأغلبية كانت موضع كراهية واستهزاء وكان أتباع المسيح يعرفون حتى هذه اللحظة بالنصارى ، وأصل هذه الكلمة فى اللغة العبرية يعنى «يحمى أو يحافظ على» وهكذا كانت الصفة الملازمة لها تعنى الدور الذى كانوا يقومون به فى حماية وحفظ

تعاليم المسيح ويروى ليبانيوس أن اليهود فى أنطاكية كانوا يدعون الله ثلاث مرات فى اليوم أن يلعن النصارى . وهناك مؤرخ آخر وهو بروفيرى وكان من المعارضين للنصارى يصف طريقتهم فى الحياة بأنها «ديانة جديدة وغريبة وهمجية» على حد قوله ويروى سيلتس أيضاً طبقاً لقول جيروم أن المسيحيين كان يطلق عليهم وصف «المحتالين والمخادعين» نظراً لأنهم كانوا يرتدون المعاطف اليونانية التى كان يرتديها كهنة المعابد اليونانية وبالرغم من هذه المعارضة الشديدة فإن الناس ابتدأت تتعلق بهؤلاء الغرباء وبدأ عدد أتباع المسيح فى التزايد ولهذا الغرض تشجع الحواريون فى أنطاكية وأرسلوا وافداً إلى أورشليم طالباً من بقية الحواريين هناك إرسال داعٍ منهم لكى يساعد فى نشر الحقيقة وتعاليم المسيح بين الوثنيين الذين ابتدءوا فى الالتفاف حولهم واختار الحواريون برنابا كأنسب شخص لهذه المهمة وهكذا أصبح برنابا أول مبعوث تبشيرى فى التاريخ المسيحى وعندما جاء برنابا إلى أنطاكية واجه نجاحاً غير متوقع منه بفضل جهوده «فانضم إلى الرب جمع غفير» (أعمال الرسل ١١ : ٢٤) «لأنه كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والإيمان» . وبعد عام قرر برنابا أن الوقت قد حان لنشر تعاليمه خارج حدود أنطاكية وكان متأكداً من أن بولس سيكون خير نصير له ولذلك خرج إلى طرسوس ليطلب بولس ولما وجده جاء به إلى أنطاكية وهكذا كان من المحتم على بولس أن يواجه بعض الناس من الذين كان قد اضطهدهم بيده من قبل فواجهوه بمعارضة قوية وعداوة شديدة وهنا تبرز قيمة وأهمية برنابا فلو أنه سار لوحده وترك بولس يواجه الناس ومنهم من يضمر له الشر لكان غير ما فعل .

ولكنه أدرك بحسه المرهف وبنظرته إلى محاسن رفيق دراسته السابق أن حماسه وغيرته الدينية اللتين قد جعلتا منه هذا المضطهد الكبير لأتباع المسيح من الممكن تحويلهما لكى تجعلاه من أتباع المسيح البارزين ولم يكن معظم الحواريين يشاركونه فى وجهة نظره هذه وأعلن بطرس معارضته

العلنية لبولس بالإضافة إلى تأجج نار العداوة التى سببتها أفعال بولس السابقة وكان هناك اختلاف فى وجهات النظر حول قضيتين أخريين الأولى أنهم لم يتفقوا لمن سيدعون بتعاليم المسيح وما الذى ينبغى أن يُعلَم .

وقرر بطرس أن المسيح قد جاء لكى يحيى تعاليم اليهودية الحقة ولذلك فتعاليمه يجب أن تنشر بين اليهود ، ولكن بولس من ناحية أخرى لم يؤمن فقط بإيصال التعاليم إلى كل إنسان يهودى أو خلافه ولكنه أضاف بأن المسيح قد وهبه تعاليم جديدة بعد اختفائه وبأن التعاليم يجب أن تجرى عليها تصحيحات ضرورية على حد قوله لكى تتناسب مع متطلبات الزمن والحاجة فتوسط برنابا بين الاثنين قائلاً بأن تعاليم المسيح فقط هى التى يُدعى بها ولكنه خشى أن هذه الدعوة قد يتلقفها أى شخص ويستغلها لتخريب الدعوة .

وسواء كان يهودياً أو غيره المستحق لهذه الدعوة اعتبر برنابا وبطرس هذه الدعوة استمراراً وامتداداً للدين اليهودى ولم يقبل الاثنان تعاليم بولس حيث إنها كانت تختلف عما تلقوه من المسيح ورأى أن مذهب بولس الجديد فى الأساس من اختلاقه الخاص .

ويقول ألبرت شفيتزر فى كتابه بولس ومفسروه «لم يستجب بولس لأقوال ووصايا المعلم» ومن المرجح أن برنابا كان يأمل أن الخصومة بين الاثنين ستهدأ وأن بولس خصوصاً مع مصاحبته لحواريى المسيح سيتخلى عن أفكاره الخاصة لصالح فهمهم الكامل وتجسيدهم لتعاليم المسيح وكم يكون واضحاً المساعدة القيمة التى قدمها برنابا لبولس فى تلك المرحلة نظراً لأنه دافع عنه وحماه من المعارضة الشديدة الجماعية للحواريين ؛ ولهذا السبب نجد أن هذا الجزء من حياة برنابا مسجل بالتفصيل فى سفر أعمال الرسل وكذلك العلاقة بين برنابا وبولس يشار إليها فى أعمال الرسل (١٣ : ١ - ٢) «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ولوكيوس القيروانى ومناين

الذى تربى مع هيرودس رئيس الربع وشاول وبينما هم يخدعون الرب ويصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه» .

وفى قائمة هؤلاء الأتباع يذكر لوقا برنابا أولاً وبولس ثانياً ونظراً لاختيارهما معاً لهذه المهمة رحل الاثنان وصاحبهما يوحنا مرقص الذى كان ابن أخت برنابا وذلك لنشر تعاليم المسيح فى اليونان وكان جميس ابن مريم من يوسف النجار مع بطرس فى وداعهم .

ومن المعلوم من سفر أعمال الرسل أن هاتين الرحلتين التبشيريتين كانتا من أنجح الرحلات بالرغم مما تعرضوا له من مضايقات كانت تصل إلى حد القذف بالحجارة والرجم فى بعض المناطق وانتشرت شهرة هذين الرجلين الصادقين وعندما وصلا ليكأونية وشفيا أعرج فى ليسترة أشيع أن «الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم فى الكلام فأتى كاهن زفس الذى كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين أيها الرجال لماذا تفعلون هذا نحن أيضاً بشر تحت آلام مثلكم نبشركم أن ترجعوا عن هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماءوالأرض والبحر وكل ما فيها» (سفر أعمال الرسل ١٤ : ١١ - ١٥) .

وإذا كان هذا هو رد فعل اليونانيين فهو دليل على الصعوبات الكبيرة التى واجهت برنابا وبولس وكان اليهودى الصادق يعترف بتعاليم المسيح كامتداد لتعاليم موسى أما الوثنى فكانت هذه الدعوة جديدة وغريبة عليه وربما تكون معقدة فكثير من الوثنيين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة التى كانت تختلط بالبشر كما هو معتقد ، وكانت تشارك فى أى نشاط إنسانى أما بالنسبة إلى اليونانيين والعامة منهم فقد كان وصف المسيح يشبه فى نظرهم أى وصف لأى أحد من آلهتهم وكانوا مستعدين لقبول الإيمان

بالمسيح بتلك الطريقة وكان هناك مجال آخر فى أذهانهم لإله آخر ونظراً لأن تعاليم المسيح كانت تؤكد وحدانية الله فقد قضت على كل آلهتهم ولذلك لم يتقبل كثير من عبدة الأوثان هذه الدعوة باستحسان وكانت قواعد السلوك التى كانت تكمل تعاليم المسيح تعنى تغيراً بعيد المدى فى طريقة الحياة لأى شخص يريد أن يتبعها إذا لم يكن هذا الشخص يهودياً مؤمناًويعرفها وبالطبع لم يكن عبدة الأوثان يعرفون شيئاً عنها .

وكان اليهود الذين كان يُنظر إليهم كشعب يحب المال مكروهين من جانب الأمم الأخرى ويرى تولاند فى كتابه النصارى أنه « كانت العداوة لليهود مستحكمة بين الأمم الأخرى لدرجة أن نظرة اليهودى إلى أى شيء ولوكان نافعاً أو ضرورياً كانت دافعاً كافياً للأممى أن يرفضه أو يتحول عنه» .

وكانت مهمة نشر طريقة حياة المسيح فى اليونان لأى شخص ليس مخلصاً أو مثابراً كبرنابا بدون التنازل عن أى مبدأ فى منتهى الفظاعة .

أما بالنسبة إلى بولس الذى كان قد أبدى ميله من قبل فى تغيير التعاليم التى كان يعلمها عن المسيح فقد كان الوقت قد حان لإجراء التصويبات المطلوبة على حد قوله لكى يجعل تعاليم المسيح مستساغة للعامة . وكانت اليونان وقتئذ جزءاً من الإمبراطورية الرومانية وكان هناك تماثل كبير بين الآلهة الرومانية واليونانية وكان الإيمان بها يعنى ترجيح نفس المفاهيم الخاطئة التى كان الإيمان بالآلهة اليونانية يعنيها ، وكان بولس قد أمضى بعض الوقت فى روما كمواطن رومانى ومن الممكن أن يكون تعليله الخاص لذلك متأثراً باحتكاكه بطريقة الحياة الرومانية .

وكان يدرك جيداً التأثير الكبير للديانات الرومانية على العامة فى الدولة وكان يشعر بوضوح أنه ليس ممكناً تغيير طريقة حياة الناس بدون إحداث تغييرات أيضاً أما برنابا من الناحية الأخرى كما هو مدون عن المسيح فى إنجيل متى (٥ :١٨) كان يعلم أن الخالق لا يريد لشريعته أن

تنتقص ويبدل منها حرف واحد أو نقطة واحدة ولذلك تمسك بالهدى الذى تلقاه وفى هذه المرحلة من انتشار المسيحية لم يكن المصدر الرئيسى للخلاف هو الطبيعة الإلهية وإنما تلا ذلك جدال عقيم وردود واضحة للمفكرين كمرحلة ثانية .

وكانت نقاط الخلاف بين برنابا وبولس قضايا تؤثر على وجود الإنسان اليومى وطريقته فى الحياة ولم يرد بولس أن يجرى أية تغييرات مفاجئة على تلك العادات التى كان اليونانيون يسلمون بها قبل وصوله وبرنابا إلى اليونان ولذلك أراد أن يترك وصايا موسى عن اللحم الحلال وكيفية ذبح الحيوان وأراد أيضاً أن يمحو وصايا إبراهيم الواضحة فى ضرورة الختان

وكان يواجه صعوبة تطبيق وإقامة شعائر تعاليم المسيح ولذلك زاد الخلاف بين بولس وبرنابا وفى تلك المرحلة لم تكن تلك الخلافات ملحوظة وكان الاثنان يواجهان تحدى تطبيق طريقة حياة المسيح ، وكان من تعاليم المسيح الأساسية تأكيد وحدانية الله ومبدئياً كان من الضرورى توجيه نظر الوثنيين إلى نوع من أنواع السلوك مخالف لما عهدوه .

ولذلك تم تعليم الوثنيين هذا النوع من السلوك تدريجياً ولم يكن أى مجتمع وثنى مستعد فى ليلتين أن يستوعب طريقة السلوك التى كان المسيح يجسدها ومن الآثار التاريخية تبين أن برنابا وبولس لم يبقيا فى أى بلد مدة طويلة فلم يكن لديهما المقدرة على نقل كل تعاليم المسيح فى وقت قصير جداً وبناء على ذلك حاولا نقل أهم التعاليم أولاً بنية العودة فيما بعد وتطبيق ما علموه للناس فيما بعد وبينما كان برنابا يحاول أن ينقل كل تعاليم المسيح كان بولس مستعداً لأن يتخلى عن كثير منها لأنه طبقاً للمذهب الجديد الذى كان يُكوِّنه لم تكن هذه التعاليم ضرورية ولذلك حاولا عند عودتهما إلى أورشليم أن يدافعا عن تصرفاتهما كل لسبب مختلف ، وبالرغم من وصفهما للأمور الخارقة التى حدثت منهما

فقد بقى هذا الخلاف وأدى إلى فراق الاثنين .

وقد قيل إنهما اختلفا بسبب أن بولس رفض أن يأخذ يوحنا مرقص معهما فى أى رحلة تبشيرية مستقبلية وبينما أصر برنابا على مصاحبة يوحنا مرقص لهما وكما هو مدون فى أعمال الرسل (١٥ :٣٩-٤٠) «فأشار برنابا أن يأخذا معهما يوحنا الذى يدعى مرقص وأما بولس فكان يستحسن أن الذى فارقهما من بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر وبرنابا أخذ مرقص وسافر فى البحر إلى قبرص» والتى كانت موطن برنابا وتوضح حقيقة أن يوحنا مرقص قد صاحب برنابا أن معتقداته كانت نفس معتقدات خاله ، وهذا على الأرجح واحد من أسباب عدم قبول بولس مصاحبة يوحنا مرقص ولا يذكر برنابا إلا بالكاد بعد تلك المرحلة ومن المعلوم أن برنابا وكما هو مدون فى أعمال الرسل والذى كان ممتلئاً من الروح القدس قد اختلف مع بولس و الذى شعرأنه لم يعد محتاجاً لبرنابا ، وبولس منذ أيامه الأولى كمسيحى لم يعتمد عليه أحد من الحواريين وذلك لعلمهم أنه لم ير المسيح فى عهده .

والآن بعد أن أصبح مقبولاً من الناس لم تعد قضية محاولة إقناع الناس به مقبولة وتجلت شهرته فى أنه أحس أنه بإمكانه أن يرتحل ويعظ بمذهبه بدون خوف من عدم قبول رأيه وبدون تقويم يد برنابا لكى تحط من اندفاعه وتقومه عندما ينحرف عن تعاليم المسيح وزيادة على ذلك لأن بولس كان مواطناً رومانياً فقد كان يستلزم عليه تعليم اللغة الرومانية وكان يتكلم اليونانية على الأرجح حيث إنها لغة موطنه ولذلك كتب رسائله فيما بعد إلى مسيحيى اليونان بلغتهم الأصلية ؛ وهذا يعنى أنه يمكنه السفر إلى اليونان وإلى إيطاليا بدون أى صعوبة فى فهم اللغة أما برنابا على العكس من ذلك فلم يكن يتكلم أياً من اللغتين اليونانية والرومانية ولذلك صاحبه يوحنا مرقص فى رحلته التبشيرية الأولى إلى اليونان حيث كان يتكلم

اليونانية وعمل كمترجم له ولو ذهب برنابا إلى اليونان وحده لما فهمه أحد .

وهذا يفسر رفض بولس السفر مع يوحنا مرقص فقد تكون هذه طريقة ملتوية للتأكد من أن برنابا سيرفض السفر معه بدون ابن أخيه ويعلق ماكجيفرت على افتراقهم الثلاثة فى كتابه تاريخ المسيحية فى العصر الرسولى «إن برنابا الذى كان حقه فى الدعوة إلى المسيحية بين الأمم معروفاً فى أورشليم وانسحابه وافتراقه عنهم مسلك غريب جداً ولكنه لم يتعاطف تعاطفاً كاملاً مع مذهب بولس المسيحى المتحرر من كل الشرائع وكان افتراق بولس وبرنابا كما صوره مؤلف أعمال الرسل نتيجة خلاف يتعلق بيوحنا مرقص ولكن السبب الحقيقى قد يكون أكبر من ذلك فقد كان برنابا هو الرجل الذى وقف بجانب بولس وكان مرتبطاً به بطريقة ودية فى الأيام الأولى للدعوة المسيحية وكان عضواً من أعضاء الكنيسة المسيحية الأولى فى أورشليم وكانت صداقته لبولس تعنى الكثير له وساهمت إلى حد ما فى اعتراف الناس به وازدياد تأثيره على المسيحيين .

وكان برنابا مسئولاً عن بولس فى الأيام الأولى عندما كانت ذكرى ماضيه الاضطهادى حية فى ذهن الكنيسة أما تغير سلوك برنابا نحو بولس فقد كان نتيجة تجاربه فى السفر مع بولس ولقد كانت الآمال فى تغيير بولس لوجهات نظره وفى أن يصبح من أتباع المسيح الحقيقيين تلغيها أحداث تلك الرحلة التبشيرية الأولى .

ولقد أدرك برنابا أيضاً فائدة نشر الدعوة التى كانت معدة لليهود فقط بين الأمم الأخرى ولكن عندما تبين له حماقة هذا السلوك تركها قبل أن يستمر فقد كانت فكرة جميلة ولكن عند تطبيقها فى الحقيقة أثبتت التجربة أنها غير ممكنة .

وكانت تجربة الدعوة إلى المسيحية فى أنطاكية ناجحة جداً لأن الأمميين هناك أتوا إلى أتباع المسيح برغبتهم وطلبوا اعتناق المسيحية ، بينما ذهب

هو وبولس إلى اليونان كانوا هم يطلبون من اليونانيين أن يصبحوا مسيحين ولا يوجد أى وصف تاريخى لما حدث لبرنابا بعد عودته إلى قبرص ولكن من المعروف أنه مثل الكثيرين الذين يتمسكون بتعاليم النبى الجديد قد مات كشهيد وبالرغم من حقيقة محو اسمه من كثير من صفحات الكتاب المقدس فمن الواضح أنه حاز على مكانة كبيرة فى تاريخ المسيحية لا يمكن تجاهلها .

وكان مستعداً أن يعلم ويدعو جهاراً كل ما تعلمه من المسيح فى أيام المسيحية الأولى فى وقت كان بعض من كان قريباً من المسيح خائفاً من إعلان ارتباطه به ، وحقيقة إخلاصه للمسيح اعترف بها الأعداء والأصدقاء معاً ونزل العشاء الأخير أو المائدة فى منزل أخته وكان هذا المنزل مكان الالتقاء لأتباع المسيح بعد اختفائه . أما تأثير برنابا على الحواريين وأتباع المسيح الآخرين فهو حقيقة قائمة من الكتاب المقدس ولذلك يطلق عليه معلم ونبى وأحياناً رسول عن طريق لوقا الذى كان مخلصاً بلا أدنى شك إلى بولس وفوق كل ذلك يذكر برنابا كرجل لم يحور أو يبدل تعاليم المسيح .

وبعد مغادرته إلى قبرص استمر بولس يدعو فيما بدأ به وبالرغم من بقائه مع المسيحين الأوائل فترة طويلة لدرجة أنه يمكن اعتباره واحداً منهم كان لا يزال يدرك ضعف مركزه ، وبما أنه الآن يمكن أن يطلق عليه رسول للمسيح فهذا لا يغير من حقيقة أنه لم ير المسيح فى حياته بالرغم من ادعائه أن المسيح قد أتى له عن طريق الوحى فقد كان يحتاج إلى شخص كان يعيش مع المسيح لكى يصاحبه فى رحلاته بين الأمميين . وكانت مصاحبة أى شاهد عيان للمسيح تمده بمساعدة قيمة وتساند مجادلاته بسلطة إضافية .

ولذلك أقنع بطرس الحوارى أن يصاحبه ومن المدهش أن هذين اللذين كانت خصومتهما مستحكمة فى الماضى يجتمعان معاً ولكن الموقف تغير

الآن بالنسبة لبولس فقد تم الاعتراف به كمسيحى من جانب كثير منهم الآن ولم يعودوا ينظرون إليه كجاسوس أو مضطهد لهم ، ويقول سيلسس وهو فيلسوف يونانى ومن أعنف منتقدى المسيحيين إن أصل الخلاف بين الاثنين فى أنطاكية كان غيرة بولس من شعبية بطرس ولكن هذه الغيرة تضاءلت مع ازدياد شعبيته خصوصاً بين الأمم الأخرى ولقد لعب اضطهاد المسيحيين دوره فى اتحادهم معاً ولقد أصبح اضطهاد الرومان واليهود الذين يؤيدونهم للمسيحيين قاسياً منذ الآن أما بطرس الذى كان قد أظهر ضعفه من قبل عندما أنكر أنه صاحب المسيح تحت الضغط أو وقوعه فى خطر مباشر فى وقت محاكمة المسيح وصلبه المفترض فقد كان مستعداً الآن أن يتفق مع بولس فى مذهبه عن رسالة المسيح لأن أى تغيير يحدث هنا أو هناك قد يعنى تقليل اضطهاده .

وهكذا كان الموقف فى هذه الأيام الأولى للمسيحية لدرجة أنه أصبح واضحاً للبعض أن يغير ويكيف رسالة المسيح لكى تعترف بها الأمم الأخرى من غير اليهود ولكى لا تهدد سلطة أصحاب النفوذ فى اليهودية وسياسة وإطاعة الحكام هذه بدون تمييز سواء كانت شريعتهم تتفق مع شريعة الخالق أم لا . يذكرها بطرس فى رسالته الأولى (٢ :٣-١٨) .

«فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب إن كان للملك فكمن هو فوق الكل أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعلى الشر وللمدح لفاعلى الخير لأن هكذا هى مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر بل كعبيد الله أكرموا الجميع أحبوا الأخوة خافوا الله أكرموا الملك أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضاً »

سافر بولس غرباً مع بطرس وقد كان بدون إخلاص برنابا وقدرته على كبح جماحه ليواجه معارضة ضعيفة لمذهبه وطريقته فى السلوك والتصرف الجديدة ففى رسالته إلى رومية (١٥ : ٢٠-٢١) يقول ولكن كنت

محترصاً أن أبشر هكذا ليس حيث سمى المسيح لئلا أبنى على أساس الآخر بل كما هو مكتوب الذين لم يخبروا به سيبصرون ، والذين لم يسمعوا سيفهمون فإذا كان بولس ينشر تعاليم المسيح الحقيقية سيكون أساس الآخر نفس تعاليمه فكلاهما كانا سيشتركان فى نفس البناء ولم يكن هؤلاء الذين سمعوا عن المسيح أو يسوع لأول مرة من لسان بولس عندهم الاستعداد لمقارنة ما قاله مع روايات الحواريين الذين كانوا ولا يزالون متمسكين بتعاليم المسيح ولكن أقاويل بولس هى وحدها التى سمعوها وساعد بولس إلى حد كبير في نشر رسالته رجل يهودى من الإسكندرية يدعى أبولوس ولقد كان موفقاً فى نشر أفكار بولس بين الناس وقد قيل أن بولس زرع وأبولوس روى وفى النهاية لم يقبل أبولوس كل بدع بولس وافترق عنه مثل برنابا وانحرف بولس أكثر فأكثر عن تعاليم المسيح وركز أكثر على شخصية المسيح والذى ادعى أنه قد ظهر له فى رؤيا وكان دفاعه عن نفسه أمام الذين اتهموه بتغيير تعاليم المسيح وهداه أن ما كان يعظ به له أصوله فى الوحى المباشر الذى تلقاه من المسيح وهذا بدوره أعطى بولس سلطة روحية ، وبفضل هذه السلطة ادعى أن بركات الإنجيل ليست مقصورة على بنى إسرائيل ولكن على كل الذين آمنوا به بل وأكثر من ذلك قال إن متطلبات شريعة موسى ليست غير ضرورية فقط ولكنها مناقضة لما أوحى إليه من الله على حسب زعمه وفى الحقيقة على حد قوله تعتبر «لعنة» .

وهكذا لم يكسب بولس غضب أتباع المسيح فقط بل وغضب بنى إسرائيل أيضاً لأنه كان يناقض تعاليم المسيح وموسى معاً .

ولذلك وضح لماذا اختار أن ينشر تعاليمه بين الذين كانوا يكرهون اليهود ولم يسمعوا عن حقيقة المسيح وبرهن بولس على مذهبه الجديد بهذا التمثيل .

«أم تجهلون أيها الإخوة لأنى أكلم العارفين بالناموس أن الناموس يسود

على الإنسان مادام حياً .

إن المرأة التى تحت رجل هى مرتبطة بالناموس بالرجل الحى ولكن إن مات الرجل فقد تحررت من ناموس الرجل فإذًا مادام الرجل حياً تدعى زانية إن صارت لرجل آخر ولكن إن مات الرجل فهى حرة من الناموس حتى إنها ليست زانية إن صارت لرجل آخر إذًا يا إخوانى أنتم أيضاً قدمتم للناموس بجسد المسيح لكى تصيروا لآخر للذى قد أقيم من الأموات لنثمر لله»

(بولس إلى أهل رومية ٧ : ١ - ٤)

وهذا التمثيل يظهر بوضوح أن بولس قد فرق بين المسيح قبل موته وبعد موته فطبقاً لتعليله لم يعد الناموس قبل موته وبعد موته الذى ارتبط به المسيح وأتباعه ضرورياً لأن المسيح نفسه قد مات فلم يعودوا بعد مرتبطين بالمسيح ولكن بمسيح آخر جاء بناموس جديد ولذلك فمن الضرورى اتباع المسيح الجديد وليس المسيح قبل موته وهذا الفكر يجعل أى واحد متمسكاً بتعاليم المسيح يضل ومع هذا التعليل كون مذهبه من نظرية الفداء والكفارة وهى نظرية لم يدعُ إليها المسيح عليه السلام وكان نجاح هذه النظرية يتجلى فى أنها كانت تقول أن الإنسان من الممكن أن يفعل ما بدا له ولا يعاقب بنتيجة أفعاله بشرط أنه فى نهاية اليوم يقول «إنى أؤمن بالمسيح» .

وعلى أية حال كان المبدأ الرئيسى الذى ارتكز عليه بولس فى تعليله زائفاً لأن المسيح لم يصلب ولم يبعث ولذلك كان مذهبه عن الفداء والكفارة زائفاً أيضاً .

وكان لتعليل بولس نتيجتان فقد نتج عنه ليس فقط إجراء تغييرات كبيرة فى تعاليم المسيح ولكن أيضاً تمهيد الطريق لتغيير كلى فى تفكير الناس عن حقيقة المسيح فقد تحول من رجل إلى مفهوم من المفاهيم فى عقول الناس .

ولقد نُسب إلى المسيح كونه إلهاً عندما كان حياً من بعض ممن تعجبوا

من كلماته ومعجزاته والذين اعتبروه خطأ أكثر من نبى وبعض أعدائه أيضاً نشروا شائعة أنه ابن الله آملين أن ذلك سيثير ثائرة اليهود المتدينين ضده لإقرانه نفسه بالله .

وهكذا حتى قبل اختفائه كان هناك اتجاه لتجاهل طبيعته البشرية الحقيقية وإعطائه الصفة الإلهية وهذه الصورة التخيلية للمسيح التى كانت لها القدرة على إلقاء تعاليم المسيح الحقيقية وجعلته شخصاً غير عادى وخالداً قد جعلت الاضطراب يسود معتنقيها بخصوص الله وأصبحت من مستلزمات العبادة وجعلت المسيح مقترناً بالله .

وهذا الانتقال من المسيح كرجل إلى صورة جديدة له مقدسة قد جعلت المفكرين فى اليونان وروما يتمثلون فى فلسفاتهم الخاصة ما كان يعظ به بولس وأتباعه فكانت وجهات نظرهم عن الكون أنه ثلاثى التكوين وهو نفس كلام الكنيسة البولسية عن الإله الأب والابن . وكانت تحتاج إلى إدخال كلمة الروح القدس لتكمل الثالوث الذى تنافس به معتقدات الفلاسفة وبمرور الزمن اندمجت هاتان الصورتان فى صورة واحدة ومن هنا نشأ مذهب التثليث ولم تكن الفلسفات السائدة فى اليونان فى ذلك الوقت هى التى شكلت هذا المذهب ولكن نفس لغة اليونان أيضاً أثرت على التعبير عن المذهب فى معناه المحير والمحدود ، وكانت اليونان تضم الفلسفة اليونانية بمعناها الواسع ولم تكن هذه البلاد واسعة أو لينة بما فيه الكفاية لكى تستوعب تعاليم المسيح وحتى لو كان هناك مؤمن صادق بالمسيح يتكلم اللغة اليونانية بطلاقة فلم يكن يستطيع أن يعبر عن مجمل تعاليم المسيح بهذه اللغة وكان عليه أن يعيد كلامه . وعندما أتى زمان ترجمة الأناجيل العبرية إلى اليونانية كانت مظاهر القصور فى الترجمة واضحة ولكنها فى النهاية اختفت عندما أزيلت كل الأناجيل التى باللغة العبرية .

وبالرغم من أن بولس لم يبشر حقيقة بألوهية المسيح ولا مذهب

التثليث فقد كان أسلوبه فى التعبير والتغييرات التى أجراها تفتح الباب لكل هذه المفاهيم الخاطئة وتمهد الطريق لكى تكون هذه المذاهب قائمة فى أوربا ، وكانت هذه المذاهب تضع مريم فى وضع مستحيل وهى كونها «أم الله» ولقد أصل بولس معتقداته هذه بقوله إنه لا يوجد رابط بين الفترة التى عاش فيها المسيح والفترة التى يعيش فيها الآن فالزمن تغير والوضع الذى يسود الآن يقول بأن تعاليم المسيح قديمة ولم يعد من الممكن تطبيقها .

لذلك كان من الضرورى إيجاد أساس أخلاقى جديد واستفاد بولس من الظروف الموجودة وقتئذ وبدأ ينشر مذهبه ومعتقداته (إلى أهل كورنثوس ٦ :١٢) «كل الأشياء تحل لى لكن ليس كل الأشياء توافق ، كل الأشياء تحل لى لكن لا يتسلط على شيء» ولم يرفض بولس فقط كلاً من المسيح وموسى ولكنه ادعى أنه وحده المشرع ولم يوافق كثير من الناس على هذا ولذلك رد عليهم بولس بقوله :

«فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده فلماذا أدان أنا بعد كخاطئ (إلى أهل رومية ٣ :٧-٨) ويبدو من هذا القول أنه بالرغم من علمه أنه كان يكذب فإنه شعر أن الغاية تبرر الوسيلة ولكن غير معلوم ما هو صدق الله الذى يزداد بكذبه وطبقاً لهذا المنطق إذا كان المسيح يساوى بالله فما هى اعتراضات أتباع المسيح .

ولقد أخرج بولس من تأليفه ديانة تشتمل على عناصر متناقضة كثيرة فقد أخذ التوحيد من بنى إسرائيل وأضاف إليه الفلسفة الوثنية . وأضاف إلى هذا الخليط بعض تعاليم المسيح وبعضاً مما ادعى هو أن المسيح قد أوحى به إليه وكان علم اللاهوت عند بولس يبنى على تجربته الشخصية مفسرة فى ضوء الفكر اليونانى المعاصر له فالمسيح قد أُله ووضعت كلمات أفلاطون فى فمه المقدس أما نظرية الفداء فكانت من نتاج عقل بولس وهو اعتقاد لم يعرفه المسيح ولا حواريوه وهو مؤسس على الإيمان بالخطيئة الأصلية والصلب والبعث ، وأى من هذه الأفكار غير صحيح وهكذا نتج

عن ذلك ديانة مكونة مسيحية ولكنها سخيفة من الناحية الحسابية وكاذبة تاريخياً وذات تأثير نفسي الآن ، وفي المعبد الكبير الذى ساعد بولس فى تشييده بنيت أبواب على كل الجوانب وكانت نتيجة ذلك أن من يأتى كمسيحى على ملته للمرة الأولى كان يشعر أنه يؤدى الشعائر لنفس الإله الذى عبده قبل تحوله للمسيحية سواء كان يهودياً أو من الأمم الأخرى وبمجرد أن تطورت هذه المفاهيم الأساسية الخاطئة لبولس آمن به كثير من الناس معتقدين أنه يتبع تعاليم المسيح بدون معرفتها ، ولذلك يوجد بعض التبرير من جانب هاتيز تسارنت وهو يدعو بولس «مفسد إنجيل المسيح» ويصفه ويردب «بالمؤسس الثانى للمسيحية» ويقول ويردب أنه بسبب بولس :

«كان الفارق بين المسيح التاريخى ومسيح الكنيسة كبيراً لدرجة أن أى اتحاد بينهما لا يعترف به» وكتب شون فيلد «أصبحت بدعة بولس وهرطقته أساس المسيحية الأصولية أما الكنيسة الشرعية فكانت غير معترف بها» وهكذا أصبح برنابا متهرطقاً وبالنسبة لأتباع المسيح كان طريق الحقيقة كالطريق المستقيم له طول ولكن ليس له عرض فلم يوافقوا على تغيير تعاليم المسيح ليس فقط لأنها كانت واضحة وإنما لأن تعاليم المسيح كانت بالنسبة لهم هى الحقيقة وكل الحقيقة واستمر برنابا وأتباعه فى الوعظ والتبشير بالمسيحية التى تعلموها من المسيح ذاته وقد كانوا ولا زالت لهم قوة ومنهم خرج قديسون وعلماء تحترمهم كل طائفة من طوائف المسيحية ولم يكون أتباع المسيح وبرنابا أى تنظيم مركزى حتى ذلك الوقت بسبب تكريس زعمائهم أنفسهم للدعوة وزاد عددهم بسرعة .

وكان هؤلاء الزعماء حكماء وقادة دينيين يحبون ويخشون الله ولجئوا إلى الصحراء والجبال بحيث إن كل مجموعة صغيرة كانت تتجمع حول قديس ، وكانوا لا يعتمدون على بعض نظراً لخشونة الظروف التى يحيون فيها وكان عدم وجود تنظيم معروف مصدر قوة لأنه لم يكن من السهل

على مضطهديهم معرفتهم وانتشر مذهب بولس فى اليونان وأوربا بينما انتقل رجال الله إلى الجنوب ينشرون دعوة المسيحية الحقة وأخيراً انتقلوا إلى شمال إفريقيا .

وكانت المجتمعات التى يكونونها تحافظ على أسلوب وحياة المسيح ونقلوا تعاليم المسيح من شخص لآخر وكان سلوك المسيح يُقلد وكانت دعوته تنقل شفهياً ، واستمر هؤلاء فى تقرير وحدانية الله ، وتوجد بعض الآثار عن طوائف معينة كانت تعيش فى القرون الأولى بعد وفاة المسيح مثل الإبيونيت والسيرنيسيين والباسيليديين والكاربوكراثيين والهيبيسيتريين الذين رفضوا عبادة الله كأب ووقرت هذه الطوائف الله كحاكم قدير للكون ، العلى الكبير الذى لا يساويه أحد .

والآن توجد روايات مختلفة عن حياة المسيح وتعاليمه وأن المسيح كان يتكلم بالآرامية وهى لهجة من لهجات اللغة العربية لم تكن معروفة فى الكتابة .

ولذلك كانت أول الأناجيل مكتوبة باللغة العبرية ولم يعترف بها رسمياً أو رفضت حتى كان على زعيم مجتمع مسيحى أن يقرر أى الأناجيل سيستخدمها وكانت كل طائفة تعتمد على مصدر مختلف طبقاً للمعلم الذى يعلمها فهؤلاء الذين اقتدوا ببرنابا اعتمدوا على مصدر وهؤلاء الذين اقتدوا ببولس اعتمدوا على مصدر آخر .

وهكذا بعد رحيل المسيح من الأرض بفترة قصيرة كانت توجد هوة كبيرة ومعروفة بين أتباع المسيح وأتباع الكنيسة البولسية التى أصبحت تعرف فيما بعد بالكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولم تكن الهوة بين الطائفتين تتجلى فى أسلوب الحياة والاعتقاد ولكن كان يمكن الفصل بينهما جغرافياً بصورة واضحة وعندما ازدهرت الكنيسة البولسية أصبحت تعادى أتباع المسيح بصورة متزايدة وربطت نفسها أكثر بحكام الإمبراطورية الرومانية .

وكان الاضطهاد فى أوله موجهاً لكل ما هو مسيحى ثم ابتدأ ينصب على هؤلاء الذين تمسكوا بوحدانية الله وبذلت محاولات لإجبارهم على تغيير معتقداتهم والقضاء بالقوة على الذين يرفضون ذلك مع التخلص من كتبهم وكان كثير من الشهداء الأوائل من الموحدين وبقدر ما تم الاعتراف بمذهب التثليث بقدر ما بدأ أتباعه فى معارضة الذين آمنوا بوحدانية الله .

وعندما تولى الإمبراطور جوليانوس الحكم وصل هذا الصراع بين الطائفتين مرحلة جعلت الإمبراطور يقول : «إن الطوائف المسيحية شديدة العدواة لبعضها أكثر من عداوة الحيوانات المتوحشة للإنسان» .

وكان هؤلاء الذين انحرفوا عن تعاليم المسيح بالطبع على استعداد لتغيير الكتب المقدسة أيضاً وإدخال كتب كاذبة تؤيد معتقداتهم ويقول تولاند فى كتابه النصارى راوياً عن إيراينوس وهو واحد من الشهداء الموحدين الأوائل «لكى يدهشوا العامة وهؤلاء الذين يجهلون الكتب الحقيقية كان عليهم أن يدخلوا عدداً كبيراً من الكتب المقدسة السرية والزائفة التى من تحريفهم الخاص» ويستمر تولاند «لقد كنا نعلم من قبل كيف كانت درجة الزيف والسذاجة تسير فى الأيام الأولى للكنيسة المسيحية ، وكانت الكنائس الأحدث على استعداد أن تتلقى كتباً كما كانت الكنائس الأولى تحرف الكتب وهذا الشر أصبح متعاظماً بعد ذلك ليس فقط لأن الرهبان كانوا المشاركين فيه والمحتفظين بجميع الكتب سواء كانت حقيقة أو زائفة ولكن بمرور الوقت أصبح من المستحيل تمييز الحقيقة من الزيف والصدق من الكذب بالنسبة للآثار الأولى والأصلية للمسيحية كيف كان تابعو الرسل يخلطون بهذه الكثرة التعاليم الحقيقية للرسل بهذه الأمور فكيف يمكن لتابعيهم أن يأتو بهداية أعظم ونلاحظ أن هذه الكتب السرية كان الآباء الأوائل يضعونها فى نفس المرتبة مع الكتب الحقيقة ويستشهد بالكتب الأولى ككتب مقدسة مثل الكتب الأخيرة أوأحياناً لا يسمحون بالكتب التى نعتبرها نحن مقدسة وإنى أطرح هذين السؤالين :

لماذا كل الكتب التى يستشهد بها كليمنت السكندرى وأوريجن ويترتيليان ككتب حقيقية لا تعتبر كتباً معترفاً بها وأى ثقل يعتد به لشهادة هؤلاء الآباء الذين لا يناقضون بعضهم البعض فقط ولكنهم لا يتفقون مع بعضهم البعض فى روايتهم لنفس الحقائق .

ويستمر تولاند فى قوله : عندما نسأل الكهنة المتخشبين ومدعى القداسة هذه الأسئلة بدلاً من الرد على هذه المجادلات فإنهم يتهمون الذين يسألون هذه الأسئلة بالهراطقة أو الكفرة المخادعين وهذا التصرف يجعلهم يعتبرون كل الناس غشاشين ومحتالين لأن الناس عندما تمس فى فؤادها تصيح ولاتجد أى أحد يغضب من أى سؤال يستطيع الإجابة عليه .

ويتساءل تولاند فى النهاية «نظراً لأن مؤرخى الكنيسة الأوائل يعتبرون النصارى أو الإبيونيت بالإجماع من أوائل المسيحيين أو هؤلاء الذين آمنوا بالمسيح عندما كان مع اليهود قومه أو الذين عاش ومات بينهم وكانوا شهداء عيان على أعماله ومن بينهم كل الحواريين كيف يمكن اعتبارهم سابقين على الكل ، هؤلاء الذين يكونون آراءخاطئة عن تعاليم وأعمال المسيح وكيف ظهر الأمميون الذين آمنوا به بعد موته عن طريق الوعظ الذى وعظهم به أشخاص لم يعرفوا المسيح حق المعرفة ليكونوا رأياً صائباً عن هذه الأشياء وكيف تأتَّى لهم أن يستمدوا معلوماته إلا من اليهود المؤمنين به ؟

الفصل السادس

الموحدون الأوائل فى المسيحية

خرج من المسيحيين الأوائل الرسوليين عدد من القديسين والعلماء مثل أتباع المسيح وبرنابا وكانت تقواهم وهدايتهم موضع احترام وإعجاب حتى اليوم ، وكانوا يفسرون الكتب المقدسة تفسيراً تاريخياً ولم يكونوا مثل الأرثوذوكس الآن لا يبحثون فقط إلا عن المعنى المجازى للنص ولكن كانوا يقبلون المعنى الواضح للكلمات كما جاءت على لسان المسيح وكانوا ينقدون نصوص الكتاب المقدسة حيث كانت بعض الأجزاء أكثر أهمية بالنسبة لهم من الأخرى وكانوا يصرون على وحدانية الله ويمقتون أى عقيدة تدعو إلى التثليث ولو إلى أدنى درجة .

وكانوا يركزون على شخصية المسيح التاريخية ويتجنبون استخدام كلمة ابن الله عند الكلام عنه ولقد حاولوا جهد طاقتهم أن يعيشوا ويتصرفوا مثلما كان يفعل المسيح وكثير منهم كان يعيش فى شمال إفريقيا ، وكان من أهم شخصيات أتباع المسيح إيرانيوس (١٣٠- ٢٠٠ قبل الميلاد) .

كانت المسيحية الأنطاكية وقت ولادة إيرانيوس قد انتشرت فى شمال إفريقية وإلى حدود أسبانيا وجنوب فرنسا ولقد ذكر إيرانيوس لأول مرة عندما كان يحمل شكوى بالنيابة عن بوثينس أسقف ليونز إلى البابا أن يوقف اضطهاد المسيحيين الذين لا يؤمنون بمذهب الكنيسة البولسية .

ولقد سمع وهو فى روما أن كل المسيحيين المعارضين لهذا المذهب بما

فيهم الأسقف بوثينس قد قتلوا وعند عودته تقلد منصب بوثينس كأسقف لمدينة ليونز .

وفى عام ١٩٠ بعد الميلاد كتب إلى البابا فيكتور أن يوقف المذابح ضد المسيحيين الذين يقتلون فقط لاختلافهم فى الرأى وتكررت القصة وقتل هو نفسه فى عام ٢٠٠ بعد الميلاد لتبنيه قضية المسيحيين الذين يخالفون البابا .

ولقد آمن إيرانيوس بإله واحد وأيد مبدأ بشرية المسيح ولقد انتقد بولس بشده لكونه مسئولاً عن إدخال مذاهب الديانات الوثنية والفلسفة الأفلاطونية إلى المسيحية وكان يقتبس فى تأييده لذلك نصوصاً كثيرة من إنجيل برنابا .

وبعد أن قرأ مارينوس كتابات إيرانيوس أصبح مهتماً بهذا الإنجيل وهذا بدوره أدى إلى اكتشافه للمخطوطة الإيطالية من إنجيل برنابا فى المكتبة البابوية .

تيريتليان (١٦٠-٢٢٠ ميلادية)

كان تيرتيليان يتبع الكنيسة الإفريقية وكان موطنه مدينة قرطاج وكان يؤمن بوحدانية الله ، وكان يعرف المسيح بمسيا اليهودى ، وكان يعارض البابا كاليستس فى قوله إن أكبر ذنب يمكن أن يغتفر بعد أداء الكفارة الشرعية ، وكان يؤمن باتحاد القلب مع الوجود ومن أقواله : «إن العامة تعتقد أن المسيح رجل وليس إله» .

وكان هو أول من أدخل كلمة التثليث إلى الكتابة اللاتينية الإكليركية عندما كان يجادل فى هذا المذهب الجديد القريب ولم تستخدم كلمة التثليث ولا مرة واحدة فى الكتب المقدسة .

أوريجن (١٨٥-٢٤٥ بعد الميلاد)

كان أوريجن مولوداً فى مصر أو ربما فى الإسكندرية ولقد بنى والده لينونيداس مركزاً تعليمياً ونصب كليمنت عالم اللاهوت الشهير

مديراً له وتلقى أوريجن تعليمه هناك .

ولم تعترف الكنيسة البولسية بالمعتقدات التى كان يعتنقها لينونيداس الذى كان يتبع المسيحية الرسولية ورفض أن يعترف بتفسيرات وبدع بولس وقتل عام ٢٠٨ ميلادية .

ولقد تأثر أوريجن بهذه الواقعة كثيراً جداً لدرجة أنه تمنى أن يقتل كشهيد ولكن والدته كانت تدافع عنه ، ولما أحس كليمنت معلمه أن حياته فى خطر هرب من الإسكندرية ولما كان أبوه قد مات ومعلمه قد هرب أحس أوريجن وكأنه ينساق إلى الخطر وعندما تولى منصب المدير الجديد للمدرسة حصل على شهرة كبيرة لعلمه وشجاعته ولقد خصى نفسه عملاً بقول (متى ١٩ :١٢) «لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ويوجد خصيان خصاهم الناس ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات ، من استطاع أن يقبل فليقبل» .

وفى عام ٢٣٠ ميلادية عين قسيساً فى فلسطين ولكن الأسقف ديمريوس عزله ونفاه ولذلك لجأ إلى قيصرية عام ٢٣١ ميلادية وبنى مركزاً تعليمياً هناك سائراً فى ذلك على نهج والده وأصبحت هذه المدرسة مشهورة جداً .

وكان جيروم وهو صاحب الترجمة اللاتينية المشهورة للإنجيل اليونانى قد أيد أوريجن فى المبدأ ثم بدأ بعد ذلك ينحاز إلى الإنجيل الذى يدعو للتثليث ولذلك أصبح عدواً له ولقد حاول جيروم أن يجعل الكنيسة تدين أوريجن ولكن نظراً لشعبية أوريجن لم يجرؤ الأسقف يوحنا على فعل ذلك ثم نُفى جيروم نفسه لكنه نجح فى أن يجعل مجمع الإسكندرية يدينه عام ٢٥٠ ميلادية ووضع فى السجن وخضع لتعذيب شديد نتج عنه وفاته عام ٢٥٤ ميلادية وكان سبب وضعه فى السجن أنه لم يعترف بمذهب التثليث وأنه كان يدعو لوحدانية الله .

ولقد آمن أوريجن أن الله عظيم وأن المسيح عبده ورسوله وليس

مساوياً له وكتب حوالى ٦٠٠ مبحث ورسالة ولقد وصفه المؤرخون بأنه من أكثر الشخصيات الإيجابية فى تاريخ الكنيسة فمنذ شبابه حتى ساعته الأخيرة كان يبدى شجاعة غير معهودة وكان صبوراً وواعياً وكانت عنده كل صفات المعلم الحقيقى ولقد أحبه كل الذين علمهم وكانت قدرته على التميز وطاقته الخلاقة وسعة علمه شيئاً لا مثيل له بين المسيحيين .

ديودورس

كان ديودورس أسقف طرسوس ويعتبر واحداً من أهم زعماء الكنيسة الأنطاكية وكان يؤمن بأن الدنيا متغيرة وأن التغير ذاته هو حالة تشتمل على بداية وتحتاج لما يدعوها إلى الاستمرار وبالإضافة إلى ذلك نجد أن اختلاف الوجود والحكمة فى عملية التغيير ذاته ترمز إلى وحدة الوجود ووجود الخالق ذاته وعنايته بالخلق وهوالخالق الوحيد واعتنق ديودورس مبدأ بشرية المسيح المطلقة وأن له روحاًوجسداً آدميين .

لوسيان (توفى عام ٣١٢ بعد الميلاد)

لا تقل شهرة لوسيان كعبد تقى لله عن شهرته كرجل علم وكان يعرف اللغتين العبرية واليونانية ، وكان خارج المجتمع الكنسى من عام ٢٢٠-٢٩٠ ميلادية ولقد كانت نفسه الصافية ومعرفته العميقة تجذب عدداً كبيراً من الناس إليه وأصبحت مدرسته تفرخ علماء المذهب الآرى المعروف وكان آريوس من تلاميذه وكان يؤمن بالتفسير الأدبى والنحوى للكتب المقدسة وكان لا يميل إلى استخراج معانى رمزية ومجازية منها ولكن يؤمن بوجود مبدأ منهجى ونقدى فى التفسير وسبب هذا التناقض فى الروايات فى نظره يظهره حقيقة أن الناس كانت تعتمد أكثر فأكثر على الكتب المقدسة وليس على النقل الشفهى لتعاليم المسيح وهذا يثبت كيف أن تعاليم المسيح ، قد فقدت كلية وكان عالماً

دينياً كبيراً وقام بمراجعة ترجمة التوراة السبعونية ولقد ألغى عدداً كبيراً من التحويرات في بعض الأناجيل عند ترجمتها إلى اللغة اليونانية وقدم الأناجيل الأربعة التي تعتبر في نظره أناجيل حقيقية ولم تكن هذه الأناجيل الأربعة نفس الأناجيل التي تعترف بها الكنيسة البولسية اليوم بصورة شائعة .

والمسيح في نظره ليس مساوياً لله ولكنه خاضع له وبسبب ذلك أضمرت له الكنيسة البولسية عداوتها وبعد القبض عليه وتعذيبه توفي عام ٣١٢ ميلادية من التعذيب .

آريوس (٢٥٠-٣٣٦ميلادية)

تتداخل قصة حياة آريوس مع قصة حياة الإمبراطور الروماني قسطنطين لدرجة أنه من الصعب فهم الأولى بدون معرفة الأخرى .

وقصة ارتباط قسطنطين بالكنيسة المسيحية تبدأ في روما . وكان يشعر بالغيرة من أكبر أبنائه ووارثه على العرش كريسبس وكان الأمير الصغير محبوباً من الناس بسبب نظرته الجيدة للأمور وأسلوبه الساحر وشجاعته في ميدان القتال ولكي يرسخ قسطنطين مركزه كإمبراطور أمر بقتله وألقت وفاة كريسبس بظلال قاتمة على الإمبراطورية وكانت زوجة قسطنطين تريد أن يخلف ابنها الوحيد قسطنطين ولذلك لامها قسطنطين بشدة على تشجيعه على اقتراف هذه الجريمة وقتلها بوضع رأسها في حمام مليء بالماء الساخن ، وأراد بذلك أن يكفر عن جريمة باقتراف جريمة أخرى وكانت نتيجة ذلك عكس ما هو مخطط له فقد انضم مؤيدو الملكة المقتولة لمؤيدي ابنه المقتول للثأر من الإمبراطور .

ولذلك اتجه الإمبراطور في حالة من اليأس إلى كهنة معبد جوبتر الروماني طلباً للمساعدة ولكنهم أخبروه أنه لا توجد كفارة أو دعاء يحل عن رقبته ذنب القتيلين ولما أحس قسطنطين بعدم الراحة في روما قرر أن يسافر إلى القسطنطينية .

وعند وصـوله إلى هنـاك سـمى المدينة مـرة ثانيـة على اسـمه القسطنطينية وهناك صادفه نجاح غير متوقع فى تعامله مع الكنيسة البولسية ولقد أخبره رعاتها أنه إذا كفر عن ذنبه فى الكنيسة هناك فإنه سيُغتفر . واستفاد قسطنطين من هذه التسهيلات فلم تكن يداه مخضبة بالدماء من القتيلين فقط ولكنها كانت تحمل مشاكل الحكم فى إمبراطوريته أيضاً .

ولكى يريح ضميره اعتنق المسيحية ولذلك لم تعد مظاهر الحياة الآتية تقلقه وكان يهتم بأحوال الإمبراطورية وكان يرى إمكانية استخدام الكنيسة لخدمة أغراضه الذاتية وذلك بشرط أن يكسب ولاءها له ولذلك أيد الكنيسة مطلق التأييد وبهذا التأييد غير المتوقع أصبحت الكنيسة قوة رهيبة فى مدة قصيرة واستفاد قسطنطين منها استفادة كبيرة وكانت بلاد ما حول البحر المتوسط تمتلئ بالكنائس المسيحية واستفاد بها الإمبراطور استفادة كبيرة فى الحروب التى خاضها ولقد تحمس كثير من القساوسة على رعيتهم لصالحه وكان تأييدهم عاملاً مهماً فى جهوده لتوحيد أوربا والشرق الأوسط تحت رايته وكعلامة من علامات الامتنان وللتقليل من نفوذ الكهنة الرومان فى معبد جوبيتر الذين رفضوا أن يؤيدوه فى مسلكه شجع قسطنطين المسيحيين على إنشاء كنيسة فى روما .

ولم يصبح هو مسيحياً على أية حال لأن كثيراً من رعيته كانوا لا يزالون يؤمنون بجوبيتر والآلهة الأخرى فى مجمع الآلهة .

ولكى يزيل أى مظهر من مظاهر الشك من جانبهم نحوه أصدر عدداً من المراسيم التى تثبت أنه يعبد الآلهة الرومانية أيضاً . وكان كل شىء يسير على مايرام عندما احتدم الصراع القديم بين الكنيسة البولسية والكنيسة الرسولية .

وكان زعيم الكنيسة الرسولية التى استمرت فى الإيمان بإله واحد

في ذلك الوقت قسًّا معروفاً تاريخياً بآريوس وكان ليبي المولد ، وكان يعطي دفعة جديدة للكنيسة الرسولية ، وكان يتبع تعاليم المسيح بصورة واضحة ورفض الاعتراف بالبدع التي أدخلها بولس على المسيحية ، وكان شعاره «اتبعوا المسيح كما وعظ» وأهمية هذا الرجل تنبع من حقيقة أن اسمه كان مرادفاً للتوحيد حتى اليوم وسدد آريوس ضربة عنيفة للكنيسة البولسية ولم يكن مندفعاً كما كان أعداؤه يحاولون إلصاق هذا الاتهام به ولقد أجبروا على الاعتراف بأنه كان قسيساً مخلصاً ولا يوجه إليه أي لوم في وقت كان الكلام الشفهي الذي جعل تعاليم المسيح حية قد ابتدأ يهن وكانت القدرة على فهم ما هو مكتوب قد ابتدأت هي الأخرى تضعف . ولقد أحيا آريوس سنة المسيح وتعاليمه وجددها بعزيمته وحكمته وانعزل عن الحلف الذي عقدته الكنيسة مع الإمبراطور قسطنطين .

وكان آريوس أكبر ناقد وعالم بالكنيسة البولسية في ذلك الوقت وهو مثل لوسيان الأنطاكي الذي كان معروفاً بعلمه الغزير والذي كان مثل أجداه قد قتل لاعتناقه آراء ضد الكنيسة البولسية كان يعي مخاطر اعتناق مذهب يختلف عن المذاهب التي تعترف بها الكنيسة وبالرغم من أن نشأته لم تكن معروفة فمن الثابت أنه عام ٣١٨ ميلادية كان يرأس كنيسة بوكاليز في الإسكندرية وكانت هذه الكنيسة من أقدم وأهم الكنائس في المدينة . ومن المعلومات القليلة التي نعرفها عنه أنه كان طويلاً ورفيعاً وقد يكون وسيماً ولكن بالنسبة إلى قوامه النحيف كان وجهه الشاحب يجعل نظره ضعيفاً وكان ملبسه وتصرفاته تنم عن زهد حقيقي .

وكان يرتدي معطفاً طويلاً بأكمام قصيرة وكان شعره ملتفاً من رأسه وكان هادئ الطبع ولكن عندما تقتضي الظروف يتحول إلى ثائر بكلماته ، وكان صوته يفيض عذوبة وكان له أسلوب جاد وجذاب

يجذب من يتصلون به وكان ينظر إليه كواحد من أعظم وأبرز القساوسة في الإسكندرية وكان محل تقدير كل من يقابله «وانتشر صيته بسرعة خارج الإسكندرية كداعية جاد تمتلئ حياته بالاستقامة والزهد وكان من الوعاظ الأقوياء الذين يعالجون أهم مبادئ العقيدة بجرأة وشجاعة وكانت لديه موهبة القدرة على الجدال وسحر الأسلوب وكان قادراً على تحميس الآخرين بالدعوة التى يدعو إليها وكان مثل كل القادة الدينيين العظام مخلصاً لعقيدته لدرجة التعصب وكان المذهب الذى يعظ به حيوياً وخصباً وحتى ذلك الوقت لم تكن العقيدة المسيحية تعتنق عن طريق الإجبار ولكن كانت توجد اختلافات بين العقائد عميقة وحادة أحياناً ، ولكن مهما كان الأساس الذى يبنى عليه الفرد معتقداته فقد كان قائماً على الإخلاص والاقتناع الذاتى ، وفى هذه الفترة بعد اختفاء المسيح من على ظهر الأرض كان القديسون والشهداء يضحون بحياتهم عن طيب خاطر بدلاً من التفريط فى عقيدتهم .

وكانت السيوف التى يرفعها أصحاب السلطة والنفوذ على المؤمنين تستخدم لردهم عن دينهم وليس لإجبارهم على الإيمان بالأديان الوثنية ، وعندما عقد قسطنطين أول حلف له مع الكنيسة كان يحدث تغيير درامى فى الموقف فبالرغم من أنه احتفظ باسمه الوثنى بوتيفيكس ماكسماس وظل زعيماً لديانة الدولة الرومانية الوثنية فإنه بدأ يعلن جهاراً تأييده للكنيسة .

وكان يميز بين الكنيسة الرسولية والبولسية تميزاً قليلاً على الأرجح ولكن كان تفضيله القليل للكنيسة البولسية يضع المسيحية فى مرحلة جديدة ولذلك أصبحت هذه العقيدةُ العقيدةَ الوحيدة المفضلة عنده وكانت المسيحية بالنسبة لكثير من الناس عقيدة سياسية ونفعية ولذلك كان كثير ممن يرتدون عن المسيحية يعودون إليها بسرعة بقليل من الضغط الحكومى عليهم ، وهكذا لم تكن تنبع عملية اعتناق

المسيحية من القلب ولكن كانت نتيجة نوع من أنواع الاقتناع العقلى وأصبحت المسيحية حركة شعبية وساعدت هذه الحركة على اتساع الهوة بين الكنيسة البولسية والكنيسة الرسولية فهؤلاء الذين أصبحوا مسيحيين لغرض الإيمان اختاروا الطريق الأقل هداية للكنيسة البولسية ورحبت الكنيسة الرسولية بهؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتبعوا بإخلاص سنة المسيح .

أما قسطنطين الذى فى هذا الوقت لم يفهم ولم يؤمن بالمسيحية فقد رأى الميزة السياسية لتوحيد الكنيسة والتى تجعلها أداة طيعة فى يده والتى سيكون مركزها فى روما وليس فى أورشليم.

وعندما رفض أعضاء الكنيسة الرسولية أن يتوافقوا مع هذه الرغبات حاول أن يجبرهم على اعتناق مذهب بولس بالقوة ، ولم يأت هذا التهديد والضغط من جانبه بأية نتيجة ورفض عدد من أعضاء المجتمعات الكنسية الرسولية الاعتراف بمبدأ علو مركز أسقف روما الدينى واعتبروا هذا التحرك خدعة سياسية من حاكم أجنبى وشيئاً منفصلاً تماماً عن تعاليم المسيح .

ولذلك كانت أول ثورة على ذلك هى ثورة البربر فى شمال إفريقيا ولم يكن يتزعمهم آريوس ولكن رجل يدعى دوناتس ، وكان البربر يؤمنون بعدة عقائد أساسية وأقوى عقيدة فيها هى الإيمان بوحدانية الله والإيمان بالمسيح كنبى وليس كإله لأن المسيح لم يقل عن روما أى شىء كمركز لتعاليمه ولذلك لم يهتموا بهذه الفكرة لأنهم لم يعتقدوا أن المسيح مصدرها .

وفى عام ٣١٣ ميلادية اختير دوناتس من جانبهم كأسقف لهم وكان يتزعم كنيستهم لمدة أربعين عاماً استمر فيها الازدهار ومعارضة أسقف روما .

وطبقاً لرواية جيروم أن مذهب دوناتس كان مذهب شمال

إفريقيا لمدة جيل كامل ، ولم تستطع القوة ولا المجادلات أن تؤثر فيه وأراد أسقف روما أن يحل أحد أساقفته فى قرطاج محل دوناتس وكان اسمه كاسيليان .

وكانت هيبة قسطنطين تتجلى أكثر فى الصراع الذى تبع ذلك بين الفريقين * وقد ناشد كل فريق قسطنطين أن يؤيده لأنهم اعتقدوا أن من يكسب تأييد قسطنطين سيكسب المعركة وهذه المحاولات لكسب حماية قسطنطين نتج عنها تغيير كبير فى تاريخ المسيحية .

فللوهلة الأولى أصبح اعتناق مذهب منشق أو غير معترف به تهمة يعاقب عليها القانون وكان هذا الستار القانونى فى متناول من يثبت اعتناقه المذهب الرسمى أو من يختلف عن هذا المذهب الرسمى الجديد .

وهكذا اعتمد قسطنطين ترشيح كاسيليان محل دوناتس فتجمع أهالى قرطاج حول مكتب القنصل الرومانى ولم يعترفوا بكاسيليان وأصبح قسطنطين قلقاً بسبب ذلك التصرف ، ومع ذلك لم يعين محكم تحت رئاسة أسقف روما لسماع أقوال الطرفين ولم يكن دوناتس موجوداً ولذلك لم يستطع أحد أن ينال من موقفه وصدر المرسوم بشأنه فى السر ورفضت الكنيسة الرسولية فى إفريقيا الاعتراف بهذه الفتوى المتحيزة لأسقف روما ولصقت بقسطنطين فضيحة مؤداها أن ممثلى الله كانوا يتجادلون مع بعضهم البعض جدال المتخاصمين العاديين وبالرغم من خيبة أمله فقد نصب محكمة جديدة فى مدينة أرلس وأخبر الفريقين أن يسافروا إلى هناك بطرق مختلفة لمنع أية مناوشات بينهم قبل انعقاد المحكمة وخسر أتباع دوناتس مرة ثانية فقد صدر قرار مؤداه أن الأساقفة المحكمين وجدوا أنفسهم يتعاملون مع أناس خطرين (يقصد بذلك أتباع دوناتس) لا يحترمون السلطة أو القانون وهم مستعدون فقط لإدانة الآخرين .

---

* الفريقين : الكنيسة البولسية والرسولية .

وكان المسيحيون الرسوليون يعانون الاضطهاد لعدة أجيال من الزمان وفى النهاية أصبح ينظر إليهم كرسل للشيطان وفى البداية كان ينظر إليهم أنهم مسيحيون والآن ينظر إليهم أنهم لا يتبعون المسيحية الحقة من وجهة نظر أتباع بولس .

ولم يقبل المسيحيون الأفارقة أن يتحول موظفو الإمبراطورية الرومانية إلى عباد لله فى ليلتين فقط لأنهم حاولوا فرض حكم أسقفهم والزعيم المحبوب منهم .

ولا يعرف إلا القليل عن هذا الرجل البارز لأن الكتب التى ألفها والمكتبة التى كان يملكها والتى كانت تتكون من عدد من المخطوطات الثمينة قد أحرقها الجنود الرومان بناء على أوامر من الكنيسة المسيحية الرومانية وباسمها التى بدأ نفوذها وقوتها تتزايد مع تأييد الإمبراطور الوثنى لها ولذلك فما يعرف عنه من معلومات قليل وخصوصاً عن نشأته ومظهره الشخصى وأصدقائه والوقائع التى حدثت ومن المعلومات القليلة عنه نعرف أنه كان خطيباً ممتازاً وزعيماً عظيماً فقد قوبل بمثل هذه المعارضة أينما سار لدرجة أن المؤرخين بدءوا يهتمون بالفترة التى عاش فيها بعد وفاته بمدة طويلة وكان أتباعه يقسمون بشعره الأبيض وكان يجسد الغضب الشعبى من رجال الدين الدنيويين الذين كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فى حياته أو بعد مماته بخداع الشعب أو الالتفاف حوله ، ولقد اعترف بصدقه ونزاهته العدو والصديق معاً وعُرف بالمصلح الدينى الذى طهر كنيسة قرطاج من الأخطاء وكان الشعب ينظر إليه كولى لله وقديس أحكم من دانيال فقد وقف كالصخرة أمام جميع محاولات تبديل وتفتيت تعاليم المسيح وكتب قسطنطين خطاباً إلى الكنيستين * ناشدهما فيه أن ينسوا خلافاتهما وأن يتحدا تحت لواء الكنيسة المفضلة لديه وهذا الخطاب

* الرسولية والبولسية .

يجسد معنى أن قسطنطين كان ينظر إلى سلطته كسلطة أعلى من الكنيسة ومهما كان شكل هذا الخطاب أو أية إشارة إلى غياب المسيح فيه فلم يكن له أى تأثير على أى شخص ولا أية قدرة على إجبار المحكمة التى انعقدت فى أرلس على إصدار حكم يروق له .

وفى يوليو عام ٣١٥ ميلادية رجع الإمبراطور إلى روما وكان عليه أن يذهب إلى ميلانو لقمع غارات قبائل الفرنجة فى شمال إيطاليا .

وعندما كان يملك متسعاً من الوقت كان يعين لجنة للسفر إلى إفريقيا لبحث الموقف وتسوية النزاع وعندما وصلت اللجنة قاطعها الشعب ، وحدث شغب كبير منه مما اضطر أعضاء اللجنة إلى العودة إلى روما بدون تحقيق أى شىء ووصلت هذه الأخبار المزعجة إلى قسطنطين عام ٣١٦ ميلادية فقرر أن يذهب بنفسه إلى شمال إفريقيا وأن يصدر أمراً واضحاً بكيفية عبادة الله. ولقد فكر قسطنطين فى تمرير هذا الحكم فى حدود قدرته على ذلك ففى الخطاب الذى أرسله إلى الكنيستين يستنتج أن «ما يمكن لى أن أفعله من واقع خبرتى الدائمة كأمير بعد قذف الآخرين بالأخطاء وإزالة معتقداتهم الخاطئة هو أن أجعلهم يتبعون الدين الحقيقى وبساطة الحياة وأن يقدموا لله القدير العبادة التى يستحقها» .

ومن الواضح أنه طالما أن سنة المسيح قد نُسيت أو تم تجاهلها عندئذ تصبح الديانة الحقيقية مسألة معتقد . ولم يكن قسطنطين يفضل أكثر من مذهب بولس ، وعندما نرى المسيحية من هذه الزواية وهو أن قسطنطين عندما يهتم اهتماماً كبيراً بالشئون الخاصة بالديانة التى لم يتبعها بعد يكون قد نظر إلى نفسه كرجل له سلطة أعظم من زعماء الكنيسة وربما نظر إلى نفسه كممثل لله على الأرض أكثر من كونه إنساناً عادياً وكان الأساقفة البولسيون الأعضاء فى المحكمة التى انعقدت فى مدينة أرلس يؤمنون بنفس مذهب قسطنطين وادعى هؤلاء أن اختيارهم قد تم فى حضور روح القدس والملائكة ، وبعد أن تم تجاهل

حكمهم من جانب الشعب لجأوا للإمبراطور طلباً للمساعدة .

وكما حدث لم يقم قسطنطين برحلته إلى إفريقيا كما خطط لذلك لأنه قيل له إن أتباع دوناتس قد أصبحوا أقوياء لدرجة أنه من غير الحكمة المشاركة شخصياً في النزاع بين دوناتس وكاسيليان ولأن تدخله الشخصي سيقابل بالفشل ولقد كان هذا ضربة شديدة لهيبته فأصدر مرسوماً يدين دوناتس ويلفت نظره إلى ميزة عبادة الله العظيم بالأسلوب الصحيح على حد رأيه ، وعندما تم تجاهل هذا المرسوم أصدر قانوناً قاسياً جداً وأرسله إلى إفريقيا مؤداه مصادرة الكنائس التى يتزعمها أتباع دوناتس ونفيهم ولقد حاول كاسيليان فى مبدأ الأمر رشوة زعماء كنيسة دوناتس ولكن بدون فائدة فقد تحدوا المرسوم الاستعمارى وتجاهلوا رشاويه وكشفوا العطايا المالية التى قدمها للناس وقد وصف كاسيليان بأنه رجل أكثر قوة من الجزار وأكثر عنفاً من الطاغية .

وتبنت كنيسة روما فى ذلك الوقت صفة الكاثوليكية والتى تعنى عالمية عبادة الله ولذلك بعثت إلى أتباع دوناتس لكى يتحدوا معها فى المذهب ولكن لم يكن لذلك أى تأثير ، ورفض دوناتس أن يسلم كنائسه إلى كاسيليان ، وأخيراً جاء دور الجيش الرومانى الذى قام بمذبحة كبيرة هناك وألقيت الجثث فى الآبار وقتل الأساقفة فى كنائسهم .

ولكن ثبت بعض أتباع مذهب دوناتس وأصبحت حركتهم أقوى من ذى قبل وسموا كنيستهم كنيسة الشهداء ، ولقد أدت هذه الأحداث إلى توسيع الفجوة بين أتباع دوناتس والكنيسة الكاثوليكية أكثر لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تتضامن مع الحكام الوثنيين وجنودهم وكان يطلق على الكاثوليكيين «المنشقين» وكانت كنائسهم تسمى أماكن الوثنية المكروهة وأدرك قسطنطين الذى كان حاكماً ماكراً أهمية استعادة التوافق والوحدة الدينية بالقوة ولكن التعقل مطلوب أحياناً

أكثر من الشجاعة فترك بقية شعب شمال إفريقيا الذين نجوا من القتال وأدت هذه الأحداث ونتائجها إلى المساهمة بدور كبير فى مرسومه الأخير بدعوة مجمع نقية المشهور ، وقبل أن نعود إلى قصة آريوس الذى كان فى تلك الفترة يحاول أن يجعل صوته مسموعاً فإنه من المهم بمكان أن نقدم لمحة تاريخية قصيرة عن أتباع دوناتس بعد ذلك وحتى مجىء الإسلام . فبمجرد أن حول قسطنطين اهتمامه من شمال إفريقيا إلى أجزاء الإمبراطورية الأخرى قلت عملية اضطهاد أتباع دوناتس بصورة كبيرة وبدأ عددهم يتزايد بسرعة وأصبح نفوذهم قوياً مرة ثانية لدرجة أن الإمبراطور عندما أمر ببناء كنيسة للكاثوليكيين فى شمال إفريقيا عام ٣٣٠ ميلادية استولوا عليها وغضب الإمبراطور لذلك ولكنه لم يستطع أن يقوم بأى شىء فيما عدا وعده للكاثوليكيين بتمويل بناء كنيسة أخرى لهم وانتشرت حركة أتباع دوناتس حتى حدود روما فقد كان هناك أسقف لروما ولكن الشعب هناك كان يضعه فى مرتبة أقل من أسقف قرطاج ونيقوميديا .

وأصبح دوناتس له نفوذ خارجى فى قرطاج وكان الشعب ينظر إليه كأعظم زعيم للكنيسة ولم يَدْعُه الشعب أسقفاً ولكن كان يسمى دوناتس القرطاجى ولقد شكا أوغسطين مرة أن أتباع دوناتس يثورون ضد أية إهانة توجه لدوناتس أكثر من أى تجديف على المسيح نفسه وهى لغة غير مهذبة وصارمة كان يستخدمها كثير من الكاثوليك عند الحديث عن دوناتس .

وعندما انتهى حكم قسطنطين استمر أتباع دوناتس يعملون على استقلال كنيستهم ومعارضة أى تدخل من الإمبراطور أو عامليه فى شئونهم الدينية ، ولم يكن هؤلاء الناس أتباع طائفة ضيقى العقول فلم يظلموا الكاثوليك حتى وإن كانوا يفوقونهم عدداً بينما لم يكن الكاثوليك مستعدين لمسامحة أتباع دوناتس مع ادعائهم بذلك فتم

إرسال قوات لقمع هؤلاء الناس الذين لا يرهبون شيئاً ، وبالرغم من ذلك الاضطهاد المستمر رفض أتباع دوناتس السماح للإمبراطور بتغيير الطريقة التي يعبدون الله بها وكان الكاثوليك في نظرهم كهنة أشراراً يعملون مع ملوك دنيويين وقد ارتدوا عن دينهم لاعتمادهم على ما يفضله الملوك وبعد وفاة دوناتس استمر شعب شمال إفريقيا في الاقتداء به واستمر يتبع تعاليم المسيح لمدة ثلاثمائة سنة وعندما ظهر الإسلام اعتنقه وقد كان هذا الشعب على أهبة الاستعداد لذلك لأن تعاليم الإسلام هي امتداد وإعادة تأصيل لتعاليم المسيح .

وكانت هناك حركة أخرى شبيهة بحركة دوناتس ولكنها حدثت في مكان مختلف وكانت مستقلة عنها في جنوب مصر فقد كان قسطنطين على وشك أن يحل معضلة مسيحية شمال إفريقيا عام ٣٢٤ ميلادية عندما جذبت مصر اهتمامه فقد كانت مصر تغلي بالثورة والاضطراب وكان اضطهاد المسيحيين الذي كان يقوم به ديوقليتانس لا يزال على أشده ووطن كثير منهم نفسه على التفاهم مع مضطهديهم لتجنب ذلك الاضطهاد وفي ذلك أعلن قس يدعى مليتياس أن هؤلاء القساوسة الذين ارتدوا عن المسيحية جهاراً يجب أن يمنعوا من أداء وظائفهم الدينية ومن حضور مجالس العبادة حتى يقدموا إثباتاً كافياً على توبتهم أما بطرس بطريارك الإسكندرية في ذلك الوقت فقد كان متساهلاً في ذلك وأيد جمع غفير من الناس ميلتياس وعندما أصبح إسكندر أسقفاً نفى ميلتياس إلى الواحات وعندما عاد ميلتياس تجمع حوله عدد كبير من الناس فنصب منهم أساقفة وقسيسين وشمامسة وبنى كنائس عديدة ورفض هؤلاء الخضوع إلى مضطهديهم وسمى ميليتاس كنيسته كنيسة الشهداء لأن مذهبه كان معارضاً لمذهب أتباع إسكندر الذين سموا أنفسهم كاثوليك واتبعوا مذهب بولس المسيحي ، وبعد وفاة ميلتياس منع الأسقف إسكندر أتباعه من حضور مجالس

عبادتهم فأرسل هؤلاء وفداً إلى قسطنين وبمساعدة يوزيبياس النيقوميدى سمح لهم بالدخول على الإمبراطور .

وكان وجود وفد أتباع ميلتياس فى بلاط الإمبراطور دافعاً ثانياً للإمبراطور لكى يدعو إلى عقد مجمع نيقية وكان يوزيبياس صديقاً لآريوس وخلال تلك المقابلة حدث اتصال بين أتباع كل من حركتى آريوس وميلتياس ولم تتبع حركة آريوس طريق كنيستى الشهداء هاتين فقد أزيلت عمداً كل المصادر التاريخية التى تؤيد آريوس وكل ما يصف حركته أما الكتب التى كتبت عنه والموجودة الآن فقد كتبها أعداؤه .

ولذلك فمن غير الممكن تقديم وصف مفصل لحياته وعندما نربط المعلومات المتناثرة الموجودة حالياً عنه تتضح الصورة أكثر فأكثر .

وقد نصبه بطرس أسقف الإسكندرية شماساً ثم عزله بعد ذلك وخلف بطرس أخيلاس فنصبه قسيساً مرة ثانية وأصبح آريوس محبوباً لدرجة أن أخيلاس عندما مات كانت عنده الفرصة بالانتخاب ليحل محله ولكن آريوس لم تكن لديه رغبة فى ذلك ولذلك جلس إسكندر على عرش أساقفة الإسكندرية وبمجرد أن حدث ذلك قدم شكوى ضد آريوس بسبب الكلام الذى كان يعظ به وأصبح خصمه هو الحكم عليه وتم عزل آريوس فى النهاية وحتى تلك اللحظة كانت توجد فوارق كبيرة فى معتقدات المسيحيين واعتنق كثير منهم مذهب التثليث ولكن لم يكن عندهم أدنى فكرة عن ماذا يعنى ذلك فبعضهم اعتنقه بصورة عمياء وآخرون مثل ميلتياس ودوناتس لم يعتنقوه كلية أما هؤلاءالذين كانوا بين شقى الرحى فقد فسروا المذهب بالطريقة التى تروق لهم وبعد قرنين من الجدال لم يكن عند أحد المقدرة على توضيح المذهب بطريقة لا تحتمل المراوغة ووقف آريوس معلناً تحديه لأى فرد يستطيع أن يحدد هذا المذهب وقد ذهل إسكندر من ذلك كلية فكلما حاول أن يفسر هذا المذهب كلما أصبح مضطرباً أكثر أما آريوس فباستخدام

المنطق وبالاعتماد على مصادر الكتب المقدسة الموثقة أثبت كذب هذا الاعتقاد وبدأ آريوس يفند تفسيرات إسكندر بخصوص المسيح بقوله : «إذا كان المسيح حقيقة ابن الله فيكون الأب قد كان قبل الابن وعندئذ تكون هناك فترة لم يكن فيها الابن موجوداً وهذا يعنى أن الابن هو مخلوق من روح ودم أو كائن لم يكن موجوداً دائماً ولأن الله هو الأبدى والموجود دائماً فليس المسيح كالله» .

وكان آريوس دائماً يلجأ إلى المنطق والتعليل ولأن إسكندر لم يستطع أن يواجهه بنفس منطقه فقد كان يحتد دائماً عند انتهاء الجدال وكان آريوس عند تقديم افتراضاته يقول «أين الخطأ فى استنتاجى وفى قياسى المنطقى» وفى عام ٣٢١ ميلادية أصبح آريوس قسيساً متمرداً محبوباً وواثقاً ومتأكداً بعمق من معتقداته ، وبعد هذا التقاعس الشخصى من جانبه طلب إسكندر عقد مجمع كنسى محلى للحكم على مذهب آريوس وحضر هذا المجمع حوالى مائة قسيس مصرى وليبى وتمسك آريوس بالموقف الذى اتخذه بشجاعة وقدرة كبيرة قائلاً :

«كان يوجد زمن لم يكن فيه المسيح موجوداً فأين كان يوجد الله عندئذ ولأن المسيح خلقه الله فإن وجوده له نهاية ولذلك ليس لديه صفة الخلود لأن الله فقط هو الخالد ولأن المسيح مخلوق فإنه خاضع للتغير مثل كل المخلوقات الأصلية والله فقط هو الذى لا يتغير وهكذا فإن المسيح ليس الله» . وبقدر استناد آريوس إلى المنطق فقد استند فى جداله إلى آيات عديدة من الكتاب المقدس لا تدعو إلى مذهب التثليث بقوله «إذا كان المسيح قد قال إن الأب أعظم منى فإن القول بأن الله والمسيح متساويان ينكر حقيقة فى الكتاب المقدس» .

وكان جدال آريوس لا يمكن تفنيده ولكن تمكن إسكندر بفضل مركزه الدينى من عزله وما تبع ذلك من أحداث جعلت الكنيسة البولسية لايمكن أن تتجاهل قوة منطقة الدينى خصوصاً وأن كثيراً من

أساقفة المشرق لم يعترفوا بمرسوم إسكندر وأصابه القلق من أن كثيراً من أساقفة المشرق قد أيدوا آريوس والذى كان يوزيبيوس النيقوميدى أكبر حليف له وكان الاثنان صديقين حميمين منذ فترة لأنهما كان يعلمهما لوسيان وهو رجل احترمه العالم أجمع فى ذلك الوقت لتقواه وعلمه الدينى ومن الممكن أن يكون حادث استشهاده عام ٣١٢ بعد الميلاد قد ساعد فى تقوية هذه الصداقة لأن بلواهما فيه كانت مشتركة . وهناك خطاب أرسله آريوس إلى يوزبيوس فى القسطنطينية بعد أن قام إسكندر بعزله ولازال موجوداً حتى الآن وفيه يشتكى آريوس من قيام إسكندر باضطهاده ومحاولته القيام بطرده من الإسكندرية واتهامه إياه بالكفر لأنه وأصحابه لا يشاركونه فى المذهب المشين الذى يعتقده وفيه يقول :

«لقد اضطهدنا لأنا نقول إن المسيح له بداية بينما الله ليس له بداية» ونتيجة لذلك تلقى آريوس من يوزبيوس مساندة متزايدة وكان يوزبيوس له تأثير كبير ليس فقط على عامة الناس ولكن فى القصر الإمبراطورى نفسه ، وبالرغم من ذلك التأييد الكبير الذى كان يحظى به آريوس فإنه كان يميل نحو الصلح أكثر من الخصام طالما كانت أنظمة الكنيسة تتبع وللأسف الشديد لا يوجد لدينا أى مستند تاريخى تفصيلى عن هذا النزاع بين آريوس وإسكندر ولكن توجد بعض الخطابات القليلة التى تظهر أن نية آريوس كانت تنحصر فقط فى جعل تعاليم المسيح نقية وخالية من التبديل وليس عمل انشقاق بين المسيحيين .

ومن ناحية أخرى تظهر الخطابات التى كتبها إسكندر أنه كان دائماً ما يستخدم لغة غير معتدلة ضد آريوس ومؤيديه ففى أحد هذه الخطابات يكتب : «إن هؤلاء الناس تملكهم الشيطان الذى يعيش بينهم والذى سيؤدى بهم إلى وقوع الغضب عليهم فهم محتالون ومخادعون وسحرة

وكلماتهم مضللة ولصوص ولهم أماكن يلعنون فيها المسيح ليلاً ونهاراً وهم يجمعون الأنصار من خلال النساء الشابات المنحرفات فى المدينة»
لاحظ أن استخدام هذه اللغة القاسية والمشينة من جانب البطريارك يثير الشك فى أنه هو نفسه أيضاً يدرك مدى ضعف قضيته ولقد غضب يوزيبيوس غضباً شديداً من لهجة بطريارك الإسكندرية فاستدعى مجلس أساقفة المشرق ووضع أمامهم أوراق القضية كلها .

وكانت نتيجة هذا الاجتماع الخطاب الذى أرسله المجلس إلى كل أساقفة المشرق والمغرب ملتمساً منهم حث إسكندر على ضم آريوس مرة ثانية إلى الكنيسة ولكن إسكندر كان يريد إخضاع آريوس خضوعاً كاملاً .

وعاد آريوس إلى فلسطين واستمر يقدم خدماته لأتباعه وكتب إسكندر خطاباً طويلاً موجهاً إلى كل من يؤيده فى الكنيسة الكاثوليكية وفى هذا الخطاب هاجم آريوس مرة ثانية ، وكتب فيه إشارة حادة إلى يوزيبيوس ذاكراً اسمه ومتهماً إياه بالاعتقاد بأن مصلحة الكنيسة تعتمد على المجلس الذى دعا إليه وأضاف فيه أن يوزيبيوس قد أيد آريوس ليس فقط لأنه كان يؤمن بإخلاص بمذهبه ولكن لتوسيع نطاق مصالحه المتزايدة وهكذا هبط هذا الجدال الدينى إلى صراع شخصى بين أساقفه المشرق والمغرب وانتشرت قضايا هذا الجدال من محيط الأساقفة إلى محيط العامة من الناس فيروى جريجورى الينسى :
«كان كل ركن من أركان القسطنطينية يمتلئ بمظاهر هذا الجدال فى الشوارع فى الأسواق فى محلات الصرافة والمطاعم فعندما تسأل أى تاجر كم عدد الأوبولات (عملة إغريقية) التى يريدها مقابل السلع التى يبيعها فيرد عليك بمقولة هل المسيح مولود أم غير مولود . وعندما تذهب إلى الخباز وتسأله عن سعر رغيف من الخبز فيقول لك هل الابن فرع من الأب وعندما تسأل الخادم هل الحمام جاهز فيرد عليك إن الابن

نشأ من لاشيء يقول الكاثوليك : عظيم هو المولود الوحيد من لاشيء فيرد الآريوسيون : «لكن الأعظم هو الذى يهب الولد» .

وكان الناس يسألون السيدات عما إذا كان ممكناً للولد أن يبقى قبل أن يولد وكان الجدال فى المحيط الدينى الأعلى على نفس الشاكلة محتداً وعنيفاً ومن المعلوم أنه فى كل مدينة كان الأساقفة فى صراع شخصى مع أساقفة آخرين وكان الناس فى صدام عنيف مع بعضهم البعض وفى خلاف مع بعضهم البعض .

واتجهت الأمور من سيئ إلى أسوأ بمجرد أن علم قسطنطين بالأمر فكان مضطراً إلى التدخل وتوجيه خطاب إلى كل من إسكندر وآريوس قال فيه أن عاطفته المتزايدة تتجه نحو توحيد الرأى الدينى لأن هذا أكبر ضمان للسلام فى الإمبراطورية وأنه خاب أمله مما حدث فى شمال إفريقيا وأنه يأمل أن تتحسن الأمور فى قلب المشرق حيث بزغ فجر الهداية الإلهية :

«يا للعناية والمجد الإلهى ماهو الجرح الذى لم يصب آذانى فقط بل أصاب قلبى عندما علمت أن الانشقاقات التى حدثت بينكم كانت أكثر شدة مما حدثت للشعب فى إفريقيا لدرجة أنكم أنتم رجال الدين الذين تطيبون جروح الآخرين تحتاجون إلى علاج أكثر مما يحتاج الشعب نفسه ، وبعد الفحص الدقيق لسبب كل هذه المجادلات أجد أن القضية كلها غير ذات معنى وليس لها علاقة كاملة بالخصومات التى حدثت وأنا أفهم أن الجدال الحالى كان سببه كما يلى أنك عندما سألت كل واحد من القساوسة يا إسكندر عن تأملاته فى موضوع معين فى الكتب المقدسة أو عما يعتقده فى جانب معين من السؤال الأحمق وأنت يا آريوس بدون أى تفكير وضعت مقدمات لا يمكن تصورها على الإطلاق أو حتى لو تصورت فإنها عرضة للزوال فنشأ خلاف بينكم ولم تتحد آراؤكم فنتج عن ذلك تمزق الناس فالأخ وأخوه على خلاف ولم تعد

وحدة المجتمع قائمة».

والإمبراطور هنا ينصحهما لكى يجعلا هذه المسألة * غير المصونة والإجابة الغيرحذرة عليها فى طى النسيان بحيث يمكن التسامح فيها ويقول :

«هذا الموضوع لا ينبغى أن يطرق لأن المصائب تكمن فى الأيدى الآثمة التى تسأل ذلك والعقول الآثمة التى تفكر فى ذلك والخلافات بينكما ليست بسبب أى مذهب دينى فى الكتب المقدسة ولابسبب أى مذهب جديد فى المسيحية وإنكما لتؤمنان بنفس الرأى ونفس وجهة النظر وهو أن الاتحاد بين المسيح والله كائن بسهولة، كل على حسب وجهة نظره» .

واستمر الإمبراطور يقتبس أمثلة من الفلاسفة اليونانيين الذين اتفقوا على ألا يتفقوا على التفاصيل أما المبادئ العامة فيتفقون عليها ولقد تساءل الإمبراطور هل يمكن أن يكون حقاً أن يعامل الإخوة كل واحد منهما الآخر وكأنه عدو بسبب اختلافات طفيفة وأسلوبية وهذا السلوك فى نظره يكون ؟!

«أيها الكهنة السوقيون المتصابون والسيئو التصرف والذين يفهمون أنها خدعة وإغواء الشيطان فدعونا نحاربه إذا كنا لا نفكر سوياً فى كل الموضوعات فيمكن لنا على الأقل أن نتحد فى التفاصيل المهمة وخصوصاً فيما يتعلق بالذات الإلهية دعونا نؤمن بعقيدة واحدة وفهم واحد ورأى واحد بخصوص الله» .

وينتهى الخطاب :

«أعيدوا لى أيامى الهادئة ولياليَّ المريحة فربما أستعيد فرحتى وبسمة الحياة الهادئة أما غير ذلك فلا شىء غير البكاء وذرف الدموع ولاراحة للبال إلا بالموت من أجل ذلك كيف يمكن أن يستريح بالى

---

* حقيقة المسيح .

بينما رجال الدين والشعب يتمزقون بالجدال الغير شرعي والمميت».

يظهر هذا الخطاب جهل الإمبراطور الكبير ليس فقط بالمسيحية ولكن بأية ديانة أخرى وهو يجمع الإنسان الذى يعبد الله كما يروق له مع الآخر الذى يعبده كما أمره بذلك وقوله إن الخلاف بين إسكندر وآريوس كان خلافاً طفيفاً وأسلوبياً وغير مهم هو قول سخيف والنظرة إلى الخلاف بين الاثنين نظرة تافهة تظهر أن قسطنطين لا يفهم عن ماذا يتحدث ، فيقينه بوحدانية الله من جانب وإيمانه بمذهب التثليث من جانب آخرهما اتجاهان لا يوجد اتفاق بينهما ويدل الخطاب أيضاً على أن قسطنطين لا يهتم بمعرفة الحقيقة أكثر مما يهتم براحة باله ولذلك ليس مستغربًا أن خطابه ذلك لم يحقق أية نتيجة فقد حمله إلى الإسكندرية هوزيوس القرطبى وبعد إقامته القصيرة هناك عاد إلى الإمبراطور خالى الوفاض لكى يعلن فشل مهمته .

وبينما كانت الأمور تسير كذلك تشاجر قسطنطين مع زوج أخته ليسينس فى ميدان القتال مما أدى إلى مقتله وكان ليسينس يؤيد آريوس وأدت وفاته إلى ضعف مكانة آريوس فى بلاط الإمبراطور ، وأدرك قسطنطين أن أصدقاءه فى الكنسية البولسية ليسوا أقوياء بما فيه الكفاية لدفع هذه الاضطرابات وكانت تجاربه فى التعامل مع مواطنى شمال إفريقيا والتى نتج عنها سفره إلى الشرق بعد احتراق أسطوله فى روما قد لقنته درسًا وهو ألا ينحاز إلى أحد الأطراف جهاراً ولذلك قرر أن يدعو إلى مجلس للأساقفة من أجل تسوية هذا الأمر وكان موقفه كوثنى ميزة كبيرة كما قال فهو يضمن ألا ينحاز لأية طائفة ولذلك فمن الممكن له أن يكون حكمًا غير منحاز وهذا يحل المشكلة التى واجهت الأساقفة وقتئذ لأنهم لم يتفقوا على أى محكم أسقفى لكى يرأس اجتماعهم وهذا التجمع الذى دعا إليه قسطنطين هو ما يسمى بمجمع نيقية ، وأرسلت الدعوات لحضور المجمع وقام قسطنطين بتسديد جميع

نفقاته من خزينة الإمبراطورية وبعيداً عن زعماء الحزبين المتصارعين كانت أسماء الأساقفة الذين دُعوا إلى المجمع غير معروفة فلم يُدع أى أسقف من كنيسة دوناتس بالرغم من دعوة كاسليان خصم دوناتس وكانت أسماء معظم الأساقفة الذين حضروا كالآتى :

* يوزيبيوس القيصرى وهو أبو التاريخ الدينى الإكليريكى وكتابه هو المصدر الوحيد والرئيس للتقاليد الدينية والذى يربط القرن الرابع بالقرن الأول للمسيحية وخلاف علمه الدينى فدرجة تأثيره تركز على حقيقة أنه الوحيد بين مطارنة الشرق الذى يعرف ماذا يدور فى عقل الإمبراطور باعتناقه المسيحية وقد كان فى جوهره يؤمن بمذهب آريوس وكان يتمتع بتأييد معظم أساقفه فلسطين .

* يوزيبيوس النيقوميدى وهو من عائلة أرستقراطية وكان مثل آريوس تليمذاً للوسيان فى نفس الوقت وكان دوره الدينى معترفًا به عالميًا وهكذا كان رجلان من رجال الدين يحملون نفس الاسم ، وهى حقيقة سببت بعض الاضطراب فى عقول مؤرخى تلك الفترة وكان يوزبيوس النيقوميدى من أشد مؤيدى آريوس وكان يسميه أتباع آريوس «العظيم» وكان ينسب إليه بعض المعجزات وكان فى الأصل أسقفًا لبيروت ثم نقل إلى نيقوميديا عاصمة إمبراطورية الشرق وكان صديقًا حميمًا لليسينس زوج أخت الإمبراطور ومنافسه وبذلك كان له تأثير على قسطنطينة أخت الإمبراطور وكان ليسينس دمه لم يجف بعد أن حارب الإمبراطور وفقد حياته ، وبعد وفاته ذهبت قسطنطينة إلى القصر الإمبراطورى ومن خلالها ومن خلال علاقته القديمة بالعائلة الإمبراطورية كان له تأثير على البلاط لم ينته بعد ومن خلال نفوذه اعتنق الإمبراطور المسيحية فى كنيسة آريوس ومات فى النهاية كرجل مؤمن بوحدانية الله .

* أثناسيوس وكان من أشد مؤيدى مذهب التثليث الشباب وكان

إسكندر بعد أن كبر سنه - وكان آريوس قد نصبه أسقفًا عديدًا من المرات - قد قرر أن يرسل أثناسيوس إلى نيقية كممثل له بدلاً من الذهاب هناك بنفسه .

* هوزيوس كان المستشار الرئيسى للإمبراطور وكانت أهميته تتركز فى حقيقة أنه كان ممثل الكنيسة البولسية فى الغرب حيث كان تأثير الإمبراطور هناك ضعيفًا وكان يعرف بعالم اللاهوت الراسخ فى العلم وكان يعرف تاريخيًا بالرجل العجوز المحترم والذى سماه أثناسيوس بالقديس وكانت شخصيته الكبيرة معروفة لكل إنسان وتزايدت أهميته نظراً لعلاقته الحميمة بالإمبراطور .

وخلاف هؤلاء الذين ذكرناهم كان يتكون المجمع من أناس اشتهروا بالتقوى وليس بالعلم ، أناس كانت قلوبهم نقية ولكن لم تكن ألسنتهم مترابطة ومن هؤلاء :

* سبيريدم وكان واحداً من الأساقفة البسطاء والخشنين والأميين الذين كانوا يشكلون معظم أساقفة الكنيسة فى ذلك الوقت ونظرة دقيقة عليه توضح أى نوع من الرجال هو فقد كان راعيًا وكان يعانى من الاضطهاد ، ولكنه تمسك بعقيدته ولم تكن معرفته بالسياسة الدينية عميقة وعين أسقفًا لأن كثيراً من المعجزات قد نسبت إليه وبعد أن عين أسقفا لم يغير طريقته الخشنة والريفية وكان يجب أن يسافر مشيًا على قدميه ولم يكن محبوبًا من زعماء الكنيسة البولسية وكانوا يخشون ألا يصل إلى نيقية فى ميعاده وعندما استلم دعوته للمجمع مع الإمبراطور أدرك أنه عليه أن يسافر على بغلة لكى يصل فى الميعاد فرحل ومعه خادمه خلاف الأساقفة الآخرين الذين رحلوا ومعهم حاشيتهم وسافر الاثنان سبيريدم وخادمه على بغلتين إحداهما بيضاء والأخرى مرقطة وفى إحدى الليالى وصلا إلى فندق صغير وأقاما فيه حيث وصل الأساقفة الآخرين الذين لم يتأكدوا من كون سبيريدم أحد

المشاركين فى مناقشات المجمع أو لا وفى صباح اليوم التالى بينما كان سبيريدم لايزال نائمًا قام هؤلاء الأساقفة بقطع رقاب بغلتيه قبل رحيلهم ، وعندما استيقظ طلب من خادمه إطعام وسرج البغلتين فاكتشف موتهما وأبلغ سبيريدم بذلك فأمره بأن يضع رأس كل بغلة بالقرب من الجزء الذى قطعت منه فوضع رأس البغلة الأخرى بجانب البغلة الثانية ، وبمجرد أن فعل ذلك عادت الحياة للبغلتين واستمر الرجلان فى رحلتهما وتخطيا الأساقفة المرتحلين الذين اعتقدوا أنهم تركوا سبيريدم خلفهم وكانوا يتوقعون تأخره عن الميعاد ، وكانت مفاجأتهم عظيمة عندما اكتشفوا أن البغلة البيضاء لها رأس مرقط والمرقطة لها رأس أبيض .

* باتامون وكان أحد النساك .

* إيزيوس وكان معروفًا بتزمته .

* ميزاروف نيكولاس وهو رجل احتفظ مؤرخو الكنيسة باسمه بفضل حقيقة أن آريوس لكم أذنيه عندما كان يتكلم .

وهكذا كان المجمع يتكون بصفة أساسية من أساقفة كانوا يتمسكون بعقيدتهم بجد وإخلاص ولكن بدون معرفة فكرية بالأسس التى يرتكزون عليها فى ذلك ، وقد وجد هؤلاء الرجال أنفسهم يواجهون أهم علماء الفلسفة اليونانية وكانت طريقتهم فى التعبير طريقة جعلت هؤلاء الأساقفة لا يفهمون معنى ما يقال ونظرًا لعدم قدرتهم على تقديم تفسيرات أصلية لمعرفتهم الدينية أو الدخول فى جدال مع منافسهم فقد كان أمامهم واحد من طريقين :

إما أن يتمسكوا بمعتقداتهم فى هدوء أو يوافقوا على ما قرره الإمبراطور ، وقبل أيام قليلة من انعقاد المجمع وصلت جميع الوفود وتجمع الأساقفة معًا فى مجموعات صغيرة حيث كانت القضايا المثارة يجادل فيها بصورة علنية بجد واهتمام وفى هذه التجمعات التى إما

حدثت في مبنى الألعاب الرياضية أو في مكان ما مفتوح بدأ الفلاسفة اليونانيون يسددون سهام الجدال الفلسفي الفارغ بفعالية كبيرة وقد سبب هذا اضطرابًا كثيرًا بين أعضاء الوفود وفي النهاية أهلَّ يوم انعقاد المجمع وكان الإمبراطور يقوم بافتتاحه بنفسه فتجمع الأساقفة لذلك ، وكانت الحجرة المعدة للاجتماعات حجرة طويلة عبارة عن صالة مستطيلة في القصر وفي وسط هذه الحجرة وضعت جميع نسخ الأناجيل المعروفة التي كانت في ذلك الوقت تصل إلى ثلاثمائة إنجيل وكانت الأعين تتركز حول عرش الإمبراطور الذي كان منحوتًا بالخشب المرصع بماء الذهب وقد وضع في الطرف الأعلى للصالة بين صفين من المقاعد يواجه كل واحد منهما الآخر .

وقد قطع هدوء الاجتماع الأصوات الخافتة للموكب الإمبراطوري البعيد الذي كان يقترب من القصر ثم أتى ضباط البلاط واحدًا بعد الآخر ثم تبع ذلك إشارة تعلن قدوم الإمبراطور ، فوقف المجتمعون كلهم وبدءوا يحملقون بتعجب في الإمبراطور قسطنطين القاهر أوغست العظيم بقوامه الطويل وشكله القوي وكتفيه العريضين وملامحه الجميلة وقوة هيبته ، وكانت ملامحه وتعبيرات وجهه واحدة لدرجة أن كثيرين اعتقدوا أنه نموذج لأبولو إله الشمس الروماني وقد أذهل كثير من الأساقفة المعنى الهمجي للملابس التي كان يرتديها وكان شعره الطويل متوجًا بتاج من اللؤلؤ وكان الرب القرمزي الذي يرتديه مرصعًا بالأحجار الكريمة والذهب وكان يلبس أحذية قرمزية كان معروفًا بارتدائها ، هذه الأحذية يلبسها البابا الآن .

وجلس هوزيوس ويوزيبيس على جانبي الإمبراطور وفتح يوزيبيس مراسم الاجتماع بتوجيه كلمة إلى الإمبراطور ورد عليه الإمبراطور بخطبة قصيرة ترجمت من اللاتينية إلى اليونانية التي لم يكن يفهمها إلا عدد قليل من الحاضرين ومن بينهم الإمبراطور الذي كانت معرفته

باليونانية قليلة وعندما استمرت الجلسات انفتحت أبواب المناقشات والجدال الذى لا ينتهى وقد كان قسطنطين مع معرفته القليلة باللغة اليونانية يركز كل جهده على مبدأ واحد يستهدف توحيد الآراء وأبلغ الحاضرين أنه أحرق كل الشكاوى التى وصلته من أطراف مختلفة قبل انعقاد المجمع بأيام قليلة وأكد لهم أنه بالرغم من عدم إطلاعه على أى منها فإنه تقبل ذلك بعقل مفتوح وأنه لا ينحاز لطرف على حساب الآخر ، وكان ممثلوا الكنيسة البولسية يريدون أن يصفوا الله بمذهب التثليث ولكن لم ينتج من مجادلاتهم من الكتاب المقدس إلا وصف ثنائى لله الأب والابن بالرغم من ذلك أعلنوا أن الروح القدس هو الإقنيم الثالث بالرغم من عدم وجود أدلة تؤيد هذه البدعة ، أما أتباع لوسيان من الجانب الآخر فقد كانوا واثقين من صلابة رأيهم وأجبروا أتباع مذهب التثليث على التقهقر وتقديم أسباب غير معقولة ، ووجد أتباع مذهب التثليث أنه من الصعوبة بمكان تحديد المسيحى بالطريقة التى يستبعدون منها آريوس والموحدين الآخرين من هذا التحديد وخاصة أن الإيمان بمذهب التثليث الذى ابتدعوه كان عاملاً فاصلاً بين الطرفين وذلك لم يذكر فى الأناجيل .

وكانت حجتهم أن الابن كان من الله ورد أتباع آريوس عليهم بأنهم هم أنفسهم من الله لأنه مكتوب فى الكتاب المقدس «أن كل الأشياء من الله» وإذا استخدمنا هذا المبدأ فى الجدال إذًا فهو يثبت ألوهية جميع المخلوقات فرد عليهم أساقفة المذهب البولسى أن المسيح لم يكن فقط من الله ولكن أيضًا من روح الله وقد أثار هذا التحديد معارضة كبيرة من جانب المسيحيين الأرثوذكسيين الذين قالوا إن هذا الكلام لم يكن فى الكتاب المقدس ، وهكذا كانت هذه المحاولات لإثبات أن المسيح هو الله بدلاً من أن توحد المسيحيين فإنها فرقتهم وجادل أتباع مذهب التثليث بيأس قائلين إن الكتاب المقدس يقول : «إن المسيح

هو الصورة الخالدة للأب والإله الحقيقى» فرد عليهم أتباع آريوس بأن الكتاب المقدس يقول أيضًا «بأننا البشر صورة ومجد الله» .

وفى حقيقة الأمر لو استخدم هذا المبدأ فى الجدال لادعى جميع الناس أنهم آلهة واستمرت المجادلات ليس فقط فى قاعة الاجتماعات ولكن فى داخل القصر الإمبراطورى نفسه وأيدت هيلينا أم الملكة الكنيسة البولسية وكانت داهية من الناحية السياسية وكانت الحنكة السياسية تسرى فى دمها بينما كانت قسطنطينة أخت الإمبراطور تؤمن بالوحدانية ولذلك أيدت آريوس وكان آريوس فى نظرها يتبع تعاليم المسيح وكانت تكره السياسة وتحب وتخشى الله . وانتشر الجدال فى البلاط الإمبراطورى وتطور اجتماع نيقيا إلى مكيدة من الإمبراطور لعب فيها خصى الإمبراطور وطباخه دورًا كبيرًا أما الإمبراطور نفسه فكمخطط استراتيجى نأى بنفسه عن الحزبين وجعل كل إنسان يخمن إذا كان لا يؤمن بالمذهبين فأى مذهب يؤمن به وقد كان وثنيًا بطبيعة الحال وعندما استمر الجدال تراءى للطرفين أنه لن يمكن الوصول إلى قرار محدد فى هذا المجمع ، ولكن كل منهما كان يرغب فى تأييد الإمبراطور لمذهبه لأن قد يعنى للكنسية البوليسة زيادة فى نفوذها وسطوتها وقد يعنى لكنيسة شمال إفريقيا نهاية عصر الاضطهاد ولكى يمكن لكلا الطرفين إرضاء قسطنطين فقد وافق كل الأساقفة الحاضرين على إجراء بعض التغييرات فى مذاهبهم .

ونصحت الأميرة قسطنطينة يوزيبوس النيقوميدى بأن الإمبراطور يرغب بشدة فى توحيد الكنيسة لأن الكنيسة المقسمة تعرض إمبراطوريته للخطر وإذا لم يتم التوصل إلى اتفاق من داخل الكنيسة فقد يفقد صبره ويسحب تأييده للمسيحية ككل وإذا اتخذ هذا الإجراء سيكون موقف المسيحيين أكثر سوءًا من ذى قبل وستكون تعاليم المسيح فى موقف أكثر خطورة فتم عقد اجتماع بين يوزيبيوس وآريوس

وأتباعه وتم فيه الاتفاق على إبداء موقف سلبى من أجل عدم تمزق المسيحية ولكن على ألا يلزموا أنفسهم بإجراء التغييرات التى وافق عليها المجمع على مذهبهم وذلك لأن عبادة إله الشمس الرومانى كانت شائعة فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى ذلك الوقت ولأن الإمبراطور كان يعتبر ممثلاً لإله الشمس الرومانى على الأرض فقد أعلنت الكنيسة البولسية كنتيجة لهذا المجمع الآتى :

١ - أن يوم الأحد الرومانى هو اليوم المقدس عند المسيحيين وهو يعنى يوم الشمس .

٢ - تبنى يوم ميلاد إله الشمس وهو الخامس والعشرون من ديسمبر كيوم ميلاد للمسيح .

٣ - استعارة شعار إله الشمس وهو الصليب الضوئى ليكون شعار المسيحية .

٤ - إضافة جميع الشعائر والطقوس التى تجرى فى الاحتفال بيوم ميلاد إله الشمس إلى شعائر وطقوس المسيحية .

وقد كان مرضيًا عند قسطنطين أن يرى الفجوة بين المسيحية وديانة الإمبراطورية قد ضاقت بصورة كبيرة وقد كان يضع فى حسابه الكنيسة وتأييده لها الذى كان ضعيفًا وقد أصبح الآن أكثر قوة بعد الذى تم ، وفى النهاية تم الاعتراف بعقيدة التثليث كمذهب رئيسى للمسيحية وكان من الممكن أن نرى حتى ذلك الوقت بعض أتباع المسيحية لايزالون يؤمنون بوحدانية الله ويقررون ذلك وكان مذهب التثليث بالنسبة لهم ليس أكثر من وسيلة يحاولون فيها أن يصفوا ما شاهدوه ولأن لغة الوحدانية التى كان المسيح قد أرساها قد فقدت الآن فقد لجأوا إلى استعمال مصطلحات الفلسفة الأفلاطونية الجديدة والتى إن لم تكن ملائمة للغرض بصورة كافية فقد كانت كل ما تبقى لكى يشار إليه بالمعرفة وعلى كل فقد كانت وجهة النظر هذه عند أناس

قليلين فكتب أبولوس :

«إننى أعمل الفصح فى هدوء فقليل من الأتقياء يفهم هذه الفلسفات الأفلاطونية ولا يعرفها أى واحد من العامة مطلقًا فقد قال أفلاطون : إن معرفة الخالق عملية صعبة ولكن تعريف العامة من الناس به عملية مستحيلة . وقال بيثاجوراس : ليس مأمونًا أن تدعو الله بين أناس يتمسكون برأيهم وسواء دعوت بالحقيقة أو الكذب فكلاهما عملية خطيرة .

وبالرغم من أن استخدام هذه المصطلحات * كان يبرره بعض هؤلاء الذين كانوا يحاولون التعبير عن طبيعة الوحدانية فقد باءت هذه المحاولة بالفشل لأنه لا توجد طريقة للربط بين المفهوم اليونانى لزيوس والذى لا يوجد فى أية رسالة سماوية ومحاولة إدخالها إلى التعاليم السامية للمسيح وكان الذى أدخلها بولس وأتباعه وقد سبب هذا بعض الاضطراب للذين لا يستطيعون استيعاب أفكار الفلسفة اليونانية وهذه هى الحالة التى عرضت لأغبية من اعتنق مذهب التثليث ، وأدى هذا الاضطراب إلى شرود تفكير من انتابه وهذه حالة أعضاء مجمع نيقيا ومن المعلوم كيفية نشوء هذا المذهب وكيف تم الاعتراف به رسميًا فى مجمع نيقيا وبسبب الاضطراب الذى سببه هذا المذهب نستطيع أن نفهم لماذا أصر آريوس على العودة إلى مصدر المسيحية وهو الإنجيل بدلاً من اللجوء إلى الفكر الفلسفى اليونانى والذى لا يمت بأية صلة للوحى الذى جاء إلى المسيح النبى .

وبمجرد أن تم الاطمئنان على إدخال هذه التعديلات على تعاليم المسيح فى مجمع نيقيا تم عمل الخطوة التالية وهى وضع أسس العقيدة النيقية بحيث يستشهد بها فى الكتابة من جانب الحاضرين بتأييد كامل من الإمبراطور قسطنطين وإضفاء قداسة عليه وصب اللعنات على من يؤمن

* الأب والابن والروح القدس .

بمذهب آريوس وذلك كطريقة للرفض المباشر لتعاليم آريوس .

«بالنسبة لهؤلاء الذين يقولون إنه كان حيث لم يكن وإنه لم يكن موجوداً قبل ميلاده وإنه جاء إلى الوجود من العدم أو هؤلاء الذين يقولون إنه ابن الله من طبيعة أو مادة مختلفة أو إنه مخلوق أو معرض للتغيير والتحول فإنه يتعرض للعنة الكنيسة الكاثوليكية» .

ومن بين الذين وقعوا على هذه العقيدة من آمن بها ومن كان لا يدرى على ماذا يضع توقيعه ومن - وهم أغلبية الحاضرين - لم يوافق على مذهب التثليث ومع ذلك وقع على ذلك بتحفظ لكى يرضى الإمبراطور وقد قال واحد منهم : «النفس ليست أرخص من الحبر القليل» ويحدد البروفسير جواتكين وهو يشير إلى هذه الجملة أنها ليست جملة سارة إلى المؤرخ ربما لأنه لا يكتب كمؤرخ وإنما كمحام يقبل لكى يكسب قضية ضعيفة .

وهذه هى طبيعة هؤلاء الناس الذين قرروا بمباركة حاكم وثنى ما هو الاختبار الذى يقرر للمسيحى المتدين ، وكانت النتيجة تحمل مفاجأة أكثر لأتباع مذهب التثليث لأتباع آريوس ولم يكن أحد يتوقع أن تجرى الأمور مثل ما جرت وكانت فكرة الاختيار العالمى فكرة ثورية بالنسبة إلى المسيحية ولم تكن محبوبة وكانت الخطوة الأكثر خطورة هى توقيع إدانة مباشرة على مذهب آريوس .

وحتى هؤلاء الذين كرهوا أن يشهدوا على هذه العقيدة فقد فعلوا ذلك وهم لا يسامحون أنفسهم وعندما وصل الأمر إلى التوقيع تأييداً لمصطلح لا يوجد فى الكتب المقدسة وبدون تصديق المسيح أو حوارييه عليه فقد وطنوا أنفسهم على أنهم قد وقعوا بالإكراه ، وهذه الضجة التى صاحبت هذا المجمع فى الحقيقة لم تؤد إلى تحقيق أى شىء والشخص الوحيد الذى كان يفهم ما يفعله هو الإمبراطور فقد كان يعرف أن العقيدة التى يكون أساسها الإقناع وليس أصوات الناس قد لا يتقبلها الناس فقد يمكن الإيمان بالله ولكن لا يمكن اختياره بطريقة ديمقراطية وكان يعرف كيف ولماذا

وقع الأساقفة على هذه العقيدة وكان مصممًا على ألا يخلق الانطباع بأنه أجبر الأساقفة على التوقيع على غير إرادتهم ولذلك اتخذ قرارًا باللجوء إلى معجزة إلهية لتأكيد ومساندة قرار المجمع ، وقد كانت هناك مجموعة كبيرة من الأناجيل وهى السجل المكتوب لتعاليم المسيح موضوعة فى مدخل المجمع وطبقًا لأحد المصادر فإنه كان يوجد ٢٧٠ إنجيلاً فى ذلك الوقت ويروى مصدر آخر بأنه كان يوجد أكثر من ٤٠٠٠ إنجيل مختلف وحتى إن تقبلنا أكثر الآراء تحفظًا فقد يكون هذا الرقم هائلاً بالنسبة لأى مسيحى متعلم فى ذلك الوقت .

وعملية تصميم عقيدة تحتوى على أفكار ليست موجودة فى بعض الأحوال تتناقض مع ما هو موجود فيها كانت تسبب الاضطراب لبعض الناس بينما كان وجود الأناجيل المستمر غير ملائم للآخرين .

واتخذ قرار بوضع كل الأناجيل تحت المنضدة فى قاعة المجلس وغادر المجتمعون القاعة وأغلقت وطلب من الأساقفة أن يصلوا طول الليل ويطلبوا من الله وضع الإنجيل الصحيح والحقيقى على المنضدة كمعجزة إلهية وفى الصباح عثر على الأناجيل التى يعترف بها فقط ممثلوا أثناسيوس وإسكندر موضوعة لوحدها على المنضدة ، وبناء على ذلك أحرقت جميع الأناجيل الموضوعة تحت المنضدة ولا يوجد مستند تاريخى يدلنا على من احتفظ بمفتاح الحجرة تلك الليلة .

وأصبح الاحتفاظ بإنجيل غير معترف به عقوبة تصل إلى الإعدام ونتيجة لذلك قتل أكثر من مليون مسيحى فى الأعوام التى تلت قرارات المجمع .

وهذا هو السبب فى أن أثناسيوس أراد بفعله ذلك تحقيق الوحدة بين المسيحيين وعند عودة الأساقفة من المجمع بدأوا يتباحثون فى أسباب النزاع الذى حدث بينهم عند استدعائهم من الإمبراطور وبدلاً من اتفاقهم اختلفوا ثانية وتناسوا أنهم وقعوا على هذه العقيدة .

ولم ينس مؤيدوا آريوس أنهم لم يعتبروا هذه العقيدة تمثل المسيحية

الحقة بل أثناسيوس فقط هو الذى كان مخلصاً لها ولكن حتى المؤيدون له كانت لهم بعض الشكوك فى هذا المذهب والذى لم يكن معروفًا فى الغرب.

وكان القديس هيلارى يشعر بعدم تقبل لعقيدة مجمع نيقيا ولذلك كتب بعد ثلاثين عامًا من انعقاد المجمع «نحن نلعن هؤلاء الذين يدافعون عنا وندين الآخرين فى أنفسنا أو أنفسنا فى الآخرين ويمزق كل واحد منا الآخر ونحن السبب فى تحطيم كل واحد منا للآخر» وترجمة هذه العقيدة من اللغة اليونانية إلى اللاتينية غير كاملة لأن المصطلحات اليونانية للفلسفة الأفلاطونية والتى استعملتها الكنيسة فشلت فى التعبير عن غوامض وأسرار العقيدة المسيحية ووجود أخطاء لغوية فى الكتب المقدسة قد يؤدى إلى سيل طويل من الأخطاء والحيرة ويصف سابيناس وهو من الأساقفة الأوائل لمدينة سريس الذين اجتمعوا فى نيقيا بمجموعة من السذج الجهلاء ويصف العقيدة التى أعلنوها هناك بأنها تصدر عن مجموعة من الجهلاء الذين لا يملكون أى قدر من الذكاء ويقارن سوقريطس المؤرخ الطرفين المتصارعين بالجيش الذى يشترك فى معركة ليلية ولا يعرف معانى الكلمات التى يستخدمها الآخر . ويقول دكتور ستانلى : إذا كان أثناسيوس عندما كان شابًا قد تبنى التعديلات التى أبداها عندما كبر فى السن لكان من الممكن ألا تنقسم الكنيسة الكاثوليكية وكان يمكن تجنب كثير من سفك الدماء وهكذا بدلاً من أن يضيق المجمع الفجوة بين الطوائف المسيحية فإنه وسعها ولم تتقلص عوامل التمزق بينها ولكنها زادت وهذا كان هو ذوق الكنيسة فبدلاً من استخدام منطق التعليل والإقناع فقد لجأت إلى استخدام الجبر وبدأ أول وأكبر حمام دم لأتباع آريوس وارتد كثير من القوطيين واللومبارد بنفس الوسائل ، وقد كان للخوف من الموت وهو نتيجة الحروب الصليبية والتى تلت حرب الثلاثين سنة فى أوربا أن لم يكن حتى الإيمان بعقيدة التثليث غير كاف ولكن يجب إطاعة الكنيسة أيضًا وفى عصر الإصلاح كانت الظروف تنبئ بأن حتى أفعال مارتن لوثر لم تكن

موجهة نحو أية محاولة حقيقيـة للعودة إلى تعاليم المسيح الحقيقية ولكنها كانت رغبة للوصول إلى السلطة .

ونعود إلى الأحداث التى وقعت بعد عام ٣٢٥ ميلادية فنجد أن الأسقف إسكندر قد مات عام ٣٢٨ بعد الميلاد وتبع ذلك انتخاب أسقف جديد للإسكندرية وكانت مقاومة أتباع آريوس وميلتيوس كبيرة وبالرغم من ذلك تم تنصيب أثناسيوس أسقفًا وكان انتخابه لذلك محل نزاع .

وكان الذين عارضوا تنصيبه يشتكون من الاضطهاد والمكائد السياسية واستعمال السحر وفى نفس الوقت فى بلاط قسطنطين كانت قسطنطينة أخته التى كانت تحب وتخشى الله تعلن معارضتها لقتل المسيحيين ولم تحاول أن تخفى حقيقة اعتقادها بأن آريوس كان يمثل المسيحية الحقة ومعارضتها لنفى يوزيبيوس النيقوميدى من جانب الإمبراطور بسبب معتقداته وبعد مدة طويلة نجحت فى جعل الإمبراطور يسمح له بالعودة وكانت عودته ضربة كبيرة لطائفة أثناسيوس وبدأ الإمبراطور يميل تدريجيًا نحو جانب آريوس وعندما سمع بأن تنصيب أثناسيوس أسقفًا كان محل نزاع استدعى الأسقف الجديد إلى العاصمة فاعتذر أثناسيوس عن عدم الحضور ولم يذهب إلى القسطنطينية .

وفى عام ٣٣٥ ميلادية انعقد مجلس فى مدينة تير للاحتفال بالعام الثلاثين لحكم قسطنطين فكان أثناسيوس مضطرًا إلى الذهاب إلى القسطنطينية واتهم هناك بالطغيان وكان الجو معبأ ضده لدرجة أنه غادر المجلس بدون الاستماع إلى القرارات التى ستصدر عنه وأدين فى هذا المجلس واجتمع الأساقفة بعد ذلك فى أورشليم حيث تم إعلان إدانة أثناسيوس واستدعى آريوس إلى الكنيسة وسمح له بتناول العشاء الربانى .

واستدعى الإمبراطور آريوس وصديقه يوزيبيوس إلى القسطنطينية وأصبح السلام بين الإمبراطور وآريوس مستديمًا فدعا الإمبراطور الأساقفة إلى أثناسيوس رسميًا مرة ثانية وحاول أثناسيوس بيأس أن يواجه الأسد فى

عرينه فحضر شخصياً إلى القسطنطينية وسمح له الإمبراطور بالكلام أمام جمع غفير وكان يوزيبيوس النيقوميدى حاضراً فى هذه المناسبة وكان يوزيبيوس يعرف أن القرار الذى اتخذ فى نيقيا كان ضد آريوس لأسباب سياسية ولذلك بدلاً من إجراء جدال دينى بين آريوس وأثناسيوس لا يستطيع الإمبراطور أن يفهمه بأية طريقة * اتهم أثناسيوس بمنع إمداد العاصمة بالقمح عن طريق فتاويه الدينية وقد أدهش هذا أثناسيوس دهشة كاملة ولقد اكتشف أن شخصاً آخر يستطيع أن يلعب نفس اللعبة التى كان هو خبيراً بها وثبت التهمة سريعًا على أثناسيوس فنفى إلى طويرفى بلاد غالة وعين آريوس أسقفًا للقسطنطينية ومات بعد ذلك بفترة قصيرة مسمومًا عام ٣٣٦ ميلادية ولقد سمت الكنيسة ما حدث بالمعجزة ولكن الإمبراطور شك فى أنها قد تكون حادثة قتل فعين لجنة للتحقيق فى أسباب الوفاة وتشكلت هذه اللجنة بطريقة غامضة وسرية وأدين فيها أثناسيوس بقتل آريوس .

أما الإمبراطور فنظراً لتأثره الشديد بوفاة آريوس ولتأثير أخته عليه الذى لا يعتريه الشك فقد اعتنق المسيحية وعمده يوزيبيوس النيقوميدى ومات بعد ذلك بعام عام ٣٣٧ ميلادية فقسطنطين الذى قضى فترة كبيرة من حكمه يضطهد الذين آمنوا بالوحدانية يموت بنفس العقيدة التى مات بها الذين اضطهدهم .

ولقد لعب آريوس دوراً كبيراً فى تاريخ المسيحية فهو لم يكن فقط الداعية الذى جعل قسطنطين فى النهاية يعتنق المسيحية ولكنه كان يمثل هؤلاء الذين حاولوا أن يتبعوا تعاليم المسيح فى وقت أوشكت فيه هذه العقيدة على التفكك ، وعندما كانت ذكريات المسيح كرجل يمثل هذه العقيدة قد ضعفت فى أذهان أتباعه يبرز رجل كآريوس ليس مستعداً لقبول مسار هذه الأحداث برضا وقد كان يؤمن أن الله واحد ولذلك فإن

---

* لأنه كان وثنيًا .

الإيمان به بسيط وأن الله لا يلد ولا يولد وأنه أبدى خالد وليس له بداية وأنه جميل وقادر وأنه لا يتبدل ولا يتغير وأن وجوده مخفى بسر أبدى عن أعين كل مخلوق وكان يعارض أى رأى يتعلق ببشرية الله .

وكان يمارس نفوذه بصورة جدية لصالح اتباع تعاليم المسيح الحقيقية وكان مستعداً أن يحدد فى المسيح كل صفة من صفاته ويبين أنها لا تتفق مع وحدانية وتفرّد الله وكان يرفض أن يهادن أى رأى يدعو إلى الإيمان بتعدد الآلهة ولذلك كان ملتزمًا برفض أية فكرة تدعو إلى ألوهية المسيح لأن صفة الولادة من الطبيعة البشرية وليست من طبيعة الله وبالتالى فإنه لا يمكن أن يكون هناك ابن لله بالمعنى أو المحدد لتلك الكلمة .

وإذا كانت صفة الولادة فإنها تؤثر فى وحدانية الله وتلصق بالله صفة العاطفة والجسدية وهى بشرية ، وقد تعنى هذه الصفات أن الله يحتاج وهو ليس كذلك ، ولذلك فإنه بأى طريقة كان من المستحيل إلصاق صفة الولادة لله .

وكان يقول أيضًا بما أن المسيح محدود فهو خلاف الله الذى يكون أبديًا خالداً ومن الممكن تصور الزمن الذى لم يكن فيه المسيح موجوداً ، وهذا أيضًا يبين أنه شىء آخر خلاف الله سبحانه وتعالى والمسيح ليس من روح الله ولكنه مخلوق من الله مثل كل المخلوقات الأخرى بالرغم من كونه متفرداً بين الناس بسبب نبوته وبدلاً من كونه يشارك الله فى الروح فهو لا يدرى ما هى روحه ، وكان يعتمد مثل كل الجنس البشرى له إرادة حرة وطبيعة قد تؤدى به إلى فعل أفعال قد ترضى الله أو لا ترضيه وبالرغم من قدرته على فعل أفعال قد لا ترضى الله فإن فضيلته الذاتية قد بعدت به عن ذلك وقد بقيت هذه المعتقدات الأساسية لآريوس مستقيمة حتى يومنا هذا ولازالت أساس الإيمان لكثير من المسيحيين الموحدين .

وبعد وفاة قسطنطين عام ٣٣٧ ميلادية آمن الإمبراطور الجديد قسطنطيوس بعقيدة آريوس واستمر الإيمان بالوحدانية رسميًا كمذهب

معترف به للمسيحية الحقيقية وانعقد مؤتمر فى أنتيوخ عام ٣١٤ ميلادية واعترف بالتوحيد كمبدأ أساسى للمسيحية وهذا الحكم أكده مؤتمر آخر انعقد فى سيرميوم فى عام ٣٥١ ميلادية بمساندة الإمبراطور وهكذا اعتنق غالبية المسيحيين فى ذلك الوقت مذهب آريوس .

وكتب إستى جيروم عام ٣٥٩ ميلادية «أن العالم كله كان يتأوه ويتعجب لكونه يتبع مذهب آريوس» وفى الأعوام التالية زاد عدد أتباع مذهب التثليث وفى عام ٣٨١ ميلادية أعلن أن الديانة الرسمية للإمبراطور فى القسطنطينية هى ديانة آريوس وتدريجيًا بعد ذلك أصبح مذهب التثليث هو المذهب المعترف به للمسيحية فى الغرب .

وتظهر ظاهرة المجالس الدينية التى تصدر قرارات رسمية كيف انحرفت المسيحية فى أوربا عن تعاليم المسيح فهو نفسه لم يلجأ إلى هذا التنظيم الذى يوجد فقط فى بلاط الحكام .

وفى عام ٣٨٧ ميلادية أتم جيروم كتابة المقدس الشائع المشهور وقد كان الترجمة اللاتينية الأولى لبعض الكتب المقدسة التى ترجمت إلى اليونانية من العبرية وهى تشمل ما هو معروف اليوم بالعهد القديم .

وقد أصبح هذا الكتاب الأساس الذى أخذت عنه معظم ترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات الأخرى والذى تبنته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ثم البروتستانتية بعد ذلك ككتاب مقدس معترف به من كلاهما وبمجرد ظهور هذا الكتاب أزيلت كل الكتب المقدسة والأناجيل التى لم تكن متضمنة فى كتاب جيروم وتم التخلص منها تمامًا عن طريق هاتين الكنيستين فى مرحلة زمنية أو أخرى ولذلك فقدت جميع الروابط التى تربط بالتعاليم الحقيقية للمسيح تدريجيًا وهناك شخصية بارزة وهى شخصية البابا هونوريوس ، وقد كان معاصرًا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورأى المد المتزايد للإسلام والذى كانت عقائده تشبه آريوس وكان منظر قتل المسيحيين لبعضهم لازال عالقًا بذاكرته ، ولذلك فكر فى

أن ما سمعه عن الإسلام يمكن تطبيقه فى حل الخلافات بين المسيحيين ولذلك بدأ يؤيد فى رسالته مذهب العقل الواحد داخل مذهب التثليث ولقد جادل فى ذلك قائلاً : «إذا كان الله له عقول ثلاثة مستقلة سينتج عن ذلك فوضى» وكاد استنتاجه المنطقى يؤدى إلى الإيمان بإله واحد .

وأعلن مجمع تشاليسدون عام ٤٥١ ميلادية أن طبائع المسيح لايمكن تقسيمها وهذا بدوره أثر على هونوريوس فى استنتاجه أن إرادة المسيح واحدة ولذلك جادل قائلاً : إن المسيح كانت له طبيعة بشرية متحررة من لعنة الخطيئة الأصلية . وطبقًا لرأيه هذا يكون للمسيح إرادة بشرية وهكذا كان الإيمان بالوحدانية إيمانًا متأصلاً بطريقة غير مباشرة داخل المسيحية البولسية ، أما هذا النوع من الجدال حول المسيح فهو إشارة إلى الدرجة التى أثرت فيها بدع بولس على عقول الناس وأدت إلى اضطرابها ومات البابا هونوريوس فى أكتوبر عام ٦٣٨ ميلادية وفى نفس العام اعتنق الإمبراطور هرقل رسميًا مذهب هونوريوس ، وأصدر أمرًا لكل رعايا الإمبراطور باعتناق مذهب الإرادة الواحدة للمسيح .

أما مجمع القسطنطينية الذى انعقد عام ٦٣٨ ميلادية فقد أيد هذا المذهب بقوله : إنه يتفق حقيقة مع المواعظ الرسولية ، ولمدة نصف قرن لم يستطع أى أحد أن يتحدى رسميًا مذهب هونوريوس وفى عام ٦٨٠ ميلادية بعد وفاته باثنين وأربعين عامًا انعقد مجمع فى القسطنطينية وفيه لعن البابا هونوريوس لأنه لم يحس بشرارة التعليم الكافر فى بدايتها ولكنه تبناها جاهلاً عواقبها ولذلك سمح بتلويث العقيدة النقية وهذا القرار حيث يلعن البابا البابا الذى يخلفه بمساندة الكنيسة يعتبر قرارًا فريدًا فى تاريخ المسيحية ، وزاد عدد أتباع وقوة ونفوذ الكنيسة البولسية أو الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ويعزى هذا إلى ارتباطها الوثيق بالأباطرة الرومانيين فبقدر ما ربطت نفسها بأصحاب السلطة والنفوذ بقدر ما كانت معروفة أكثر عن طريقهم وخلال القرون الثمانية التى تلت

مجمع نيقيا وسعت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية دعائمها بحيث لا يكون المقر الرئيسي لها في أورشليم ولكن في روما وتمكنت من الحصول على أراض وممتلكات واسعة في المدينة وحولها وعرفت هذه الأوقاف بوقف قسطنطين وأصبح من الخطر على أي إنسان أن يختلف مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي كان يؤيدها الجيش الروماني بالإضافة إلى نفوذها الخاص بها وبعد عام ٣٢٥ ميلادية قتل أكثر من مليون مسيحي لعدم إيمانهم بمذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وكانت هذه فترة عصور الظلام ولم يجرؤ على الإيمان بوحدانية الله إلا عدد قليل من الناس في أوربا وبينما كانت الكنيسة الكاثوليكية مشغولة بتقليم أظافر الخارجين عليها الذين سموا بالهراطقة بدأ العالم المسيحي يسمع عن المسلمين وعرف أتباع المسيح في شمال إفريقيا الإسلام كرسالة سماوية أخرى من عند الله تتبع مباشرة التعاليم الحقيقية للمسيح بل وتفوقها ولذلك أصبحوا مسلمين وبقيت مسيحية أوربا .

ولقد لاحظ زعماء الفاتيكان التشابه بين الإسلام ومذهب التوحيد الذي دعا إليه آريوس فكلاهما يؤمن بإله واحد كلاهما يؤمن بالروح القدس وكلاهما يرفض تأليه المسيح ولذلك انقلب الغضب من الإريسيين إلى المسلمين .

وبهذا الخصوص لم تكن الحروب الصليبية ظاهرة فريدة في تاريخ الكنيسة ، ولكنها كانت امتداداً للمذابح التي حدثت للإريسيين من الكنيسة البولسية .

وفي تلك الفترة لم تتجاهل الكنيسة أي اعتراض يصدر من داخلها فأقيمت محاكم التفتيش للتحقيق ومحو آثار الضلال من المذاهب القائمة للكنيسة ولا يعرف على وجه التحديد كم عدد ضحايا هذه المحاكم ولكن يقدر بعدد كبير ممن لقي حتفه على يد زبانية الكنيسة .

وفي عصر الإصلاح وإنشاء الكنائس البروتستانتية التي زاد نفوذها

أصبح مذهب التثليث أكثر رسوخًا بالرغم من أن البروتستانتيين والروم الكاثوليك قد عارضوا بعضهم فى بعض القضايا مثل حقيقة الوثيقة التى حددت وقف قسطنطين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فبعض علماء الذين ألقى نظرة دقيقة على الصك واكتشف أن الوثيقة مزورة ومنذ ذلك الوقت توقف الفاتيكان عن التباهى بهذه الوثيقة وكانت حرب الثلاثين سنة المشهورة بين البروتستانت والكاثوليك دليلاً آخر على أن حروب هذه الكنائس لم تكن من أجل تنفيذ تعاليم المسيح الحقيقية على الأرض .

وهذه الحروب مثل عداء الكنيسة البولسية للإريسيين والمسلمين فيما بعد أظهرت بوضوح أن كل ما كانت تطمح إليه الكنيسة هو السلطة ، وبالنسبة لهذه الوقائع الثلاث كانت الكنيسة تحارب لكى تستكمل وجودها الحقيقى كمؤسسة دينية وليس لنشر تعاليم المسيح وعندما استمر الإسلام فى الانتشار أعدت الكنيسة البولسية استراتيجية كاملة لمحاربة المسلمين سواء فى الشرق أو فى الغرب .

وكانت تأمل فى ضم قواتها إلى قوات ملك هندى مسيحى أسطورى وعن طريق ذلك تغزو العالم كله ، وعن طريق مجهوداته للوصول إلى الهند اكتشف كولومبوس أمريكا واكتشف فاسكودى جاما طريقًا جديدًا إلى الهند ، وكان هذان الاكتشافات من المغامرات المربحة ماديًا ولم يستطع المسيحيون ولا نجحوا فى اكتشاف ملكهم الهندى الأسطورى ولا القضاء على الإسلام ولكنهم استعمروا بلادًا كثيرة من العالم ، وأصبح زعماؤهم وتجارهم أغنياء كنتيجة لذلك وبالرغم من النفوذ القوى للكنائس الرومانية الكاثوليكية والبروتستانتية فلم ينجحوا فى القضاء على الإيمان بالوحدانية سواء تمثل ذلك فى اتباع آريوس أو الموحدين أو السوسيانيين وتمكنت هذه الحركات من البقاء داخل المسيحية حتى يومنا هذا كما تظهر السير الذاتية القصيرة لأتباعها فى الصفحات التالية .

الفصل السابع

الموحدون المسيحيون الأواخر

ميكل سيرفيتس (١٥١١ - ١٥٥٣) .

ولد ميكل سيرفيتس فى فالنويفا فى أسبانيا عام ١٥١١ وكان ابن أحد القضاة المحليين وكان يعيش فى عصر اضطراب وقلاقل فى الكنائس القائمة وقتذاك وفى فترة كان كل واحد فيها يتساءل عن طبيعة المسيحية .

وفى عام ١٥١٧ عندما كان عمره ٦ سنوات قام مارتن لوثر بثورته ضد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ونتج عن ذلك إقصاؤه منها ، وأصبح بذلك زعيم الديانة البروتستانتية الإصلاحية الجديدة ، وهذه الحركة المعروفة اليوم بحركة الإصلاح انتشرت مثل النار ، وحتى هؤلاء الذين لم يتفقوا مع لوثر كان عليهم أن يحتاطوا منه ، وإلى جانب هذا الصراع كان هناك صراع آخر بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا فعلى الرغم من وجود علاقات وثيقة بين الاثنين فى الماضى فإن نتائج الحروب الصليبية فى الشرق جعلت المسيحيين يصبوا غضبهم على المسلمين فى أسبانيا .

وكان هنا نظام محاكم التفتيش الموضوع لإجبار الناس على الإيمان بالمسيحية الكاثوليكية الرومانية وأى تأخير فى اتباع طقوس الكنيسة كان ينتج عنه عقاب قاس إن لم يكن الموت وبمجرد أن شب سيرفيتس وتلقى العلم كان مرتاعًا من سفك الدماء الذى يحدث حوله وكانت توجد مستوطنات كبيرة للمسلمين واليهود هناك .

وكانت رقابهم لن تقطع إذا أعلنوا جهاراً أن عقيدتهم هى عقيدة الروم الكاثوليك وإذا اعتنقوا مذهب التثليث . ولا تتخيل تأثير سيرفيتس عندما ألقى نظرة فاحصة على الكتاب المقدس واكتشف أن مذهب التثليث ليس له وجود فيه واكتشف أكثر أن الكتاب المقدس لا يؤيد دائمًا تعاليم الكنيسة ، وعندما أصبح عمره عشرين عامًا قرر أن يعلن للعالم هذه الحقيقة التى اكتشفها .

وكان من نتيجة هذا الاكتشاف أنه إذا آمن المسيحيون بإله واحد تلاشى جميع أسباب الفرقة بينهم وبين المسلمين ويمكن للطرفين أن يعيشا معًا فى سلام .

وهنا - كشاب حساس وعديم التجربة - امتلأ خياله فجأة بالحماس وشعر أن هذه الغاية يمكن تحقيقها بسهولة بمساعدة زعماء حركة الإصلاح الدينى الذين كانوا قبل ذلك قد انقطعت صلتهم بالكنيسة الكاثوليكية فبمساعدتهم ستؤمن الكنائس البروتستانتية الجديدة بإله واحد ، ويمكن عندئذ للمسلمين والمسيحيين واليهود أن يتعايشوا معًا فى سلام ، وعالم التسامح يمكن أن يصبح ممكنًا إذا كان مؤسسًا على الإيمان بإله واحد هو رب الجنس البشرى .

وكان عمر سيرفيتس صغيراً لدرجة أنه لم يدرك أن عقول زعماء حركة الإصلاح لازالت تؤمن بنفس الأفكار الزائفة .

واكتشف أن كل من مارتن لوثر وكالفين ليس لهم أية علاقة بالإيمان بوحدانية الله ، ونظراً لخشية الكنيسة من تطرف حركة الإصلاح الدينى فقد ألغت كثيراً من احتفالاتها ولكن لم ينظر زعماء حركة الإصلاح إلى التعاليم الأصلية للمسيح نظراً لأن ذلك سيضيف صعوبة إلى الصعوبات التى تواجههم وقد يعنى تقليص نفوذهم وصيتهم .

ولم يكن عندهم أدنى فكرة عن مدى شطط ممارسات الروم الكاثوليك وبعدهم عن التأسى بحياة المسيح ، وقد يكونون قد قاموا

ببعض التصحيحات لكى يدخلوا الديانة الإصلاحية داخل إطار الديانة الكاثوليكية ولكن لم يكن كفاحهم من أجل عبادة إله واحد ولكن من أجل أمور تنظيمية وخاصة عمن يحكم الكنيسة . وكانت معتقدات سيرفيتس تمثل تهديداً لكل هذه التنظيمات ولذلك كانت استجابته لزعماء حركة الإصلاح مدعاة لهم لتوحيد جهودهم مع الكنيسة الكاثوليكية للدفاع عن مصلحتهم العامة وهدفهم المشترك .

ولم يحاول سيرفيتس أن يفهم ذلك جيداً ولذلك كان يضع كل أمله على زعماء حركة الإصلاح لأنه كان معتنقًا الديانة الكاثوليكية الرومانية ، وأدت الدراسات التى تلقاها إلى عدم اقتناعه بمذهب التثليث مما أدى إلى إيمانه بوجود إله واحد وأن المسيح أحد أنبيائه .

وتأكد اقتناعه بذلك عند شهادته لحفل تتويج تشالز الخامس ملك أسبانيا بواسطة البابا ، ففى عام ١٥٢٧ غزا تشالز الخامس روما وقام بسجن البابا ولكنه أدرك ميزة قيام تحالف بينه وبين البابا .

فوجود البابا فى الأسر سوف يؤلب عليه الناس لذلك أطلق سراحه وأعاد إليه حريته بشرط أن يتم حفل تتويجه على يديه وكان الحفل يشبه عرس الكنيسة .

وكان أسلاف تشالز لا يقومون بمثل هذه التصرفات ولكن تشالز كان يعتقد أنه قوى ، وأن البابا ضعيف ، ولم ينعقد حفل تتويجه فى روما ولكن فى بولونيا لأنه هناك اعتقاد شعبى بأن روما توجد حيث البابا .

وشهد سيرفيتس هذا الحفل وملأه ذلك بالاشمئزاز من الكنيسة الكاثوليكية ، ولذلك كتب يصف هذه الواقعة قائلاً : «بعينىَّ هاتين رأيته (يقصد البابا) وهو ممتلئ بالأبهة يعمل بيديه علامة الصليب وكل الناس فى الشوارع تتلهف عليه لدرجة أن من كان يستطيع أن يقبل قدميه أو نعاله كان يعتبر محظوظًا عن الباقين وكان يعتبر نفسه حصل

على صك الغفران بفعل ذلك وأن آلامه ستزول .. ويلاً لكم يا من هم أسوأ من جميع الحيوانات ويا أتباع المومسات» .

ولذلك وضع سيرفيتس كل آماله فى زعماء حركة الإصلاح الدينى وكان يعتقد أنه لو وضع أمامهم أخطاء مذهب التثليث فلن يؤمنوا بهذه العقيدة وكان سوء الفهم سيكلفه حياته وغادر أسبانيا إلى تولوز حيث درس الطب وحصل على شهادة طبية عام ١٥٣٤ وفى الأعوام التالية ابتدأ يمارس مهنة الطب وكانت كل جهوده طوال تلك الفترة تتركز فى تنقية المسيحية مما علق بها ولم يبق مدة طويلة فى مكان واحد ولكنه كان يسافر بحثًا عن أناس ذوى عقول متفتحة لكى يستمعوا منه تعاليم المسيحية التى جاء بها المسيح وسافر إلى بازل لكى يقابل أوكلومباديوس المشهور وهو أحد زعماء حركة الإصلاح وعقد معه محادثات عدة تركزت حول مبدأ طبيعتى المسيح وأنكر سيرفيتس أن المسيح كان يوجد قبل خلق العالم وأشار فى حديثه إلى أن أنبياء بنى إسرائيل كانوا يتكلمون عن ابن الله فى زمن المستقبل ، واكتشف أن آراءه لا تتفق مع آراء البروتستانت فى سويسرا ولذلك ترك بازل عام ١٥٣٠ وكانت هذه صدمة لأنه كان يأمل أن البروتستانت خلاف مسيحيى فرنسا سيصغون إلى ما يقوله عن المسيح وتعاليمه .

وذهب إلى ستراسبورج ولكنه لم يستطع أن يتكسب من مهنته هناك ونظراً لجهله باللغة الألمانية لم يكن قادراً على ممارسة الطب ولذلك اضطر إلى الذهاب إلى ليون حيث قام بعمل مراسلات طويلة مع كالفن خلال تلك الفترة بعد رحيله من أسبانيا ولكنه لم يتلق أى رد إيجابى من كالفن الذى لم يكن مهتمًا بتجسيد تعاليم المسيح ولكن بمن سيصبح زعيمًا لحركته ، ونظراً لفشل كل المحالاوت للتأثير على الناس عن طريق الاتصالات الشخصية قام سيرفيتس بتأليف كتاب حمل فيه كل آرائه وسماه أخطاء التثليث ونشر عام ١٥١٣ وفى نفس العام قام

بتأليف كتاب آخر أسماه محاورتين عن التثليث وكان وقع الكتابين كالصاعقة على أوربا فلم يجرؤ أى أحد على تأليف كتاب جرىء كهذا حسب الذاكرة ، وكان نتيجة ذلك أن الكنيسة أخذت تطارد سرفيتس من مكان لآخر فاضطر إلى تغيير اسمه ولكن آراءه بقيت كما هى ومن عام ١٥٣٢ حتى وفاته عاش تحت اسم مستعار وكان سيرفيتس ولايزال يثق بكالفن والذى بعد أن قرأ كتبه أضمر كراهية شديدة لهذا الشاب الذى تجرأ على تعليمه علم اللاهوت واستمر سيرفيتس يراسله واشتد غضب كالفن عندما وجد أن سيرفيتس لا يقبل بآرائه وخشى زعماء حركة الإصلاح من انتكاسة الحركة إذا أصبحت آراء هذا الشاب المتحمس معروفة للناس ومن زيادة اضطهاد الكنيسة لهم إذا ابتعد المذهب الكاثوليكى فى كثير من الأمور وليس بعضها وهكذا بدلاً من أن ينجح سيرفيتس فى إقناع البروتستانت بمعتقداته اضطرهم إلى الإيمان بمذهب التثليث بحماس وأدانه مارتن لوثر على العلن عام ١٥٣٩ .

وخلال تلك الفترة بدأ سيرفيتس يمارس مهنة الطب وأصبح طبيباً مشهوراً وبالرغم من عدم توافر الوقت له بسبب عمله كطبيب فقد وجد وقتاً للإشراف على طباعة الكتاب المقدس ونشره عام ١٥٤٠ وكتب مقدمة له يقول فيها إنه يتساءل عما إذا كانت نصوص الكتاب المقدس تحتمل أكثر من معنى فكتب إليه كالفن ورد عليه بالإيجاب ولكن اختلف سيرفيتس معه واليوم تتفق الكنيسة الكالفينية مع نفس مبدأ التفسير الذى ادعى كالفن أنه من أعظم أخطاء سيرفيتس ضد المسيحية الأصولية وكتب سيرفيتس فى المقدمة يقول إنه يتبع نفس آراء الرسل الذين ينتمون للمدرسة الأنطاكية للمسيحية .

ومن المفيد أن سيرفيتس فى خضم هذا الصراع قد لجأ بعد هروبه إلى منزل صديقه القديم بيتربالمير وكان كبير الأساقفة الروم الكاثوليك

لكنيسة فينا وعاش هناك لمدة عشر سنوات وكان ولا يزال يمارس مهنة الطب وازدادت شهرته كطبيب وكان أول من كتب فى موضوع دورة الدم فى أوربا وكتب كتاباً آخر عن الجغرافيا وبالرغم من إنجازاته الأدبية كانت القضايا التى تواجه المسيحية تشغل جل تفكيره واستمر يراسل كالفن على أمل أن يكسبه إلى جانبه ولكنه لم يعترف بالمعتقدات التى عبر عنها سيرفيتس فى خطاباته ، ورفض سيرفيتس أن يعترف برأى كالفن وكان كالفن معروفاً فى ذلك الوقت بأعظم مفكر للديانة البروتستانتية وكان يشعر بأن وجهة نظره لها ما يبررها فى التعبير عن قلقه من سيرفيتس لتجرئه على تحدى أحكامه فى أمور الدين ورفض سيرفيتس أن يعترف بكالفن كسلطة دينية لا يمكن منازعتها وكانت مراسلات كالفن نحوه تتسم بالغضب وكان يرد عليه بالسخرية .

وكتب سيرفيتس كتاباً آخر سماه استعادة المسيحية وأرسل نسخة مسبقة إلى كالفن وكان الكتاب يتكون من سبعة فصول عند نشره وكان الفصل الأول والأخير منها موجهاً إلى مذاهب المسيحية أما الفصل الخامس فيحتوى على نسخ من ثلاثين خطاباً كانت متبادلة بين سيرفيتس وكالفن وكان مضمونها يقول إنه مهما كانت قداسة كالفن فإنه يفتقر إلى ما يعرف بالاعتدال المسيحى ونتج عن ذلك الكتاب إدانة سيرفيتس مرة ثانية ولكن من كل من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية وتضافرت جهودها فى التخلص من هذا الكتاب كلية وتم ذلك فيما عدا نسختين بقيتا حتى اليوم ونشرت من هذا الكتاب نسخة طبق الأصل عام ١٧٩١ ولكن تم التخلص من النسخ الباقية وقام كالفن بتهديد سيرفيتس فى خطاب كتب عام ١٥٤٦ قائلاً إنه إذا جاء إلى جنيف فلن يجعله يخرج منها حياً ولم يصدق سيرفيتس هذا الكلام ولكنه كان مصمماً على كلمته ، وعندما ذهب سيرفيتس فيما بعد إلى جنيف لكى يراه وهو مقتنع بإمكان تطابق

تفكيرهما أمر كالفن مجموعة من الروم الكاثوليك بالقبض عليه وألقى في السجن بتهمة الهرطقة .

وكان لشهرة سيرفيتس الواسعة كطبيب أثرها فى نجاحه من الهروب من السجن بمساعدة مجموعة من مرضاه القدامى فسافر إلى نابلس ولكن طريقه كان يمر بمدينة جنيف ، وكان يعتقد أنه قد تنكر بطريقة لا تساعد على كشفه ولكنه كان مخطئاً فعند مروره بالمدينة اكتشف أمره وقبض عليه مرة ثانية ولم يستطع الهروب هذه المرة وعقدت له محاكمة أدين فيها بتهمة الهرطقة وجرت وقائع المحاكمة كالتالى :

«يعترف سيرفيتس فى المحاكمة أنه سمى فى كتابه المؤمنين بمذهب التثليث على أنهم كفرة وأطلق على هذا المذهب وصف الوحش الشيطانى ذى الثلاثة رءوس ووصف تعميد الأطفال بأنه عمل من أعمال الشيطان والسحر وهذا يعنى الحكم عليه بالقتل وكتب خطاباً إلى أحد رعاة الكنيسة فيه بعض التجديف وصف فيه ديانتنا الإنجيلية بأنها من غير عقيدة ولا إله وبدلاً من الله نعبد جسماً ذا ثلاثة رءوس» . وأخذت المحكمة تخاطب سرفيتس قائلة : «إنك لا تخاف ولا تخجل من الوقوف ضد الثالوث المقدس ، ولذلك فقد أمرضت العالم بُسمك الهرطيقى اللاذع ولهذه التهمة وغيرها التى نحاول أن نخرج كنيسة الله من عدواها وأن نقطع المرض من جذوره وأخيراً نحكم عليك يا ميكل سيرفيتس بأن تقيد وتحمل إلى الكنيسة وهناك تربط بوتد ثم تحرق أنت وكتابك وبذلك تنتهى حياتك وتكون عبرة لأى شخص يحاول أن يحذو حذوك» .

وفى يوم ٢٦ أكتوبر ١٥٥٣ ربط سيرفيتس إلى جذع شجرة مثبتة فى الأرض وكانت قدماه تلامس الأرض ووضع على رأسه تاج من القش والورق المرقش بالكبريت وكومت حول ساقيه حزم من الخشب والبلوط

الأخضر وربط جسمه بالجذع عن طريق سلسلة حديدية ولف حول رقبته حبل مستدير وأشعل الخشب وأحرقته النار ولكنها لم تحرقه كلية وشعر بعض الحاضرين بتعاطف معه عند رؤية ذلك ، ولذلك زادوا من إشعال النار حتى ينهوا هذه المأساة بالنسبة له وطبقاً لقول أحد الشهود فإن سيرفيتس كان يتلوى لمدة ساعتين قبل موته وربطت نسخة من كتابه أخطاء التثليث إلى خصره قبل حرقه وقيل إن أحد الحاضرين قد انتشله وأن نصفه المحروق لا يزال موجوداً ويروى سيلسس أن بقاء سيرفيتس فى وسط النار قد جذب كثيراً من الحاضرين إلى الإيمان بمعتقداته حتى كالفن نفسه كان يشتكى من أن هناك عدداً كبيراً من الناس يحترمونه ويعتزون بذكراه وقال كاسيتلو وهو أحد أتباع سيرفيتس : «أن تحرق إنساناً ليس معناه إثبات صحة مذهبك» .

وفى الأعوام التالية لذلك كان يتذكره شعب جنيف بنصب تمثال ليس لكالفن ولكن للشخص الذى كان مسئولاً عن حرقة حياً .

وكان كوبر متأثراً من ذلك لدرجة أنه كتب هذه الأبيات «لقد عاشوا مجهولين حتى دفعهم الاضطهاد إلى الشهرة ورفعهم ورفع آثارهم إلى السماء فلا الرخام يصف لنا إلى أين بأسهم ولا يستطيع الشاعر أن يقدس ويوقر أغنيته والتاريخ الذى يكون متحمساً للموضوعات التافهة يبخل على هؤلاء» .

وكانت واقعة موت سيرفيتس واقعة فريدة وكانت هذه الحوادث تحدث فى جميع أنحاء أوربا فى ذلك الوقت كما يروى موتلى من مقالته «قيم الجمهورية الهولندية» :«فى ١٥ فبراير عام ١٥٦٨ صدر حكم المحكمة الكنسية بإدانة كل سكان نيوزيلاندة بالإعدام كهراطقة ، ولم ينجُ من هذه المحاكم العالمية إلا عدد قليل مذكور بالاسم وصدر مرسوم من الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا بعد صدور هذا الحكم بعشرة أيام بتأييد قرار هذه المحكمة الكنسية ومطالبته بتحويله إلى الإعدام المؤجل

وحكم بهذا الشكل على ثلاثة ملايين من الرجال والنساء والأطفال وذلك فى بضع كلمات .

وهذا المرسوم الجديد لم يخفف من أحكام الإعدام فكان كل يوم وكل ساعة يتم حرق رجال من أعلى وأحط المراكز وهم مربوطون بأوتاد .

ويحصر ألفا فى خطابه إلى فيليب الثانى عدد أحكام الإعدام التى تحدث مباشرة بعد انتهاء الأسبوع المقدس بثمانمائة رأس .

وهناك بعض المستخلصات من كتاب أخطاء التثليث والتى سببت هذه الإجراءات العنيفة وفيها يكتب سيرفيتس .

«لقد اخترع الفلاسفة كائناً ثالثاً منفصلاً ومتميزاً عن الاثنين الآخرين ويسمونه الإقنيم الثالث أو الروح القدس وهكذا اخترعوا ثالوثاً خيالياً وهم ثلاثة كائنات بطبيعة واحدة ولكنهم فى الواقع ثلاثة آلهة أو إله بثلاثة أقانيم فكرة قد دست علينا تحت زعم أن ذلك يحقق الوحدانية ومن السهل بالنسبة لهم وضع الكلمات بمعناها الدقيق لثلاثة كائنات يدعون أنها منفصلة أو مميزة وأن كل واحد منها مكون من الآخر وواحداً يعلو على الآخرين ووضعت الأقانيم الثلاثة فى مكان واحد .

ونظراً لعدم استعدادى لإساءة استعمال كلمة أقانيم سأطلق عليهم الكائن الأول ، الكائن الثانى ، الكائن الثالث ، لأنى لا أجد أى مسمى لهم فى الكتب المقدسة .

ولو اعترفت بناء على ذلك بهذه الأقانيم وسميتها أقانيم فهذا معناه الاعتراف بجمع الكائنات وجمع الموجودات وجمع الأرواح وجمع المواد ولو أخذت كلمة الله بهذا المعنى فهذا معناه أنك تجمع آلهة» .

ويستمر : «ولو حدث ذلك فلماذا يلام التريتوريون (دعاة الثالوث الوثنيون) الذين يؤمنون بوجود ثلاثة آلهة لأنهم يؤمنون بثلاثة آلهة أو

إله ذى ثلاثة أقانيم ، وهذه الآلهة فى نظرهم تكون إلهاً مادياً مركباً منهم وبالرغم من عدم استخدام الكلمة ثلاثة وهم يعنون إلهاً واحداً فهم يستخدمون كلمة تعنى أنهم معاً وأن الله مكون من ثلاثة كائنات ولذلك يسمونهم دعاة الثالوث الوثنيين ونحن عندنا ثلاثة أقانيم لله . ونحن بدون الله نصبح كفاراً ولأننا نحاول أن نفكرفى الله فقد تصورنا ثلاثة أشباح بحيث لا يبقى فى تصورنا أى شيء عن الوحدانية .

أى كائن يستطيع أن يبقى بدون الله إلا الكائن غير القادر على التفكير فى الله عندما يعن لتصورنا نوع من الاضطراب المشكل المتصور فى صورة ثلاثة كائنات والتى عن طريقها نفترض أننا نفكر فى الله .

وهؤلاء الذين يحلمون بمثل هذه الأشياء يبدو أنهم يعيشون فى عالم آخر ولا يعرفون شيئاً عن هذا الكلام الساذج فى أن الكتاب المقدس يتكلم عن الروح القدس» .

ويضيف «كم تم تزييف مبدأ التثليث هذا لكى يصبح أضحوكة المسلمين الذين يعرفون الله وليعترف اليهود أيضاً بهذا التصور الذى هو من خلقنا ويستهزئون بحماقتنا فى إيماننا بمذهب التثليث وبسبب تجديفهم على الله فهم لا يؤمنون أن هذا هو مسيا المذكور فى توراتهم وليسوا هم فقط بل المسلمون العبرانيون وبسبب ذلك ستسخر منا الحيوانات فهى لا تفهم فكرتنا هذه الغريبة لأن كل عباد الله يعبدون إلهاً واحداً .

وأضيف هذا المرض الزعاف إلينا بل وفرض علينا كآلهة جديدة أتت لم يعبدها آباؤنا . وهذا المرض الفلسفى أدخله إلينا اليونانيون لأنهم مستغرقون لأعينهم فى الفلسفة ونحن كتابعين لهم أصبحنا فلاسفة وهم وثنيون لا يفهمون نصوص الكتب المقدسة التى اجتهدوا فى تأصيلها إلى هذا الاعتقاد» .

وهنا بدأ سيرفيتس يركز على ما يؤمن به فى اعتقاده بطبيعة المسيح

«سيتضايق البعض لكونى أسمى المسيح نبياً لأنهم لن يجرؤوا على أن يطلقوا هذا الوصف عليه ويصفون من يفعل ذلك بأنهم يهود أو مسلمون بصرف النظر عن حقيقة أن الكتب المقدسة والكتاب والقدماء يسمونه نبياً» .

وكان ميكل سيرفيتس واحداً من أشهر نقاد الكنيسة القائمة فى ذلك الوقت وقد جلب عليه ذلك الموت حرقاً من الكاثوليك بمساعدة البروتستانت ، وكان يجمع فى ذاته أعظم الصفات فى العصور الوسطى وحركة الإصلاح الدينى وكان يوشك أن يكون نموذجاً لعصره فهو رجل عالمى يملك معرفة استشرافية ونابغة ، فقد كان ضليعاً فى الطب والجغرافيا والعلم بالكتاب واللاهوت وكان لتنوع علمه قدرة على نظرته الشاملة لمن هو أقل منه فى العلم وكان تراشقه مع كالفن من أهم الحوادث فى حياته وكان هذا الخلاف شخصياً ثم امتد لأكثر من ذلك ، فقد كان رافضاً للإصلاح الدينى الذى يهتم بالشكليات وليس مضمون الكنيسة الفاضلة وكلفه ذلك حياته ، ولكن بالرغم من موته فإن إيمانه بوحدانية الله لا يزال قائماً فكثير من الناس أصبح ينظر إليه على أنه مؤسس التوحيد فى المسيحية الحديثة .

وليس كل من شارك سيرفيتس فى اعتقاده لقى نفس مصيره كما يظهر من الرسالة التالية لأحد المعاصرين له وهو آدم نيزر ، وكانت موجهة إلى قائد المسلمين فى القسطنطينية الإمبراطور سليم الثانى وهذه الرسالة موجودة فى آثار البلاتينيت فى أرشيف هيدليبيرج وهى كالتالى :

«أنا آدم نيزر مسيحى مولود فى ألمانيا ووصل إلى مرتبة واعظ إلى شعب هيدليبيرج وهى مدينة يوجد بها نسبة تعليم مرتفعة فى أيامنا هذه ، أطلب اللجوء إلى جلالتكم بخضوعى الكامل وأناشدكم بحب الله وحب نبيكم عليه الصلاة والسلام أن تقبلونى فى رعاياكم وشعبكم

الذى يؤمن بالله وأنا أؤمن بكامل إرادتى أن مـذهبكم ودينكم نقى وواضح ومقبول من الله ولقد اقتنعت بكامل إرادتى أن خروجى من زمرة المسيحيين الوثنيين سيشجع عدداً من ذوى النفوذ على اعتناق ديانتكم لأن كثيراً من ذوى النفوذ والعلم يشاركوننى فى نفس مشاعرى كما أخبر جلالتكم وبالنسبة لى فأنا واحد من هؤلاء الذى يقول عنهم القرآن فى الفصل الثالث عشر . «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين» .*

ونحن نأمل من قلوبنا أننا طالما نؤمن بإله واحد وهو ما يؤمن به الأتقياء فهذا سيجعلنا نندمج فى المجتمع الإسلامى ، لأننا لماذا لا نؤمن بالله وبالذى أرسل إلينا على الحقيقة وأحب أن أعلمكم أننى واحد من هؤلاء الذين يقرأون القرآن بإعجاب وأريد أن أكون من المسلمين وإنى أشهد الله أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا تقبل الشك ، ولذلك فإنى أناشدكم بحب الله وحب نبيكم صلى الله عليه وسلم أن تقبل ذلك منى وأن تعرف كيف هدانى الله إلى الطريق القويم .

ولكن قبل كل شيء يجب أن تقتنع جلالتكم أنى لا أطلب حمايتكم كما تعود كثير من المسيحيين على فعل ذلك والذين بسبب جرائمهم وسرقاتهم ومظاهر القتل والزنا التى يرتكبونها قلما يمكن أن يعيشوا فى أمان بين رعايا دينهم ولذلك قررت أن أطلب اللجوء إليكم منذ عام مضى وكنت فى طريقى إلى بريسبرج ولكن لأنى لا أعرف اللغة المجرية لم أستطع تكملة المسير ولذلك اضطررت رغماً عن إرادتى إلى الرجوع إلى موطنى ولا أجرؤ على فعل ذلك إذا كنت هارباً بجريمة ما ولا أحد يكون قادراً على قهرى على العيش فى مجتمع مجهول عنى وأعيش

---

* سورة المائدة .

بعيداً عنه بمسافة كبيرة .

ولذلك لا أرغب فى أن تضعنى جلالتكم فى عداد المسيحيين الذين دعتهم رغبتهم فى عدم الوقوع فى الأسر والقهر إلى النطق بكلمة الإسلام والذين بمجرد أن تواتيهم الفرصة يخرجون من دين الحق .

وأناشد جلالتكم بسبب ذلك أن تهتم بما أقوله وبسبب طلبى الدخول فى الإسلام .

ونظراً لكونى قد رقيت إلى رتبة واعظ فى جامعة هيدليبرج المشهورة عن طريق إليكتور بلاتين وهو أقوى أمير بعد الإمبراطور فى ألمانيا فقد بدأت أدرس بنضج أبعاد طوائف وملل الديانة المسيحية لأنه كما يوجد مسيحيون كثيرون توجد مشاعر وآراء مختلفة وبدأت أدرس كتب مفسرى وعلماء الكتب المقدسة منذ أيام المسيح النبى ، وبدأت أركز على وصايا موسى وتعاليم الإنجيل وبدأت أدعو الله بتضرع وخيفة أن يهدينى إلى الطريق المستقيم لأنى قد أضل نفسى وأضل أتباعى ، وألهمنى الله بمبادئ دعوة الوحدانية وأول مبدأ أثبته بخصوص ذلك فى كتاب مؤداه أن دعوة المسيح لا تتضمن أنه إله كما يزعم بذلك كثير من المسيحيين زيفاً ولكنها تقول أنه يوجد إله واحد وليس له ابن مثيل له أو مقرون معه وإنى أهدى هذا الكتاب إلى جلالتكم وإنى واثق أن أقوى المسيحيين حجة لا يستطيع أن يفنده .

وهل يلزم أن نقر لله إلهاً آخر وقد حرم موسى ذلك ولم يقله عيسى وبعد ذلك فإنى أتحصن من يوم لآخر بقدرة الله ونعمته وبفهمى أن المسيحيين لا يتبعون تعاليم المسيح ويسيئون إليه كما أساء اليهود قبل ذلك استعمال الثعبان النحاس ، ولا يوجد مذهب نقى بين مذاهب المسيحية وكلها تم تزييفها لأنهم حرفوا بالتفسيرات الخاطئة كل تعاليم موسى والإنجيل وأنا كشفت ذلك فى كتاب ألفته بنفسى وسأقدمه إلى جلالتكم وعندما أقول إن المسيحيين قد زيفوا وحرفوا وصايا موسى

والإنجيل فإنى أعنى بذلك الكلمات والمعانى فيها ، وتتفق ديانة موسى وعيسى ومحمد فى كل شىء وليست مناقضة لبعضها ، ويشهد القرآن بذلك على موسى وعيسى ولكنه يؤكد على تحريف المسيحيين لوصايا موسى والإنجيل بالتفسيرات الخاطئة ولوكانت كلمة الله قد فسرت بمعناها الصحيح لم يكن يوجد هناك فرق بين اليهود والمسيحين والأتراك ولذلك يكون ما يؤكد عليه القرآن من التحريف صحيحاً وديانة الإسلام تصحح كل التفسيرات الخاطئة للكتب المقدسة وتهدى إلى المعنى الحقيقى لكلمة الله .

وبنعمة من الله اهتديت أنه لا يوجد إله إلا الله وتأكدت أن كل طقوس وشعائر المسيحية تختلف عن المسيحية الأولى ، وتأكدت أكثر أننى الرجل الوحيد فى العالم الذى يحمل هذا الرأى .

ولم أر القرآن لأنه يوجد اهتمام بيننا كمسيحيين بنشر تقارير مشينة ومخزية عن كل شىء يخص ديانة محمد لكى نجعل من يؤمن به من الفقراء ينتابه الهلع ولايستطيع الإنصات إلى القرآن .

ومع ذلك فقد وقع هذاالكتاب فى يدى بفضل العناية الإلهية وإنى أشكر الله على ذلك والله يعلم أننى فى صلاتى أدعو الله لك يا صاحب الجلالة ولمن يؤيدك ، ولقد بذلت كل ما فى وسعى لكى أبعد تأثيرات هذه العقيدة المنحرفة على مسامعى وفى حالة عدم قبول الذين أعظهم لديانة الإسلام فإنى أتخلى عن مسئوليتى فى الكنيسة وأتقاعد .

ولقد بدأت أنازع كل الكنائس والمدارس الدينية فى بعض مبادئ مذاهبها ونجحت فى ذلك ، ولقد عرفت تلك الأمور فى كل ولايات الإمبراطورية وانضم لى بعض الرجال المتعلمين ولقد عزلنى مجلس الكنيسة خشية غزو الإمبراطور ماكسميلينان لبلادهم» .

وسقط هذا الخطاب فى يد الإمبراطور ماكسميلينان فقبض على نيزر مع صديقيه وهما سيلفان وماتياس ووضعوا فى السجن .

وفى الخامس عشر من يوليو ١٥٧٠ هرب نيزر ولكن قبض عليه ثانية ولكنه هرب مرة ثانية وقبض عليه مرة ثالثة واستمرت محاكمتهم لمدة سنتين وقررت المحكمة قطع رقبة سيلفان وعند صدور الحكم هرب نيزر واستطاع الوصول للقسطنطينية لكى يعتنق الإسلام .

فرانسيس ديفيد (١٥١٠-١٥٧٩)

ولد فرانسيس ديفيد فى كولوزار ترانسيلفانيا عام ١٥١٠وكان طالباً ذكياً حصل على شهادة علمية فى ويتيبرج حيث تدرب على الكهانة الكاثوليكية لمدة أربعة أعوام وعند عودته لكولوزار عين عميداً للمدرسة الكاثوليكية . واعتنق عندئذ الديانة البروتستانتية وترك المدرسة الكاثوليكية وفى عام ١٥٥٥ أصبح عميداً لمدرسة لوثيران وعندما حدث الانشقاق فى حركة الإصلاح الدينى بين لوثر وكالفن انضم ديفيد لمعسكر كالفن وكانت حركة الإصلاح الدينى لا تزال فى أولها ، وفى هذا المناخ لم تكن روح البحث كلية ممنوعة فسمح بالجدال فى كل جانب من جوانب المسيحية ولم تكن الكنيسة الإصلاحية تتبع مذهباً محدداً وكان هناك مجال للتفكير الحر .

وفى هذا الموقف كان بالإمكان الدفاع عن حرية اعتقاد الفرد التى سيحاسب فيها أمام الله وكانت العقيدتان اللتان سببتا كثيراً من الاضطراب فى عقول العامة من الناس ، واللتان تحدتا التفسير المنطقى عقيدة ألوهية المسيح وعقيدة التثليث .

وكاد عقل ديفيد يضطرب بسبب هذه المبادئ العقيدية التى لايمكن تفسيرها ولم يستطع أن يفسر لماذا كل من يؤمن بهذه الأسرار بدون محاولة فهمها كان يعتبر مسيحياً تقياً فهو نفسه ليس مستعداً أن يتبع العقيدة بصورة عمياء وتدريجياً توصل ديفيد إلى نتيجة مؤداها أن المسيح ليس إلهاً وآمن بوحدانية الله .

وهذا المعتقد كان له أتباع أقوياء فى بولندا وكان زعماء هذه

المجموعة رجلين .. بلاندراتا طبيب القصر ورجل يدعى سوسيانس وبينما كان ديفيد يكون مبادئ عقيدته مرض الملك يوحنا ملك ترانسيلفانيا ، وطلب من بلاندراتا أن يعالجه وقابل ديفيد بلاندراتا أثناء إقامته هناك وهذه المقابلة عززت إيمانه بأن الله الواحد هو المبدأ الرئيسى للمسيحية .

وفى عام ١٥٦٦ أصدر ديفيد عقيدة تظهر موقف عقيدة التثليث فى ضوء ما رواه الكتاب المقدس وفى هذه العقيدة تبرأ من المفهوم الدينى للآب والابن والروح القدس .

وأصدر بلاندراتا من جانبه ورقة كون فيها سبعة مواقف تفند هذه المذاهب سواء بالرفض أو بالإيجاب وفى نفس العام بناء على توصية بلاندراتا عين الملك يوحنا ديفيد كواعظ للقصر ولذلك أصبح ديفيد المتحدث الرسمى لحزب التوحيد فى المناظرات المحلية التى دعا إليها الملك لتوضيح بعض القضايا الدينية فى ذلك الوقت وكان حجة فى كلامه ويقول عنه أحد معاصريه .. «كان يتكلم كأنما يملك العهد القديم والجديد بين طرفى لسانه» .

وكانت المناظرات الكبرى التى جرت أثناء حكم يوحنا تقع فى جوالافيهرفات عام ١٥٦٦ و ١٥٦٨ وفى ناجيفاراد عام ١٥٦٩ .

وكانت أول مناظرة غير منتهية وكان الملك مسروراً من جدال بلاندراتا وديفيد ولذلك أصدر فى عام ١٥٦٧ مرسوماً بالتسامح فى الجدال وفيه .. «يجب على الواعظ أن يعظ فى كل مكان وأن يفسر الإنجيل طبقاً لتصوره إذا كان الجمع يستحب ذلك أما إذا كانوا لايستحبون ذلك فلا يفرض عليهم ذلك بالقوة .

وعلى أى إنسان يؤيد أى واعظ أن يؤيده وغير مسموح لأى شخص بإساءة معاملة أى واعظ أو مضايقته أو معاقبته أو وضعه فى السجن بسبب تعاليمه لأن العقيدة هى هبة الله» .

وانعقد ثانى مجلس عام ١٥٦٧ لمناقشة عما إذا كانت مذاهب التثليث وألوهية المسيح توجد في الكتاب المقدس أم لا ؟

أما ديفيد الذى كان متكلماً قديراً ومقنعاً فلم يستطع خصومه أن يجادلوه وعندما أدركوا أنهم قد خسروا الجولة اضطروا إلى إساءة استعمال الكلمات لإقناع الملك بوجهة نظرهم ولكنها أقنعت الملك بوجهة نظر ديفيد واستمرت المناظرة لمدة ١٠ أيام .

وكشفت هذه المناظرة أن الوحدانية عقيدة شعبية وأن ديفيد هو بطلها وفى تلك الفترة هربت مؤلفات مايكل سيرفيتس التى تم التخلص من معظمها إلى ترانسلفانيا وترجمت إلى اللغة المحلية وقرأها معظم الناس وساهمت فى تعزيز مكانة حركة التوحيد في شرق أوربا .

أما المجلس الثالث الذى انعقد فى المجر عام ١٥٦٩ فكان القاضى فيها مؤرخاً مجريًا وكانت هى المناظرة القاطعة التى أثبتت الانتصار النهائى لحركة الوحدانية .

وكان يترأس هذا المجلس الملك بنفسه وكان يحضره أعلى المراتب من ضباط المملكة المدنيين والعسكريين .

وكان ديفيد يجادل كالتالى :

«إن مذهب التثليث الذى يعتنقه البابا فى روما يتضمن الإيمان بأربعة أو خمسة آلهة . . . إله مادى والله وثلاثة أقانيم منفصلة يقال لكل منها الله ورجل واحد ينظر إليه كإله» وطبقاً لقول فرانسيس ديفيد الله واحد ومنه وبه خلق كل شيء وهو فوق كل شيء وهو الذى خلق من خلال حكمته وقدرته ، ولا يوجد إله آخر إلا الله لا ثلاثة ولا أربعة ولا إله مادى ولا إقنيم ؛ لأنه لا يوجد فى الكتاب المقدس أى ذكر عن أقانيم ثلاثة أما ما قالته الكنيسة عن ابن الله الذى ولد من نور الله منذ بداية الخليقة فلا أثر له فى الكتاب المقدس ولاهناك ذكر لابن الله الذى يكون الإقنيم الثانى من الثلاثة والذى ينزل من السماء ويصبح آدمياً

فهذا من اختراع البشر والخرافات مما يستدعى عدم النظر إليه .

فالمسيح لم يخلق نفسه ولكن الله وهب له وجوده عن طريق نفخ الروح القدس فى مريم وأعطاه القداسة وأرسله إلى الدنيا والعلاقة بين المسيح والله هى علاقة الواهب بالموهوب أما الله فهو فى ملكوته القدسى الأعلى فوق كل شيء آخر ، وليس هناك زمن عند الله وكل شيء حاضر أمامه وليس هناك ذكر فى الكتاب المقدس لرواية خلق المسيح منذ بدء الخليقة .

واستمر الجدال لمدة خمسة أيام ثم انتهى ، وفى خطبته الأخيرة أمر الملك بمنح الموحدين حرية الاعتقاد كاملة وقدر الملك ميلياس زعيم حزب اللوثيران ألا يلعب دور البابا وألا يحرق الكتب التى تخالفه وألا يستخدم القوة لإجبار الناس على الاعتقاد بمذهبه .

وأنهى ديفيد الجدال بعد ذلك حول هذا الموضوع بهذه الكلمات «لقد تتبعت طريق الكتاب المقدس ولكن خصومى يريدون إخفاء الحقيقة ولذلك فإنهم قد خلطوا النور بالظلام ، عندما قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، ولذلك فديانتهم مناقضة لما تحمله لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يشرحوها كاملة ومع ذلك فإن الحقيقة ستظهر بإذن الله» .

وكانت نتيجة هذه المناظرة أن مدينة كولوزار بكل ما فيها آمنت بإله واحد وانتشرت هذه العقيدة إلى الريف وأصبحت عقيدة معظم الناس هناك ، وأصبحت الوحدانية واحدة من الديانات الرسمية التى يحميها القانون .

وفى عام ١٥٧١ اجتمع أكثر من خمسمائة شخص من الموحدين فى ترانسيلفانيا .

ومات الملك يوحنا فى هذه السنة وبالرغم من ازدياد شعبية الموحدين لم يكن خليفة الملك ستيفن متسامحاً مثله ونقض سياسة حرية الاعتقاد التى اتبعها سلفه ولذلك أصبحت الحياة صعبة أمام الموحدين هناك وزاد

الأمر سوءاً أن ديفيد تشاجرمع كل من بلاندراتا وسوسيانس فقد كان ديفيد موحداً مستقيماً ولا يقبل أى شىء أن يشرك مع الله حتى ولو بطريقة غير مباشرة .

أما سوسيانس فقد ميز بين عبادة المسيح والدعاء له فيمكن للمرء على حد قوله أن يعبد المسيح ولكن لا يمكن أن يدعوه ولم يتسامح ديفيد فى ذلك حتى ولو اعتبره الموحدون البولنديون فرقاً بسيطاً وتدريجياً ، أصبح هذا الفارق غير واضح فى العبادات اليومية وتفكير الناس حتى إنك كنت ترى الشخص أثناء العبادة فلا تدرك أنه يدعو المسيح أو يعبده .

وحظى الروم الكاثوليك بتأييد الملك الجديد وأمدهم الانقسام بين زعماء حركة الوحدانية بقوة إضافية .

وفى أحد المجالس فى توردا عام ١٥٧١ قدمت شكوى عامة أن بعض القساوسة متهمون بقول البدع . وتكررت هذه الشكاوى فى مجالس عام ١٥٧٣ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٨ ، وكانت هذه الشكاوى شخصية ثم أصبحت كيدية ضد فرنسيس ديفيد .

وأصبح بلاندراتا فى نفس الوقت على علاقة طيبة مع الملك وأغرته شهرة وثروة الملك ولذلك عارض ديفيد جهاراً عام ١٥٧٨ ونصحه ألا يتبع هذه العقيدة بعد ذلك ولم يكن ديفيد مستعداً للتخلى عن معتقداته لكى ينقذ حياته وكان بلاندراتا بعد كفاحه الطويل لتثبيت أركان الوحدانية قد أصبح عجوزاً ومنغلقاً ويريد أن يريح نفسه ولا يجلب المتاعب لنفسه أو أصدقائه وكان أتباع ديفيد يعلمون أن ما يفعله ديفيد يعتبر خطيراً وأن الأمور ممكن أن تكون يسيرة بالنسبة لهم لو اتبعوا قومهم فى معتقداتهم ، ولكن ديفيد ثبت على رأيه ولم يستمر فى عمله كواعظ فقط بل بدأ يكتب ويوزع وريقات تتضمن معتقداته بالرغم من تلك المعارضة الشديدة .

ودعا بلاندراتا سوسيانس إلى ترانسيلفانيا لكى يقنع ديفيد بتغيير

معتقداته وأن يقبل الفصل بين عبادة ودعوة المسيح وقدم سوسيانس واستضافه ديفيد ولكنه فشل فى إقناع ديفيد بذلك ولكن تم الاتفاق بينهما على أن يقوم ديفيد بتلخيص معتقداته وكتابتها على أن يتم تقديمها إلى مجلس الكنيسة البولندية الموحدة وفعل ديفيد ذلك ملخصاً الأربع قضايا الآتية .

١- إن الله شدد على ألا يُدعى أحد إلا هو خالق السماء والأرض .

٢- أما المسيح المعلم فقد علمنا ألايُدعى أو يتضرع إلى أحد خلاف الله .

٣- يقدم الدعاء الحقيقى كما هومعروف إلى الله فى الحقيقة وفى الروح .

٤- لا يتوجه بالصلاة فى أشكالها البسيطة إلى المسيح ولكن إلى الله .

واعترض سوسيانس على معتقداته ولكن ديفيد دافع عنها باستماتة وامتدت المناقشات بينهما وأصبحت حادة وشخصية ، وكان نتيجة ذلك أن أصبح بلاندراتا وديفيد أعداء وكان هذا مبرراً قوياً للملك الكاثوليكى فأصدر أوامره بتحديد إقامة ديفيد فى منزله وألا يسمح لأحد بأن يراه . واكتشف ديفيد هذا المرسوم قبل أن ينفذ فبدأ يعظ فى مناطق متباعدة بقدر الإمكان وفى الكنائس فى الميدان العام ويوضح للناس سبب توعده بالقبض عليه وكان يقول : «مهما سيحاول هذا العالم أن يفعل فسيبقى واضحاً أمامه أن الله واحد» .

وبعد القبض عليه تم استجوابه أمام مجلس دينى وكان بلاندراتا يقوم بدور ممثل الادعاء الرئيسى والشاهد الرئيسى على الادعاء وكان التيار شديداً ضد ديفيد لدرجة أنه سقط مريضاً وحُمل على كرسى لأنه لم يستطع أن يحرك ساقيه ويديه ، وحكم عليه بالسجن المؤبد ووضع فى زنزانة قلعة مبنية على سطح تل عال ولا يعلم أحد مقدار معاناته

خلال فترة الخمسة شهور التى قضاها هناك ومات فى نوفمبر عام ١٥٧٩ ودفن مع المجرمين فى مقبرة مجهولة .

وبعد وفاته عثر على قصيدة شعر مكتوبة على جدار زنزانته وفى جزء منها يقول الشاعر :

لقد خدمت بلدى بإخلاص لمدة عشرين عاماً وأثبت للأمير مدى ولائى وإنى أسالكم : بأية جريمة تدينني بلدى ؟ والإجابة واحدة : إله واحد وليس ثلاثة يستحق العبادة . أما آخر أبيات القصيدة فتقول :

لا البرق ولا الصليب ولا سيف الباب ولا الوجه المرئى للموت ولا أية قوة يمكن أن تعيق تقدم الحقيقة فما شعرت به قد كتبته وبقلب مخلص وصفته وبعد وفاتى ستزول ظلالات الشك .

وبالرغم من وفاة ديفيد فقد استمرت حركته الدينية ولعدة أعوام وكان يشار إلى موحدى ترانسليفانيا كأتباع لديانة فرانسيس ديفيد .

واليوم اعترف بجداله كجدال واضح ومستقيم وصريح ومن الكتاب المقدس وكانت آراء عقلاء المدينة لصالحه أما بلاندراتا الذى لعب دوراً كبيراً فى وفاة ديفيد فقد أصبح ذائع الصيت بين الملك والكاثوليك وزادت ثروته وأصبح غنياً جداً لدرجة أن وريثه لم يستطع أن يصبر على وفاته فقتله وبالرغم من استمرار عملية اضطهاد الموحدين فإنها لم تحقق النتائج المرجوه منها وأصبح ديفيد قديساً شهيداً وكانت قدوته للموحدين تعطيهم الأمل فى النجاح بعد قرون من الاضطهاد المنظم وأدى ذلك إلى تناقص عدد الموحدين فى ترانسيلفانيا بصورة كبيرة وبدأ عددهم يتزايد فى جنوب المجر وكانت تحت الحكم العثمانى لأن الحكام المسلمين كان القرآن يدعوهم إلى السماح لأهل الذمة والكتاب بالعيش فى سلام بشرط ألا يتدخلوا فى الشئون الإسلامية .

وهكذا تمتع المسيحيون فى العصر العثمانى بحرية لم يسبق لها مثيل فى أى بلد مسيحى وسمح لهم بتطبيق شرائعهم الخاصة بهم .

وقد استفاد بهذه الحرية قس كالفينتى حيث أمر بإعدام أحد الموحدين المسيحيين بتهمة الهرطقة وهى تعنى الكفر بالمنظور الإسلامى ، وقام أحد الموحدين المسيحيين بإبلاغ الحاكم العثمانى عنه فى مدينة بودا فأمر بإحضار القس أمامه وبعد النظر فى أمره حكم عليه وعلى مساعديه الاثنين بالموت كقتلة فتوسط له أحد رجال الدين الموحدين لتخفيف الحكم قائلاً إنه لم يقصد قتله بغرض الانتقام ولابد من منع هذه الحوادث من أن تقع مرة ثانية ولذلك لم يعدم المتهمون ولكن فرضت عليهم غرامة ثقيلة بدلاً من ذلك .

وتمتع المسيحيون الموحدون بالسلام تحت الحكم العثمانى لمدة قرن من الزمان وتمكنوا من بناء ٦٠ كنيسة ولكن مع ضعف الحكم العثمانى قلت هذه الحرية الدينية إلى حد ما وفرض عليهم أن يتبعوا المذهب الرومانى الكاثوليكى مرة ثانية وما كان جزاء الذين رفضوا ذلك إلا وقوع الاضطهاد عليهم بعنف .

وفى نهاية القرن الثامن عشرلم يكن مسموحاً باضطهاد الناس علانية بسبب معتقداتهم وابتدأ عدد الموحدين المسيحيين فى التزايد مرة ثانية ولا زالت حركة الموحدين باقية فى أوربا الشرقية حتى اليوم وتأثير ديفيد لازال يأخذ بالقلوب .

ولنحاول أن نتأمل اتصالات ديفيد بالمسلمين فقد كانت معتقداته قريبة من الإسلام وفى إحدى كتاباته يشير إلى القرآن لتأييد معتقداته وفيها يقول :

«إن القرآن كان يقصد أن يقول أن المسيح لن يعاون الذين يعبدوه لأنهم يريدون أن يجعلوه يناقض الرسالة التى أرسله الله بها ولذلك يستحق اللوم من يقول بعبادته والتضرع إلى المسيح فهو نفسه علمنا أن

الله هو الذى يتضرع إليه والله ليس ثلاثة بل واحد» .

وبالرغم من العقبات التى واجهت ديفيد فلم يسمه أحد مسلماً لأن كلاً من الكالفينتيين والكاثوليك خافوا إن سموه بذلك أن يجعل ذلك الحكام العثمانيين يتعاطفون مع الموحدين ويعزى التجاهل التام الذى أبداه الحكام العثمانيون لحركة الموحدين الذين كانت معتقداتهم قريبة إلى الإسلام إلى ضعف إيمانهم .

وكان أحد أوجه النقد لديفيد وحركته أنه إذا اعترف بمعتقداته فسيذوب الفرق بين المسيحية واليهودية وستعود المسيحية إلى اليهودية وستعود المسيحية إلى اليهودية فحتى بلاندراتا وبخ ديفيد علانية قائلاً إنه يعود بنا إلى اليهودية ولم يحاول أن يفند أى من معتقدات ديفيد ولكن حاول أن يكره المسيحيين فيه باللعب على نغمة العاطفة الشعبية ضد اليهود ولكنه نسى أن كل نبى جديد إنما يكمل وينشر تعاليم النبى الذى سبقه ، وتكمن أهمية فرانسيس ديفيد فى أنه بإيمانه بالوحدانية قد وضع المسيح فى مكانته كنبى بدون إنكار أى نبى جاء قبله أوبعده والأمر الثانى أنه ذكر الناس بأن العقيدة الصحيحة فى الإيمان بالله مع الحياة طبقاً لتعاليم المسيح كأسوة وهذا يكفى لهذه الحياة والحياة الآخرة .

ليليو فرانسيسكوا ماريا سوزينى (١٥٢٥-١٥٦٢)

ولد ليليو عام ١٥٢٥ وكان مشرعاً دفعته دراساته القانونية إلى عمل عدة بحوث عن اللغة العبرية والكتاب المقدس وعندما كبر ترك بولندا وانتقل ليعيش فى منطقة حول مدينة فنيسيا حيث كانت الحرية الدينية متاحة هناك بصورة أكثر من أى مكان آخر فى إيطاليا ، وكانت كتابات سيرفيتس لها صدى هناك ويعتنقها كثير من الناس ومن بين الذين كانوا يؤمنون بما كان يؤمن به يكتب والس فى سيرته «ضد أتباع مذهب التثليث» : كان يوجد عدد كبير من الشخصيات البارزة

والفاعلة فى المدينة . لأن هذه المعتقدات لم يكن يتسامح فيها مجلس الشيوخ الرومانى جهاراً ولذلك كان من يؤمنون بها يلتقون سراً وكان هدفهم دراسة حقيقة المسيحية وإعادة تعاليم المسيح بنقائها .

ويقول لوبينيتسكى فى كتابه تاريخ حركة الإصلاح الدينى فى بولندا :

«توصل هؤلاء إلى حقيقة أنه لا إله إلا الله وأن المسيح رجل وبشر فى الحقيقة وأنه ولد عن طريق نفخ الروح القدس فى رحم العذراء وأن مذهب التثليث وألوهية المسيح من محض اختلاف الفلاسفة الوثنيين» .

وقابل ليليو هؤلاء الناس ويكتب والس فى ذلك : «وبمجرد أن التقى بهم آمن بهذه العقيدة واعتنقها بكل حماس واخلاص شاب مصمم على اتباع العقيدة الصحيحة ، وتأثر بشاب يدعى كاميلوكان من أتباع المذهب الروحى فى المسيحية وقد فتح له هذا آفاقاً جديدة وكان عقله لا يزال حتى ذلك الوقت متأثراً بالعقائد المتصلة بالكنيسة القائمة وشعر بحرية جديدة لم يتعودها من قبل وأن حياته اكتسبت معنى جديداً ولذلك قرر أن يخصص جهده للبحث عن الحقيقة وكان عدد أعضاء جمعية فينيسيا السرية يتعدى الأربعين ، وعندما تم اكتشاف هذه الجمعية قبض على بعض أعضائها وأعدم البعض الآخر بينما نجح القليل من أعضاء الجمعية فى الهرب والبحث عن ملجأ فى البلاد الأخرى وكان من بين أعضاء الجمعية المعروفين خلاف ليليو سوزينى أوشينس وداريوس سوزينى ابن عم ليليو وأليسياتى وبوكاليس وتوجد رواية قوية تفيد أن أليسياتى وبوكاليس قد اعتنقا الإسلام .

ولقد سمى دكتور هوايت فى محاضرات برومبتون أصحاب سوزينى بأتباع النبى العربى وبينما كان وجود هذه الجمعية لا يزال سراً كانت أنظار ليليو سوزينى تتجه إلى رجلين من خارج الجمعية الأول سيرفيتس والثانى كالفن .

وقد كان عند سيرفيتس الشجاعة لكي يعلن أمام الملأ إيمانه بوحدانية الله بينما أراد كالفن أن يكون قوة مؤثرة في أوساط حركة الإصلاح الديني الأوربية .

وقرر سوزيني أن يرى كالفن أولاً وعندما قابله خاب أمله ، فقد وجده جافاً كأي قس رومي كاثوليكي وتحول هذا الشعور إلى التشاؤم عندما وجد أن كالفن نفسه قد ساعد في القبض على سيرفيتس ، ومنذ ذلك الحين اعتبر سوزيني سيرفيتس قدوة له وكاميلو كزعيم روحي في دراساته الموسعة عن المذاهب المعترف بها للكنيسة القائمة .

وفي عام ١٥٥٩ سافر سوزيني إلى زيورخ وقضى آخر ثلاثة أعوام من حياته في التأمل والدراسة العميقة وتوفي عام ١٥٦٢ وكان عمره سبعة وثلاثين عاماً .

فوستوباولو سوزيني (١٥٣٩-١٦٠٤)

كان فوستوباولو سوزيني ابن أخي ليليو سوزيني وولد في عام ١٥٣٩ وورثه عمه كل ما اكتسبه خلال حياته القصيرة والمفيدة .

وعندما بلغ الثانية والثلاثين أصبح فوستو سوزيني أو سوسيانس وهو الاسم الذي كان يدعوه به الناس وريثاً ليس فقط لميراث ليليو ولكن لهدي كاميلو وعلم سيرفيتس وكان يتمثل ذلك في العدد الكبير من المخطوطات والمذكرات التفسيرية التي تركها عنه .

ولقد تلقى سوسيانس تعليمه الأول في فيينا حيث ولد وعندما كبر زار ليون وجنيف وعاد إلى إيطاليا عام ١٥٦٥ وذهب إلى فلورنسا ودخل في خدمة البارونة إيزابيلا دي ميديس فأعطته المكانة الرفيعة وبعد وفاتها ترك إيطاليا واستقر في بازل وهنا جذب ذلك العالم الشاب أنظار كل من كان يهتم بعلم اللاهوت وقام بنشر كتاب للاطلاع الخاص باسم مستعار لأنه كان من الخطر بمكان أن يختلف كتاب مع تعاليم الكنيسة .

ووصل كتابه إلى يد بلاندراتا الذى كان طبيب القصر فى بولندا وفى تلك المرحلة كان عند بلاندراتا الشجاعة والرؤية والقدرة والأمل فى تحرير عقول الناس من الستار الحديدى الذى بنته الكنيسة حولهم .

وكان لتسامح حكام بولندا الدينى أثره فى جعل هذا البلد مكاناً مثالياً لمن كان يريد أن يتناقش فى ديانته بحرية ولمن لا يريد أن يتبع عقيدة الكنيسة المتبلدة ودعا بلاندراتا سوسيانس إلى زيارة بولندا واستجاب سوسيانس إلى الدعوة برضا وفى هذا الجو الحر والمثالى كان سوسيانس حراً فى أن يكتب باسمه بدون خوف من اضطهاد وتزوج هو من امرأة بولندية وقطع جميع علاقاته مع وطنه الأم إيطاليا .

وكان حكام بولندا لا يؤمنون بعقيدة التثليث ولكنهم كانوا يتخبطون فى الظلام ولم يكونوا على وعى باتباع العقيدة الصحيحة وكان وجود سوسيانس يسد هذا الفراغ ويرضى الحكام والشعب بعامة .

وكان العلم الذى ورثه له عمه مع ثمرات دراسته الخاصة يتفاعلان معاً فى ذاكرته وكانت كتاباته لها تأثير قوى على الكنائس القائمة وأمرت الكنيسة بالقبض عليه وحكم عليه بالحرق حياً ولكن التأييد الشعبى له كان قوياً لدرجة أن القصر قرر تخفيفه إلى رميه فى ماء بارد لكى يعطى لهذا الحكم وزناً خاصاً ولم يكن حكم الحرق حياً أو الرمى فى الماء البارد - وقد كانت الكنيسة تسميه حكم الله - من تعاليم المسيح أو حتى بولس وفى حكم الرمى فى الماء البارد يرمى المتهم فى المياه العميقة وإذا غرق يكون مداناً . ورماه أحد رجال الدين فى البحر وكان يعرف أنه لا يجيد السباحة ولكن تم إنقاذه من الغرق وعاش حتى مات عام ١٦٠٤ .

وفى عام ١٦٠٥ جمعت كتاباته كلها فى كتاب ونشرت فى روكو وكانت تعرف بالكتابات الجذابة الراكوفية ، وكانت مكتوبة فى الأصل باللغة البولندية ثم ترجمت إلى معظم لغات أوربا وفى الوقت الذى

انتشرت فيه تعاليمه في كل مكان وعرفت مدرسة اللاهوت التي أسسها بالسوسيانية يضعها هارناك في كتابه «نبذة عن تاريخ العقائد مع المذهب الرومي الكاثوليكي والبروتستانتي» على قدم المساواة في المرحلة الأخيرة من العقائد المسيحية ، وبفضل سوسيانس أصبح الموحدون المسيحيون كياناً منفصلاً في داخل المسيحية الحديثة .

ويرى هارناك أن السوسيانية لها هذه الخصائص وأن لها الجرأة في تبسيط الأسئلة التي تختص بحقيقة ومضمون الدين وتبسيط عبء المسؤلية الدينية الماضية ، وأنها قطعت الرباط بين المسيحية والعلم والمسيحية والأفلاطونية .

وأنها ساعدت في نشر فكرة أن رد الحقيقة الدينية يجب أن يكون واضحاً ومن الممكن اتباعه إذا أريد له أن يكون قوياً وفعالاً .

وأنها حررت دراسة الكتب المقدسة من تأثير العقائد القديمة والتي ليس لها أثر فيها ، وقد قيل إن جهل الرجل العامي هو ثروة رجل الدين. وقد أسهمت تعاليم سوسيانس إسهاماً كبيراً في ذلك وانتشرت ديانة سوسيانس في أوربا ومنها إلى إنجلترا فقد روى أن الأسقف هولمن نرويش كان يحذر من أن عقول المسيحيين قد تم تضليلها عن طريق بدعة سوسيانس والتي يتبعها أتباع مذهب التوحيدوالآريوسيون الجدد لدرجة أن زوال المسيحية قد أصبح يخشى منه .

وفي عام ١٦٣٨ بدأ اضطهاد عنيف ومنظم لأتباع سوسيانس وقد بدأ بكليتهم في روكو التي تم قمعها وحرم أتباع سوسيانس من كل حقوقهم وحرق عدد كبير ممن اتبع مذهب الوحدانية أحياء ، وكمثال لذلك في عام ١٦٣٩ حرقت كاترين فوجال وهي زوجة جواهرجي من بولندا حية وهي في سن الثمانين وكانت كل جريرتها أنها آمنت بأن الله واحد وأنه خالق عالم الغيب والشهادة ، وأن الله لا يمكن أن يتصوره العقل البشري وهذه هي بالطبع مبادئ الإيمان في الإسلام

ويروى فولر أن حرق الهراطقة قد أرعب عامة الناس بسبب بشاعة العقوبة . وأدى هذا بهم إلى استيعاب مبادئهم وآرائهم الطيبة التى ضحوا من أجلها بدمائهم ولذلك يقول والس : «إن جيمس الأول بدأت رغبته فى الحرق بحرق كتبهم» .

وفى عام ١٦٥٨ كان على الناس خياران ؛ إما اعتناق المذهب الرومى الكاثوليكى أو النفى . وتشتت الموحدون فى جميع أنحاء أوربا بتعاليمهم واستمروا يكونون كياناً مستقلاً لفترة طويلة وفى كتابه الكتابات الجذابة الراكوفية ركز على أصل الديانة المسيحية وأنكر عقيدة الكفارة ، وبالرغم من جهله بحقيقة أن المسيح لم يصلب ولم يبعث وأن هذه العقيدة ليس لها أساس فى المسيحية فإنه أثبت سخف هذا الاعتقاد بوسائل أخرى وباختصار تقول عقيدة الكفارة أن الإنسان ولد مذنباً بسبب خطيئة آدم الأولى وأن المسيح بصلبه المزعوم قد كفر عن كل هذه الخطايا سواء خطيئة آدم أو خطايا الذين يتبعون المسيحية ، وطبقاً لعقيدة المسيحية الأرثوذكسية تعتبر الكنيسة مجمعًا للصحبة الدينية وجمعية مقدسة أسسها المسيح خلال قيامه بالتكفير عن بنى البشر ومن خلال قداسها يمكن للناس أن يجدوا المغفرة من الرب وبناء على ذلك تصبح الكنيسة أكثر أهمية وصولة من المؤمن الفرد وأنكر سوسيانس كل ذلك وكان على يقين أن الإنسان يمكن له أن يتصل بالله مباشرة بدون أى وسيط للحصول على الخلاص وليس التعميد ، وأن المنطق السليم مطلوب فى ذلك وليس من الضرورة اتباع الكنيسة بصورة عمياء .

وبإنكار سوسيانس لعقيدة الكفارة جعل كل سلطة الكنيسة وكيانها محل جدل ولهذا السبب تضافرت جهود الكاثوليك والبروتستانت للقضاء على السوسيانية بحماس شديد ونقد سوسيانس عقيدة الكفارة على الأسس التالية :

لا يمكن للمسيح أن يضحى إلى مالا نهاية من أجل ذنب لأن المسيح طبقاً لرواية الإنجيل قد عانى فقط لفترة قصيرة والمعاناة الشديدة لمدة محدودة لا تقارن بالمعاناة الدائمة التى يتعرض لها الإنسان وإذا قيل إن المعاناة تكون عظيمة بمقدار عظمة من يعانيها ولذلك تصبح لا نهائية وتصبح القدرة على تحملها كبيرة ، ولكن حتى معاناة الإنسان المحدود لا يمكن أن تكون أبدية ومن المعلوم أن المسيح إذا كان قد قدم كفارة كبيرة يكون من المستحيل أن نتكلم عن السماحة أو العفو الإلهى أو امتنان الإنسان لله لعفوه عن الذنوب لأن الرجل الذى يعمد باسم المسيح يحصل على الكفارة بصورة تلقائية على ذنوبه لله قبل أن يعاقبه الله عليها . ولكى نتبع هذه العقيدة فهذا معناه أن عقوبة خطاياهم من الممكن التكفير عنها كلية وبناء على ذلك يكون من حق كل إنسان أن يفعل ما يريد لأن تضحية المسيح كانت كاملة وكبيرة وكانت تكفر عن الكل وبالتالى ينتج عن ذلك الخلاص الدنيوى ، وهذا معناه بأسلوب آخر أن الله ليس له الحق فى إضافة أية شروط أخرى على ما يريده من الإنسان لأن الثمن قد دفع كاملاً سواء فى الماضى أو الحاضرأو المستقبل ولذلك يكون كل المدانين أحراراً وكذلك دعنا نفترض أن عدداً من الرجال كانوا يدينون بدين كبير إلى دائن وسدده أحد الناس عنهم كاملاً فهل يحق للدائن أن يطالب بأموال أكثر أو يفرض شروطاً أكثر وهم لم يعودوا مدينين له .

وشدد سوسيانس فى جداله على مذهب التكفير بصورة غير مباشرة وذلك بتأكيده أن المسيح ليس الله ولكنه بشرى من البشر لأنه غير معقول أن يكفر إنسان عن كل ذنوب الجنس البشرى ، وهذه الحقيقة واضحة بدرجة تجعلها تجرف أمامها هذه العقيدة الأسطورية وهى عقيدة التكفير وأضاف سوسيانس أن المسيح فى الحقيقة رجل فان مثل بقية البشر وأنه مولود من عذراء ، وكان يبتعد عن الآخرين بسبب مهمته

المقدسة وهو ليس الله ولكنه كان يتلقى الوحى من الله ولقد منحه الله صورة مقدسة وقدرة مقدسة ولكنه لم يخلقها ولقد أرسله الله بقدرته العظيمة فى رسالة إلى الجنس البشرى ، وكان سوسيانس يعضد معتقداته هذه باستشهادات كاملة وتفسير يقينى من الأسفار المشهورة للكتب المقدسة وكان جداله القوى والواثق يوضح أصل كلمة المسيح .

فالمسيح فى الحقيقة ليس كلمة الله فى صورة بشر بل كان رجلاً يحقق الانتصار على الرذيلة فى حياته فى صورة إنسان وهو لم يكن مخلوقاً قبل خلق الدنيا ومن المسموح به طلب عون المسيح فى الدعاء طالما أنه لن يعبد كإله .

وأكد سوسيانس أن الله هو رب الكل وصفة القدرة على كل شىء ليست هى صفته الوحيدة ولكنها تهيمن على الصفات الأخرى وليس هناك جدال فى الله .

ولا يمكن للإنسان المحدود أن يقارن بالله الذى لا تحده حدود ولذلك تعتبر الأسس التى تستند عليها المفاهيم البشرية لطبيعة الله قاصرة ولا يمكن أن تمس نزاهته فالإرادة الإلهية حرة ولا يقيدها قانون يمكن أن يتصوره أى إنسان فإرادته ونيته خفية عن العقل البشرى ، فقوة الله تتضمن الحق والقدرة الكاملة على أن يفعل ما يشاء سواء بالنسبة إلينا أو بالنسبة إلى الأشياء الأخرى .

وهو القادر على قراءة أفكارنا حتى لو كانت خافية فى أعماق قلوبنا ويحدد القوانين ويقرر الثواب والعقاب على حسنات وزلات النوايا البشرية ولذلك فقد أعطى للإنسان حرية الاختيار ولكن الإنسان فى حقيقته ضعيف وبما أنه لا يوجد إلا إله واحد يسيطر على كل شىء لذلك يكون من غير المنطقى أن نتكلم عن ثلاثة أقانيم لأن الله واحد ولا يمكن له أن يضم ثلاثة أقانيم لأننا لو طبقنا هذا الأسلوب لعددنا ثلاثة آلهة منفردة وطالما أن الله واحد فإن ذاته واحدة . وفند سوسيانس

عقيدة التثليث بقوله أنه مستحيل على المسيح أن يكون له طبيعتان منفصلتان ، وأضاف أن أى مادتين تحملان خواص مختلفة لا يمكن لهما أن يتحدا وهذه الخواص أو الصفات هى الفناء والخلود أو أن يكون لهما بداية أو لا أو أن تتغيرا أو لا . ولا يمكن لطبيعتين منفصلتين تكون كل منها كياناً منفصلاً أن تتحدا فى شخص واحد ولكن بدلاً من ذلك المسيح الذى نعرفه نخلق شخصين ويصبحان مسيحيين الأول بشرى والثانى إلهى وتقول الكنيسة إن المسيح يتكون من طبيعتين بشرية وإلهية كرجل بجسد وروح وفى هذه الحالة يختلف ذلك اختلافاً كبيراً عن الإيمان بأن الطبيعتين فى المسيح تتحدان لدرجة أن المسيح يتكون من البشر والإله وفى الإنسان يختلط الجسد بالروح لدرجة أن الإنسان ليس روحاً ولا جسداً لأنه لا الروح ولا الجسد يكونان كياناً منفصلاً بينما الذات الإلهية تكون كياناً مستقلاً ولذلك فمن الضرورى أن البشرية فى المسيح تكون كياناً منفصلاً .

وأكثر من ذلك فنحن نناقض الكتب المقدسة أن نقول إن المسيح له طبيعة إلهية أولاً لأن الله خلق المسيح ، وثانياً لأن الكتب المقدسة تقول إن المسيح كان بشراً ، وثالثاً مهما كانت المرتبة التى يرقى إليها المسيح فى الكتب المقدسة فهى هبة من الله ، ورابعاً لأن الكتب المقدسة تشير بوضوح إلى أن المسيح كان يعزو كل المعجزات التى كان يقوم بها إلى الله وليس إلى نفسه أو إلى أية طبيعة إلهية من صنعه والمسيح نفسه كان يسير بحسب إرادة الله .

وقد وجدت هذه المستخرجات من كتاب الكتابات الجذابة الراكوفية فى كتاب ريلاند «تأملات نقدية وتاريخية فى السوسيانية والإسلام» وفيها يقول :

«إن آراء هؤلاء الذين يصفون المسيح بصفة الألوهية لا تتناقض فقط مع المنطق السليم ولكن مع الكتب المقدسة أيضاً ، ويقع فى خطأ كبير

من يؤمن بأن الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم فى إله واحد لأن الله جوهره واحد ولذلك فمن التناقض الواضح أن نخلق إلهاً من أنفسنا إذا كانت هى ثلاثة كيانات منفصلة ، وأقل منطق يمكن أن يتفوه به أعداؤنا هو إثباتهم أن الأب والابن كلام سخيف وغير مترابط وحتى زمن مجمع نيقيا أو بعده بقليل كما يظهر من كتابات الذين عاشوا هذه الفترة كانت كلمة الآب تشير إلى إله واحد حقيقى أما الذين كانوا يختلفون فى ذلك مثل السابليين ومن على شاكلتهم فكانوا يعتبرون هراطقة ولم تخطئ الكنيسة خطأً أشنع من هذه العقيدة التى تقول بأن الله له ثلاثة أقانيم منفصلة كل منها يعتبر إلهاً وأن الأب ليس الإله الحقيقى ولكن يقرن معه الابن والروح القدس ، وهكذا ليس هناك شىء أكثر سخافة وبشاعة واستحالة للمنطق السليم من ذلك .

ويؤمن المسيحيون أيضاً بأن المسيح قد مات لكى يوفر لنا الخلاص ولكى يسدد الديون التى علقت بنا من جراء ذنوبنا وهذا القول زائف وخطأ وضار» .

ويضيف سوسيانس أن أحد أسباب اعتناق مذهب التثليث هو تأثير الفلسفة الوثنية ، وهذا العرض من كتاب تولاند (النصارى) يبين لنا ذلك :

«يقول السوسيانيون والموحدون الآخرون بيقين أن الأميين من غير اليهود أضافوا للمسيحية بعض عقائد وثنيتهم الأولى وتأليه الموتى ، وهكذا احتفظت المسيحية باسمها ولكنها تحولت إلى شىء آخر مختلف تماماً وكان لابد من تغييرها لكى تطابق كل الآراء والعادات الموجودة فى أى مكان عند العامة من الناس منذ ذلك الوقت حتى الآن» .

«ولقد حققت كتابات سوسيانس انتشاراً واسعاً ليس لأنها أوضحت للناس حقيقة المسيح وما هو الغرض من رسالته فقط ولكنها أيضاً ساعدت فى تقليص نفوذ الكنيسة على الناس وكانت عظمة سوسيانس

تنبثق من حقيقة أنه أوضح أن الله واحد بصورة منطقية مبنية على الكتاب المقدس وكان من الصعب على خصومه طمس كتاباته وفي عام ١٦٨٠ وجد القس جورج أشويل أن كتب سوسيانس قد أصبحت أكثر شيوعاً بين تلاميذه فقرر أن يكتب كتاباً عن الديانة السوسيانية وكان رأيه في سوسيانس هاماً لأنه يأتي من قلم خصم له وفيه يقول :

«لقد أصبح عظيماً جداً مؤلف ومنشئ هذه العقيدة التي تتجمع فيها كل الصفات التي تجذب وتأخذ بلب وأنظار الناس لدرجة أنه سحر بنوع من الفتنة كل من خاطبه وترك فيهم أثراً قوياً مصحوباً بالإعجاب والحب .

وكانت عبقريته وحسن تصرفه من مظاهر سموه ، ويضاف إلى ذلك علو منطقة وشدة فصاحته والفضائل التي وضحها للناس والتي كان يتحلى بها بصورة غير عادية ، وكانت مواهبه الطبيعية عظيمة وحياته أسوة يقتدى بها لدرجة أنه جذب إعجاب وحب الناس» .

وبعد هذا القول استنتج أشويل أن سوسيانس هو «فخ الشيطان العظيم» أما اليوم فكثير من المسيحيين لا يشاركون القس أشويل آراءه ومشاعره المناقضة لسوسيانس بل يوجد شعور سائد بالتعاطف معه والوقوف ضد الطريقة العنيفة التي قُمع بها ويوجد رد فعل واضح ضد مذهب التثليث ، وكثير من مفكرى المسيحية يؤمنون بمعتقدات سوسيانس وينكرون ألوهية المسيح بما تتضمنه من أشياء .

جون بيدل (١٦١٥-١٦٦٢)

كان جون بيدل منشئ مذهب الوحدانية في إنجلترا ، ولد عام ١٦١٥ وكان تلميذاً نابهاً وكان يوصف بالرجل الذى فاق معلميه وأصبح معلماً لنفسه .

ودخل جامعة أكسفورد عام ١٦٣٤ وحصل على شهادة إل بيه إيه عام ١٦٣٨ وشهادة إل إم إيه عام ١٦٤١ وبعد تخرجه عين معلماً فى

مدرسة إستى ميردى دو كريبت فى جلوسيستر وفى تلك المرحلة بدأ يبحث فى معتقداته الدينية وبدأ يشك فى صحة مذهب التثليث وكان متأثراً بأفكار الموحدين الأوربيين لأن تعاليم سوسيانس كانت قد أخذت طريقها إلى إنجلترا عن طريق الترجمة اللاتينية لكتاب الكتابات الجذابة الراكوفية والتى أرسلت مهداة إلى الملك جيمس وتم حرقها أمام الناس عام ١٦١٤ وبالرغم من حرق الكتاب فقد جذبت محتوياته اهتمام الناس ، ولذلك اتخذت عدة خطوات للتشكيك فيه ولقد صرح جون أون الذى عينه كرمويل رئيس مجلس الدولة لتنفيذ تعاليم سوسيانس بقوله :

«لاتنظروا إلى هذه الأشياء كأشياء بعيدة عنكم ولا تجذب اهتمامكم فالشيطان يربض لكم على الباب فلا توجد مدينة ولا مقاطعة ولا قرية فى إنجلترا لم يُصب فيها هذا السم» .

وقوبلت هذه المحاولات لتأييد العقائد المعترف بها من الكنيسة بمعارضة شديدة فقد أدان وليام تشيلينجو يرث (١٦٠٢-١٦٤٤) تكفير العقائد الذى يؤدى إلى الاضطهاد والحرق ولعن تابعيها لعدم مشاركتهم الناس إيمانهم بكلمة الله .

وأكد جيرمى تيلور وميلتون : «إن اتباع المنطق الإيمانى لا يجعل الإنسان من الهراطقة ولكن الهرطقة هى الارتداد عن الدين» .

وزاد الجدل وحمى وطيسه واتخذت السلطات فى إنجلترا بعض الإجراءات لحماية الإيمان بمذهب التثليث .

ففى يونيو عام ١٦٤٠ قرر مجلس كانترى ويورك منع استيراد وطباعة وإعارة كتب سوسيانس وأبلغ القساوسة بألا يذكروا مذهب سوسيانس وأخطر الناس بأن كل من يؤمن بهذا المذهب سيعزل وقد عارض عدد من المفكرين و الكتاب هذا القرار ولكن بلا تأثير .

وفى هذا المناخ من إعادة تقييم المسيحية وبحثها من جديد تعرضت

معتقدات بيدل لبعض التغيير خصوصاً من ناحية الإيمان بمذهب التثليث فتكلم بحرية عن الموحدين ولذلك طلب منه مجلس القضاة اعترافاً جديداً مكتوباً منه بالمسيحية عام ١٦٤٤ وفعل ذلك كاتباً بلغة بسيطة : «إننى أؤمن بوجود إله قدير يسمى الله ولذلك يوجد إله واحد» وقام بنشر كتيب فى هذا الوقت عنوانه «اثنتا عشرة مناظرة تفيد عدم ألوهية الروح القدس» وكان موجهاً إلى القارئ المسيحى وفى عام ١٦٤٥ اكتشفت هذه المخطوطة ووضع فى السجن ، واستدعى للمثول أمام البرلمان ولكنه كان ما يزال يرفض الاعتراف بألوهية الروح القدس وأعاد طبع الكتيب عام ١٦٤٧ وفى السادس من سبتمبر من نفس العام أمر البرلمان بإحراق الكتيب الذى ألفه وتم تنفيذ ذلك وفى الثانى من مايو عام ١٦٤٨ صدر قرار عنيف بأن أى شخص ينكر مذهب التثليث أو ألوهية المسيح أو الروح القدس سيُعدم بدون أية شفاعة .

وها هو ذا ملخص للاثنتى عشرة مناظرة التى سببت هذه القرارات العنيفة .

١- كل من يميز عن الله فليس الله والروح القدس مميز عن الله لذلك فالروح القدس ليس الله.

وأفاض بيدل أكثر فى شرح هذا القياس المنطقى بهذه الكلمات :

إن المقدمة المنطقية الكبرى تكون أكثر وضوحاً عندما نقول إن الروح القدس هو الله وهو مميز عن الله إذاً فهناك تناقض والمقدمة المنطقية الأقل التى تقول إن الروح القدس مميز عن الله وهى التى يؤكدها الكتاب المقدس أما القول بأن الروح القدس مميز عن الله لو أخذناه بصورة إقنيمية فهو ضد كل أنواع المنطق أولاً لأنه مستحيل على أى إنسان أن يميز الإقنيم من ذات الله وليس أن نضع إقنيمين وينتج عن ذلك أن هناك إلهين أما إذا ميزنا الإقنيم من ذات الله فسيكون الله مستقلاً بذاته .

وهنا إما أن يكون متناهياً أو غير متناه فإن كان متناهياً فإن الكنيسة تقول إن كل شيء في الله هو الله وفي ذلك يكون استنتاجنا سخيفاً أما إذا كان غير متناه فسيكون هناك إقنيمان غير متناهيين وفي هذه الحالة تكون مجادلتنا هذه أكثر سخافة من سابقتها .

وعندما نتحدث عن الله بدون أن نتكلم عن ذات الله فسيكون حديثنا هذا سخيفاً حيث يقول جميع الناس أن اسم الله هو اسم إلهنا الذي يسيطر على الكون كله .

لا شيء غير الله يتحكم في الكون .

٢- فهو ياهوا الإله الأوحد الذي نجى بني إسرائيل بالروح القدس فيكون الروح القدس عندئذ ليس ياهوا أوالله .

٣- والذي لا يتكلم عن نفسه فليس هو الله والروح القدس لايتكلم عن نفسه إذاً فهو ليس الله .

٤- والذي يوحى إليه بالتعاليم ليس الله .

والذي يسمع من الآخر ما سوف يتكلم به فهو يُعلَّم والمسيح يتكلم بما أوحى الله به إليه ولذلك فهو ليس الله .

وهنا يقتبس بيدل الفقرة ٨-٢٦ من إنجيل يوحنا حيث يقول المسيح : «وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم» .

٥- وفي إنجيل يوحنا ١٦-١٤ يقول المسيح :

«الله الذي يهب كل الأشياء إلى كل الناس» .

والذي يتلقى من الآخر ليس الله .

٦- والذي يرسله آخر ليس الله والروح القدس أرسله الله فالروح القدس ليس الله .

٧- والذي لا يهب كل الأشياء ليس الله والذي يكون هبة من الله ليس هو واهب كل شيء والذي يهبه الله هو نفسه يكون هبة إلهية تكون تحت تصرف الواهب ومن السخف أن نتصور أن الله غير ذلك .

وهنا يقتبس بيدل فقرة من سفر أعمال الرسل ١٧-٢٥ «الإله الذى خلق العالم وكل ما فيه هذا إذاً هو رب السماء والأرض» .

٨- فالذى يغير الأماكن ليس الله والروح القدس يغير الأماكن ولذلك فالروح القدس ليس الله .

وأوضح بيدل أكثر هذا القياس المنطقى :

إذا كان الله يغير الأماكن فعندئذ سيتوقف حيث يكون ويبدأ فى السير حيث لم يكن وهذا مناقض لقدرته وعظمته الإلهية ، ولذلك فليس الله هو الذى جاء إلى المسيح ولكنه كان ملاكاً فى صورة إنسان يتكلم باسم الله .

٩- والذى يدعو المسيح ليحكم بين الناس ليس الله والروح القدس يفعل ذلك ، لذلك فليس هو الله .

١٠- وفى رسالته إلى أهل رومية ١٠-١٤ يقول : «فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به وكيف يؤمنون بمن لم يسمعوا به وكيف يسمعون بلا كارز وكيف يكرزون إن لم يرسلوا» فالذى لا يؤمن به ليس الله .

١١- والذى يسمع من الله كالمسيح ما سوف يوحى به إليه فإن معرفته منفصله عن الله ، والذى يسمع من الله ما سوف يقوله فهو موحى إليه منه وكذلك يفعل الروح القدس ، إذا فإنه ليس الله .

١٢- والذى له إرادة منفصلة عن الله ليس الله والروح القدس له ذلك إذاً فإنه ليس الله .

ويقتبس بيدل رسالة بولس إلى أهل رومية ٨-٢٦-٢٧ وفيها «وكذلك الروح أيضاً يعين ضعفاءنا لأننا لسنا نعلم ما نصلى لأجله كما ينبغى ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنات لا ينطق بها ولكن الذى يفحص القلوب يعلم ماهو اهتمام الروح لأنه بحسب مشيئة الله يشفع فى القديسين» .

وجادل بيدل فى أحد أصحاحات العهد الجديد التى اقتبستها

الكنيسة لتأييد وجهة نظرها عن التثليث ففي إنجيل يوحنا ٥-٧ يوجد الآتى :

«يوجد ثلاثة يسجلون فى السماء الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة إله واحد» . فقال بيدل إن هذه الآية تناقض الحس العام والآيات الأخرى فى الكتاب المقدس فهى قد حققت وحدة الفكر وليس الجوهر وأكثر من ذلك هذه الآية لا تظهر فى النسخ اليونانية القديمة ، من الإنجيل ولا فى الترجمات السريانية ولا فى الطبعات اللاتينية القديمة ولذلك فهذه الآية محرفة ولم يعترف بها مفسرو الإنجيل القدامى والمعاصرون وبالرغم من صدور قانون عام ١٦٤٨ فقد نشر بيدل مبحثين آخرين كادا أن يتسببا فى إعدامه لولا مساعدة بعض أعضاء البرلمان المستقلين وأحد هذين المبحثين يسمى «شهادة تؤثر فى مذهب التثليث طبقاً للكتاب المقدس» وكان يتكون من ست مقالات وكل مقالة توضحها اقتباسات من الكتاب المقدس مع المناقشات التى تؤيدها .

وتكلم بيدل بجرأة فى مقدمة هذا الكتاب عن الشرور التى تنتج من الإيمان بمذهب التثليث وأضاف أن الحجج التى يقدمها أتباع هذا المذهب تصلح للسحرة منها للمسيحيين ويقول فيه : «إنى أؤمن أنه يوجد إله واحد خالق السماء والأرض وهو سبب كل شيء وبالتالى هو المقصود بإيماننا وعبادتنا وأؤمن بالمسيح كأخ لنا يشعر بنقائصنا ولذلك فهو يساعدنا وهوبشر مثلنا خاضع لله وهو ليس إلهاً آخر ولا يوجد إلهان أما الروح القدس فهو ملاك بسبب قربه ومحبته إلى الله فهو مكلف بتوصيل رسالاته» .

أما العمل الآخر الذى نشره بيدل فى ذلك الوقت فيسمى «شهادات إيرانيس وجستين بخصوص الوحدانية وأقانيم التثليث» .

وبعد فترة طويلة فى السجن خرج بكفالة وأطلق سراحه أما القاضى

الذى أصدر ذلك فقد بقى اسمه سراً خوفاً على حياته .

ولم يتمتع بيدل بحريته مدة طويلة حتى ألقى فى السجن مرة أخرى ومات القاضى الذى أطلق سراحه بعد ذلك بفترة قصيرة تاركاً لبيدل ميراثاً صغيراً سرعان ما تآكلت قيمته بسبب تكاليف السجن .

وتم إنقاص الطعام المقدم لبيدل فترة فكان يتناول قدراً صغير من اللبن فى الصباح وفى المساء وقوى موقفه عندما استفاد به أحد الناشرين الإنجليز كقارئ لبروفة الطبعة الجديدة من الترجمة اليونانية للإنجيل .

وفى ١٦ فبراير عام ١٦٥٢ ألغى قانون أو بليفيان وأطلق سراح بيدل وطبعت ترجمة إنجليزية لكتاب «الكتابات الجذابة الراكوفية» فى أمستردام خلال نفس العام وأصبح هذا الكتاب معروفاً فى إنجلترا وطبع بيدل كتاباً عن حركة الموحدين عام ١٦٥٤ فى أمستردام أصبح بعد ذلك واسع الانتشار فى إنجلترا .

وخلال تلك الفترة التى كانت السماحة الدينية فيها فى أوجها بدأ بيدل يتقابل مع الموحدين الآخرين كل يوم أحد لعبادة الله بطريقتهم والذين حضروا تلك المقابلات كانوا لا يؤمنون بفكرة الخطيئة الأصلية وعقيدة التكفير وفى الثالث عشر من ديسمبر عام ١٦٥٤ قبض على بيدل مرة ثانية بعد أن نشر كتابين عن حركة التوحيد وألقى فى السجن ومنع عنه استخدام القلم والحبر والورق ولم يسمح له بالزيارة وصدر أمر بحرق كتبه واستأنف الحكم فأطلق سراحه فى الثامن والعشرين من مايوعام ١٦٥٥ ولم يمر وقت طويل حتى تشاجر بيدل مع السلطات ورشقها بكلامه ، فقد حدثت مناظرة عامة فى ذلك الوقت بدأ أحد المتكلمين فيها الحديث بسؤال الحاضرين عما إذا كان هناك أحد ينكر ألوهية المسيح فرد بيدل وكان حاضراً بسرعة وبثقة «أنا أنكرها» وعندما أيد أقواله بحجج لم يستطع خصومه أن يفندوها صدر قرار بوقف المناظرة واستئنافها فى يوم آخر . وأبلغ عن بيدل قبل الميعاد

المحدد لاستئناف المناظرة فقبض عليه وأودع السجن ومنع عنه تكليف محامٍ بالدفاع عنه فقد كانت السلطات فى ذلك الوقت تشك فى وجود قانون يدينه ، وكان أصدقاؤه قد قاموا بكتابة عريضة وإرسالها إلى كرومويل مباشرة ولكنها غُيرت قبل أن تصل إليه وبدلت محتوياتها بحيث ينكرها من كتبوها أما كرومويل الذى كان فى ذلك الوقت فى قمة الذكاء فقد وجد طريقة للخروج من هذا الموقف الصعب بنفى بيدل إلى جزيرة سيشل فى الخامس من أكتوبر عام ١٦٥٥ وكان على بيدل أن يبقى مسجوناً فى قلعة إستى ميرى لبقية حياته ، وكانت تقدم له عطية عبارة عن مائة كراون فى السنة وخلال مده سجنه هناك كتب بيدل هذه الأبيات :

«اجتمع المجلس الدينى وجلس القاضى وجلس رجل على عرش الله وحكم القاضى بحكم يتعلق به لوحده وجعلوا من إيمانى به كأخ لنا جريمة وسحقوا الفكر الراقى الصحيح» .

وكلما ازداد معاناة كلما أصبح أكثر اقتناعاً بأخطاء الديانة المسيحية القائمة والتى تؤيدها الكنيسة ، وكان توماس فيرمين الذى ساعد بيدل فى الماضى مستمراً فى مساعدته بتقديم المال له فى السجن وقد أدى هذا إلى جعل حياته فيه أكثر يسراً وفى نفس الوقت زاد تعاطف الناس معه وكلما عانى بيدل أكثر كلما كانت عقيدته تصبح أكثر شيوعاً .

وطلبت الحكومة من دكتور جون أون أن يبطل من تأثير تعاليم بيدل على الناس وبعد أن قام بعمل إحصائية أثبتت أن عدداً كبيراً من الإنجليز يعتنقون مذهب الوحدانية قام بنشر رد على بيدل عام ١٦٥٨ ، وقد أدت الإجراءات التى اتخذها كرومويل إلى مساعدة بيدل فقد كان معه بعض النقود وكان هو فى السجن بعيداً عن متناول أعدائه وكان يقضى وقته فى التأمل والخشوع وبقى بيدل سجيناً فى قلعة إستى ميرى حتى عام ١٦٥٨ فأطلق سراحه بسبب الضغط الشعبى المتزايد وبمجرد أن

خرج من السجن بدأ يعقد مؤتمرات عامة يبحث فيها الكتب المقدسة لكي يظهر وحدانية الله وزيف معتقد التثليث وتطورت هذه المؤتمرات إلى الاعتقاد بمذهب ثابت يوحد الله ولم يحدث هذا فى إنجلترا من قبل وفى الأول من يونيو عام ١٦٦٢ قبض على بيدل مع بعض أصدقائه فى أحد هذه الاجتماعات ، وأودعوا السجن ورفض الإفراج عنهم بكفالة ولم تكن هناك عقوبة محددة تستلزم عقابهم ولذلك حوكموا بمقتضى القانون العام وغرم بيدل بدفع مبلغ مائة جنيه إسترلينى ولم يتم الإفراج عنه حتى يدفع هذا المبلغ أما أتباعه فغرم كل منهم مبلغ ٢٠ جنيه وعومل بيدل معاملة سيئة فى السجن ووضع فى الحبس الانفرادى وكان هواء السجن ملوثاً مما أدى إلى إصابته بمرض نتج عنه وفاته فى أقل من خمسة أسابيع ومات فى ٢٢ ديسمبر ١٦٦٢ .

وأدت وفاة بيدل وتأثر أتباعه بقانون توحيد المعتقد الدينى الذى صدر فى نفس عام وفاته إلى اندثار مذهب التوحيد الذى كان ينادى به وصدر قانون ٢٢٥٧ الذى قضى بطرد القساوسة الذين ينادون بالوحدانية ، ولا يعرف مصير هؤلاء ولكن من المعلوم أن ثمانية آلاف شخص قد ماتوا فى السجن لرفضهم اعتناق مذهب التثليث فى ذلك العصر فى إنجلترا .

ولقد فضل مؤلف مذكرات بيدل التى كتبت بعد وفاته بعشرين عاماً أن يجعل اسمه مستعاراً حتى لا ينكشف أمره .

ومع ذلك فقد استمرت الوحدانية كمدرسة فكرية وتزايد عدد أتباعها وكان استخدام القوة لجذب الناس لعقيدة الكنيسة قد ساعد فى ضم كثير من الناس لمعتقدات سوسيانس وبيدل .

وأكد كثير من مفكرى هذا العصر العظام مثل ميلتون وإسحاق نيوتن ولوق مبدأ وحدانية الله .

وكانت الدرجة التى ساهمت فيها السلطات فى القضاء على مذهب

الوحدانية تقاس بعدد القوانين التى تصدرها لذلك فقد أدان قانون عام ١٦٦٤ كل الذين يرفضون الذهاب إلى الكنيسة بالنفى وإذا لم يَعُدْ الشخص هذا إلى رشده يعدم شنقاً وكانت توجد فيه عقوبات لمن يحضر أى اجتماع دينى مكون من خمسة أشخاص أو أكثر لا ترخصه الكنيسة وإذا عاد هذا الشخص ، وارتكب هذه التهمة مرة ثانية ينفى إلى أمريكا وفى حالة عودته أو هروبه يعدم بدون أن يصلى عليه أحد ، أما القانون الذى صدر عام ١٦٧٣ فقد أضاف إلى العقوبات التى ضمنها قانون عام ١٦٦٤ ما يأتى :

أى شخص يرفض أن يتلقى القداس طبقاً لطقوس الكنيسة يدان بعدم السماح له بمقاضاة أى شخص أو رفع قضية أمام المحاكم ولا يسمح له بأن يكون وصياً على أى طفل أو منفذ وصية أو أن يرث أى ميراث أو أن يتلقى هدايا أو أن يتصرف أى تصرف قانونى والذى يقوم بخرق هذه الأمور يخضع لغرامة قدرها خمسمائة جنيه .

وفى عام ١٦٨٩ صدر قانون التسامح الدينى ولكن العفو لم يطبق على الذين لم يعتنقوا مذهب التثليث وأدان الموحدون ذلك ورد البرلمان على ذلك بإدانة الوحدانية كبدعة بغيضة وكانت عقوبة من يعتنقها تصل إلى الحرمان من كل حقوق الإنسان بالإضافة إلى السجن لمدة ثلاث سنوات ولكن موقف بيدل لم ينمح من قلوب الناس حتى ولو بتطبيق القانون وقد جرمت القوانين اعتناق مذهبه .

أما هؤلاء الذين شعروا أنهم غير قادرين على تحدى القانون وكانوا قد أعلنوا جهاراً معارضتهم لمذهب التثليث فقد لجأوا إلى وسائل عديدة لإراحة ضمائرهم فبعضهم قام بحذف بعض الأجزاء التى لم يستحسنوها من عقيدة أثناسيوس أو بجعل كاتب الأبرشية هو الذى يقرؤها وليس هم وقد قيل إن أحد القساوسة قد أظهر عدم احترامه لها بجعل أحد الأشخاص يغنيها كأنها أغنية شعبية والآخر قبل أن يقرأها

مرغماً طبقاً للقانون قال : يا إخواني هذه عقيدة إسيتي أثناسيوس والله منع أي شخص آخر أن يقرأها أو يعتنقها .

وعلى أية حال لم تكن عند الموحدين القدرة على إعلان عقيدتهم جهاراً أما بيدل فقد كان عالماً دينياً مجداً وكانت عقيدته نتاج دراسة عميقة للمسيحية ، وكان مقتنعاً بأنه يخدم الجنس البشرى بصورة جيدة بعدم الخوف من قول الحقيقة حتى لو كان ذلك يعنى الاضطهاد أو اللوم الشديد وكان مستعداً لمواجهة الفقر والنفى والسجن فى سبيل نصرة عقيدته ، وكان يتمنى أن يترك الناس الكنائس الفاسدة وأن يعلنوا رفضهم لأى قبول بالعقيدة الفاسدة وكان يملك شجاعة الشهيد .

ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤)

كان ميلتون يعيش فى نفس الفترة التى عاش فيها بيدل وكان يعتنق كثيراً من آرائه ولكنه لم يصرح بآرائه مثله مفضلاً أن يعيش حياته خارج السجن وفى المجلد الثانى من كتابه «كتاب الديانة الحقيقية» يقول :

«إن أتباع آريوس وسوسيانس متهمون بمخالفة عقيدة التثليث وقد أعلنوا أنهم يؤمنون بالأب والابن والروح القدس طبقاً للكتاب المقدس والعقيدة الرسولية ، وبالنسبة لعقيدة التثليث فهم يرفضون مبدأ الأقانيم الثلاثة والآلهة الثلاثة وهم يرفضون ذلك لأنها أفكار وثنية لا توجد فى الكتب المقدسة التى يراها البروتستانت كتباً بسيطة وواضحة وتعبر فى معناها عن لغة راقية ولكن هذا المذهب يمثل لغزاً فى معناه المعقد يتنافى مع بساطة العقيدة فى الكتب المقدسة» .

وفى كتاب ثان له دخل ميلتون فى الموضوع مباشرة فقال : «إن سلطة البابوات والمجالس الدينية والأساقفة والقساوسة يمكن تصنيفها بين أكثر سلطات الطغاة علواً وقبحاً وأية محاولة لفرض الأحكام الدينية والشعائر والعقائد تعتبر غزواً غير مضمون للحرية» . وقال دكتور جونسون عن ميلتون بأنه شاعر لم يحاول أن يتحدى جهاراً السلطة

المدنية في البلاد ولكنه احتج ولم يشترك في ترشيح أى من زعماء الحركة البروتستانتية على التعصب الأعمى وقسوة الكنيسة فقرر ألا يذهب إلى الكنيسة مثله مثل عدد من المفكرين العظام ولم لا نعرف ماذا لم يكن أكثر مما نعرف ماذا كان ؟ فهو لا ينتمى لكنيسة روما ولا كنيسة إنجلترا وتقدم عمره سنة بدون أية عبادة يؤديها ولم يكن من ضمن أوقات عمله وقت للصلاة وكان عمله وتأمله صلاة متكررة» .

ومن المعلوم أن دكتور جونسون لم يكن يعى بالكتاب الذى ألفه ميلتون ونشر بعد مائة وخمسين عاماً من وفاته تقريباً عام ١٨٣٣ .

ووجدت مخطوطة منه فى مكتب أوراق الدولة القديمة فى وايت وول وكان عنوانها «كتاب فى الله» وقد كتبه عندما كان سكرتيراً لكرومويل ولم يكن ميلتون ينوى نشره فى حياته .

وفى الكتاب الأول الذى صدر عنه الفصل الثانى يتكلم ميلتون فيه عن صفات الله وخصوصًا صفة الوحدانية بالرغم من أنه لا يوجد إلاالقليل الذى ينكر وجود الله لأن الجاهل قال فى قلبه إن الله لا يوجد كما هو مكتوب فى المزمور الرابع عشر من مزامير داود آية رقم واحد ولكن الله رسم على العقل البشرى آيات لا يشك فيها على قدرته وآثار قدرته واضحة كل الوضوح فى الكون كله لدرجة أن أى إنسان له مشاعر لا يمكن أن يتجاهل هذه الحقيقة ، ولاشك فى أن كل شىء فى العالم يرجع لدقة تنظيمية ويمثل دليلاً على إرادته الأكيدة التى تسيطر على الجميع وكل شىء فى هذا العالم يشهد أن هناك قوة عظيمة وقادرة كانت توجد منذ الأزل والتى أحكمت كل شىء لكى يؤدى وظيفته المحدودة ، ولا يمكن لأى إنسان أن يكون فكراً واضحاً عن الله سواء من الطبيعة أو المنطق كدليل له مستقلاً عن كلام الله أو رسالاته ولقد أرسل الله وحياً كاملاً منه على قدر عقولنا وعلى قدر ضعف طبيعتنا وتلك المعرفة بالله التى استقيناها منه كانت ضرورية لخلاص الجنس البشرى

وأوحى الله لنا الكثير برضاء عظيم منه وأسماء وصفات الله إما أن تظهر طبيعته أو قدرته الإلهية وسيادته .

ويضع ميلتون قائمة ببعض صفات الله مثل الصدق والروحانية والوسع واللامحدودية والأبدية والثبات والخلود وعدم الفساد والقدرة على كل شيء والوجود فى كل شيء والوحدانية والتى يقول عنها أنها مستنتجة من كل الصفات السابق ذكرها ويورد ميلتون بعض الاقتباسات من الكتاب المقدس :

إنك قد أريت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواه .

(سفر التثنية ٤-٣٥) .

هو الله فى السماوات وفى الأرض ولايوجد أحد سواه .

(سفر التثنية ٥-٣٩) .

ليعلم كل شعوب الأرض أن الرب هو الله وليس آخر .

(الملوك الأول ٨-٦٠) .

انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معى (التثنية ٣٢-٣٩)

وصلى حزقيا أمام الرب وقال أيها الرب إله إسرائيل الجالس فوق الكروبيم أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض .

(الملوك الثانى ١٩-١٥) .

أما أعلمتك منذ القدم وأخبرتك فأنتم شهودى هل يوجد إله غيرى .

(إشعيا ٤٤-٨) .

أنا الرب وليس آخر لا إله سواى . (إشعياً ٤٥-٥) .

أليس أنا الرب ولا إله آخر غيرى إله بار ومخلص وليس سواى .

(إشعياً ٤٥-٢١) .

التفتوا إلى وأخلصوا يا جميع أقاصى الأرض لأنى أنا الله وليس آخر . (إشعيا ٤٥-٢٢) .

ويعلق ميلتون على الآيات السابقة قائلاً : إنه لا يوجد روح

ولاشخص ولا أى كائن مساو لله وهذا هو رد الكون كله «لأنى أنا الله وليس آخر الإله وليس مثلى» (إشعيا ٤٦-٩) .

ويستطرد ميلتون قائلاً :

هل يوجد شيء أوضح أو أبسط من ذلك أو أكثر قبولاً للفهم العام وصيغ الخطابة للتأثير على عباد الله بأنه يوجد إله واحد أحد وروح واحد .

ومن المناسب للحقيقة والمنطق أن نقول إن أول وآخر أعظم وصايا أمر بها عامة الناس أن يطيعوها لابد من تبليغها بأسلوب بسيط بحيث لا تؤدى التعبيرات الغامضة أو الغير واضحة بعباد الله إلى الخطأ فى الفهم أو الوقوع فى دائرة الشك ، ولذلك فإن بنى إسرائيل بهدى أنبيائهم والتوراة فهموا هذه الوصية وهو أن الله واحد ولا يوجد إله آخر ولا قرين له . وبالنسبة لعلماء بنى إسرائيل فإنهم لم يعتمدوا على حكمتهم الخاصة أو المجادلات المتناقضة فى إنكار وحدانية الله أما بالنسبة إلى قدرة الله لا يستطيع أحد أن يجادل فى عظمتها لأنه لايمكن أن يقال شيء عن الله يتناقض مع وحدانيته ولا نستطيع فى نفس الوقت أن نعطيه صفة الوحدانية والجمع فى آن واحد .

ويقول مرقص (١٣ : ٢٩-٣٢)

«اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد فرد عليه الكاتب قائلاً يا معلم لقد قلت الحقيقة لأنه لا يوجد إلا إله واحد ولا يوجد إله سواه» .

ويستمر ميلتون فى كلامه مجادلاً فى طبيعة الروح القدس فالكتاب المقدس لا يذكر طبيعته ولا بأية وسيلة يوجد ولا كيف نشأ «من غير المنطقى على الإطلاق أن يفرض على المؤمنين أن يؤمنوا بعقيدة يقول من يدافعون عنها أن أهميتها كبيرة وأنه لابد من الإيمان بها بيقين غير مشكوك فيه أكثر وضوحاً من شهادة الكتب المقدسة ، وإن أية قضية فيها مناقضة للمنطق يجب إثبات خطئها عن طريق الجدل المشكوك فيه أوالغامض» .

ويستنتج ميلتون هذه الأمور من معرفته بالكتاب المقدس «الروح القدس ليس عالماً بكل شيء ولا موجوداً فى كل شيء ولا يجب أن يقال إنه بسبب أن الروح القدس ينفذ أوامر الله لذلك فإنه جزء من الله لأنه إذا كان ذلك صحيحاً لماذا يسمى الروح القدس المعزى الذى سيأتى بعد المسيح الذى لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به» (يوحنا ١٦:٧-١٤) وعلى ذلك يصبح واضحاً أنه بدلاً من قبول كلمة معزى بمعناها الواضح وهو النبى الذى سيأتى بعد المسيح نسميه الروح القدس ونعطيه صفه الله وينتج عن ذلك اضطراب لا ينتهى ويتفق ميلتون مع آريوس فى أن المسيح ليس خالداً ويقول إنه كان فى مقدور الله أن يخلق المسيح أولاً بخلقه ، والمسيح ولد فى حدود زمنية وإذا حاولنا أن نجد نصاً فى الكتاب المقدس يؤيد القول بخلود المسيح فلن نجد ، أما الافتراض بأن المسيح بالرغم من أنه شخص مختلف فإنه يقرن مع الله فهو افتراض غريب ومناقض للمنطق وهذه العقيدة ليست مناقضة فحسب ولكن لأدلة الكتب المقدسة . ويتفق ميلتون مع بنى إسرائيل فى أن الله واحد أحد وهذا لا يحتاج لتوضيح والله وحده قائم بذاته والكائنات ليست قائمة بذاتها فليست الله .

«ولقد حاول بعض الناس من محض اختلافهم حذف أو تغيير المعانى الواضحة لآيات الكتب المقدسة» ويستطرد ميلتون فيقول إن الروح القدس أقل من كل من المسيح والله لأن مهامه هى توصيل الرسالات من نبى لآخر ولايفعل ذلك من تلقاء نفسه ولكنه يخضع ويطيع الله فى كل الأمور التى يكلفه بها ولذلك يرسله الله ولا يتكلم هو نفسه .

وشعر ميلتون فى نفسه أنه لن يستطيع أن يعبر عن هذه الآراء جهاراً لأن هذا معناه المخاطرة بسلامته الشخصية وتعريض نفسه لنفس المصير الذى تعرض له بيدل وآخرون مثله ؛ ففى عام ١٦١١ ، وفى الزمن الذى عاش فيه ميلتون ، أصدر الملك أمراً بحرق السيد ليجات والسيد

وايتمان حيين لأنهما آمنا بإله واحد ورفضا مذهب التثليث وآمنا بأن المسيح ليس ابن الله ولا روحاً خالداً ولا عظيماً كالله وأنه بشر ومخلوق عادى وليس الله والإنسان معاً فى شخص واحد ؛ وكان سبب صمت ميلتون على ذلك مع علمه بذلك معروفاً .

جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)

معروف جون لوك بكتبه المشهورة عن العقد الاجتماعى ، وقد كان معروفاً أيضاً بإيمانه بوحدانية الله ولكنه كان يخشى من إعلان إيمانه بذلك .

وفى فترة من الفترات اضطر إلى ترك إنجلترا بسبب آرائه السياسية وبعد عودته فى ثورة سنة ١٦٨٨ وتأكده من أنه لا يهاجم سلطة الكنيسة بصورة مباشرة حتى لا يؤدى ذلك إلى ازدياد الاضطهاد له ، وكانت كتبه عن المنطق والتعليل لا تحبذها الكنيسة - كان عليه لكى ينشر كتابه الثانى أن يكتبه باسم مستعار .

ومن المعروف أنه درس تعاليم حواريى المسيح الأوائل ولم يجد أى مبرر لمذهب التثليث ، وكان صديقاً حميماً لإسحاق نيوتن وناقش هذا الأمر الذى كان موضع جدال فى ذلك الوقت معه ويقول لوكير وهو صديق حميم للوك ونيوتن إنه لم يكن هناك جدال يجرى بصورة متقنة من جانب ومن جانب آخر يتم بمثل تلك الصورة من الجهل والاضطراب وسوء التمثيل «وهناك رواية تقول إن لوك قد كان من ضمن المتفاوضين فى قانون العفو الدينى الذى صدر عام ١٦٨٩» .

إسحاق نيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧)

يلخص بوب الشاعر الإنجيلزى المشهور حياة إسحاق نيوتن المزدهرة بهذ الكلمات : «الطبيعة وقوانين الحياة تستخفى بالمساء فقال الله خلقت نيوتن فكان ضوءاً وبهاء» .

كان نيوتن يشعر أنه من غير الحكمة أن يجاهر بإيمانه .

وفى عام ١٦٩٠ أرسل إلى جون لوك عدة وريقات ضمنها ملاحظاته على تحريف نص العهد الجديد مع إشارته إلى إنجيل يوحنا (٥-٧) ورسالة بولس إلى تيموثاوس (٣-١٦) وكان يأمل فى مساعدة لوك له لترجمة هذا المخطوط إلى الفرنسية ونشره فى فرنسا لأنه شعر بخطورة نشره فى إنجلترا وهذا المخطوط يسمى «بيان تاريخى بالتحريفات البارزة للكتاب المقدس» .

وفى عام ١٦٩٢ بذلت محاولة لنشر ترجمة لاتينية له باسم مستعار وعندما سمع نيوتن بخبر نشر هذه الترجمة أخطر لوك بأن يبذل محاولة لمنع نشر هذه الترجمة لأنه شعر أن الوقت غير مهيأ لذلك ، وفى هذا الكتاب «البيان التاريخى» يقول نيوتن مشيراً إلى إنجيل يوحنا (٥-٧) .

«لم ينظر الناس فى كل جدالهم الدائم والعالمى حول مذهب التثليث سواء فى عصر جيروم أو قبله أو بعده بمدة طويلة فى هذا النص عن الثلاثة فى السماء فالناس تردده على كل لسان وفى معاملاتهم وفى كتبهم فليحاولوا أن يفهموه جيداً إن كانوا يستطيعون ، وبالنسبة لى فأنا لا أفهمه وإذا قيل إننا لا نستطيع بأحكامنا الذاتية أن نحكم على صحة الكتب المقدسة فأنا أعترف بأنى لا أفهمه فى أماكن عدة ومتفرقة وأحب أن أعبر عن فهمى الكامل ، والإنسان بطبعه له حاسة إضافة الجانب الخرافى والمتحمس له إلى الدين لأنه مغرم بالألغاز ولذلك فهو يحب أكثر ما يفهمه أقل وهؤلاء الذين حرفوا المسيحية يستخدمون الرسول يوحنا كما يروق لهم ولكننى أقر له أنه كتب الإنجيل بأسلوب ومعان واضحة وأن ما كتبه هو أحسن ما عنده» .

وطبقاً لرأى نيوتن فإن هذا النص ظهر لأول مرة فى الطبعة الثالثة للعهد الجديد بترجمة إيراسمس وقبل نشر هذه الطبعة لم يكن هذا النص الزائف موجوداً فى العهد الجديد وعندما أدخلوا مذهب التثليث

فى طبعته أصدروا تقويماً إلى جانب هذه الطبعة ويتساءل نيوتن هل يمكن لهذه المعاملات الفاسدة أن ترضى المفكرين ، ومن دواعى الخطورة فى الدين أن نجعله يعتمد على نص ضعيف محرف . وفى إشارته إلى رسالة بولس إلى أهل تيموثاوس الأولى (٣-١٦) يقول نيوتن :

«فى كل عصور الجدال الدينى الدائم مع أتباع آريوس لم يكن مفهوماً أن تقرأ أن الله يظهر فى صورة جسد وكأننا نعتبر ذلك واحداً من أوضح نصوص العبادات» وكان نيوتن يقف ضد التفسير الرمزى والمجازى للعهد القديم ولم ينظر إلى كل الكتب المقدسة ككتب معتمدة وطبقاً لرواية ويستون كتب نيوتن أيضاً كتاباً ثانياً عن نصين آخرين تعمد أثناسيوس أن يحرفهما ولكن لا يوجد أثر للتحريف اليوم .

ويختتم نيوتن كلامه بالآتى :

«إن كلمة الله تعنى التحكم فى الكائنات الأخرى الأقل منه ولذلك فكلمة الله مقاربة لكلمة الرب وكل رب ليس الله فالتحكم أو السيطرة زائفة فإن هذا الإله إله كاذب وإذا كانت هذه السيطرة فى صورة روحية تعنى الله وإذا كانت هذه السيطرة فعلية إذاً يكون الله موجوداً وإذا كانت هذه السيطرة عظيمة إذاً يكون هذا الإله عظيماً» .

توماس إملين (١٦٦٣-١٧٤١)

ولد توماس إملين فى السابع والعشرين من مايو عام ١٦٦٣ والتحق بجامعة كامبردج عام ١٦٧٨ وعندما أتم دراسته فيها عاد إلى دبلن حيث أصبح واعظاً مشهوراً وقام بإلقاء أول موعظة له عام ١٦٨٢ وتزايدت شعبيته كواعظ فى العشر سنوات التالية وفى عام ١٧٠٢ لاحظ واحد من الحاضرين فى مجلسه أنه تجنب بعض التعبيرات المشهورة الكنسية وبعض النقاط التى تؤيد مذهب التثليث .

وقد أدى هذا إلى استجوابه حول مفهومه للإيمان بعقيدة التثليث ونظراً لأن هذا الاستجواب قد تم بأسلوب غير لائق فقد وجد إملين

نفسه غير حر فى إبداء رأيه جهاراً وبدون تحفظ فاعترف بأنه يؤمن بإله واحد وأقر بأن الله وحده هو خالق الكون وأن المسيح قد استمد كل سلطته وهيبته منه وحده وطالب الجمع الذى يحضر مجلسه إذا كان يجد أن آراءه غير مستحبة فإنه مستعد للاعتزال لكى يمكنهم من أن يختاروا الواعظ الذى يروق لهم فرفض أغلب الحاضرين ذلك ، ولكن الظروف دفعته للاستقالة ونصحه بعض المقربين أن يسافر إلى إنجلترا لفترة لكى تهدأ الأمور حوله ففعل ذلك ومكث فى إنجلترا لمدة عشرة أسابيع ثم عاد إلى دبلن لكى يصطحب عائلته إلى إنجلترا مرة ثانية وقبل أن يفعل ذلك قبض عليه عام ١٧٠٣ وأدين بتهمة الهرطقة ووجد أنه مسئول عن نشر كتاب عن الوحدانية بعنوان «بحث متواضع فى قصة المسيح فى الكتاب المقدس» وكان هذا دليلاً واضحاً للادعاء على إدانته والكتاب بصفة أساسية يعتمد على نص فى إنجيل يوحنا (١٤-٢٨) والذى فيه يقول المسيح «لأن أبى أعظم منى» ويعتقد إملين من هذا النص أن المسيح كان وسيطاً بين الإنسان والله وهكذا استطاع أن يفصل المسيح عن الله بطريقة لطيفة بحيث تنمحى فكرة التثليث .

ولقد شعر خصومه بصعوبة فى عرض عريضة الاتهام ضده وأجلت المحاكمة عدة أشهر مكث فيها فى السجن وعندما بدأت المحاكمة أخبره بعض ممثلى الادعاء أنه غير مسموح له بالدفاع عن نفسه وأنه تقرر اتهامه بدون جريمة وأدين بتهمة كتابة ونشر إنجيل غير معروف ومشين يقرر فيه أن المسيح ليس الله وخُير بين سجنه لمدة عام أو دفع غرامة قدرها ١٠٠٠ جنيه ، وكان عليه أن يبقى فى السجن حتى يتم دفع الغرامة وفى الاستئناف الذى تلا ذلك الحكم تم نقله من محكمة إلى أخرى ووصفه بتهمة الهرطقة أمام الناس وهذه المعاملة المشينة كانت أرحم من وجوده فى بلاد أوربية أخرى كأسبانيا حيث كانت عقوبة هذه التهمة الحرق وبسبب الضغوط الشعبية على الحكومة تم إنقاص مبلغ

الغرامة إلى ٧٠ جنيهاً فقام بتسديدها وخرج إملين من السجن وغادر أيرلندا .

ويعلق أحد القساوسة المشهورين على المعاملة التى يلقاها الهراطقة بقوله «يكون التفكر عقوبته السجن والغرامة» .

وهكذا انضم إملين إلى القديسين البارزين الذين تجرءوا فى إنكار مذهب التثليث وتأييد عقيدة الوحدانية وفى الوحى القرآنى يكون مبدأ الوحدانية واضحاً فالله سبحانه وتعالى عظيم وليس له شريك فى الملك وليس لله سَمِىّ ولسوء الحظ ليس هذا المبدأ واضحاً فى الكتاب المقدس، ولذلك حاول إملين أن يجلى هذا الاضطراب فى الفكر فى كتابه «الله طبقاً لرأى إملين» وفيه يقرر أن الله هو العلى والكامل والواسع والذى يكون متفرداً بوحدانيته والمستغنى عن جميع خلائفه وهذا هو ما ينبغى أن نقوله عنه فى الخطب العادية والصلاة والتسبيح ونعنى بذلك الله بكل ما فى الكلمة من معان .

وأظهر إملين أنه فى الكتاب المقدس بالرغم من وجود كلمة الله فإنها تستخدم أحيانًا فى وصف من يملك سلطة وقوة مستمدة من الله .

«لقد جعلته أقل قليلاً من الآلهة» (المزامير ٨ - ٥) «القضاة آلهة» (الخروج ٢٢- ٢٨ ، المزامير ٨٢ - ١ ، يوحنا ١٠ - ٣٤ - ٣٥) .

وأحيانًا يصف شخص ما كموسى برب هارون وبرب فرعون ويسمى الشيطان أحيانًا برب الدنيا وتعنى هذه الكلمة أمير وحاكم الدنيا الذى اغتصبها بغير الحق وسمح له بذلك فى الدنيا .

ونظراً لأن الله فوق كل هؤلاء ويسع كل شىء فهو مميز عن كل هؤلاء الذين نسميهم أربابًا ولكى يوضح هذه الفكرة أكثر يقتبس إملين هذه الفقرة من فيلو الذى يصف الله بأنه ليس فقط رب الناس بل رب الأرباب وهذه هى أجل وأعظم صفة لله فى العهد القديم وكان المقصود بها ذكر عظمته ومجده .

وعندما يستخدم الكتاب المقدس المصطلح رب لكى يشير إلى الله وإلى ما هو دون الله يجدر بنا أن نحل هذا التساؤل : بأى هذين المعنيين يقال على المسيح رب فى الكتب المقدسة وهنا يستنتج إملين أن المسيح أقل من الله (انظر رسالة بولس إلى أهل كورنشية ٨-٥) ووصل إملين إلى هذه النتيجة عند توجيه هذا السؤال الحاسم إلى نفسه .

هل المسيح له رب أعلى منه وله قوة وقدرة أعظم منه أم لا وإجابة هذا السؤال تحدد مكانة المسيح بطريقة أو بأخرى فإذا كان هناك إله فوقه فلا يمكن أن يكون هو الله وكان رد إملين على ذلك بالإيجاب وقدم ثلاث حجج لإثبات هذه الإجابة : «إن المسيح يتكلم بوضوح عن إله يختلف عنه وهو يقبل أن يكون إلهه فوقه وهو يطلب الكمال من الله لأنه ينقصه الكمال الغير محدود والذى لله فقط» . وأحس إملين أن هذه النقاط الثلاث يجب توضيحها لعامة الناس وشجب ممارسات هؤلاء الذين يكتبون عن الكتب المقدسة بأسلوب غبى وغير مفهوم ويطلبون منه الإيمان بالعقيدة التى يصفونها فى كتاباتهم وقام إملين بشرح هذه النقاط الثلاث أكثر بقوله :

أولاً : إن المسيح يتكلم عن إله آخر مميز عنه فنجده يقول فى مرات كثيرة : إلهى إلهى . وكأنه يتكلم عن شىء مختلف عنه .

«إلهى إلهى لماذا تركتنى» (متى ٢٧-٤٦) (يوحنا ٢٠-١٧) وهو بالتأكيد لم يكن ينوى أن يقول : نفسى نفسى لماذا تركتنى . وهذا الإله مميز عنه حيث يصرح بذلك فى مواضع أخرى كما فى يوحنا (٨-٤٢) حيث يلاحظ أنه لا يميز نفسه عن الله كأب ولكن كإله وهكذا بكل الحجج السليمة لا يمكن أن يكون المسيح هو الله .

ثانيًا : المسيح ليس إلهاً مميزاً عنه فقط بل هو فوقه ويحبه حواريوه وهو يصرح بخضوعه الكامل إلى الأب فى مواقف عديدة وعمومًا فهو يقر بأن الأب أعظم منه ، وأنه لا يتصرف فى الأشياء بطريقته ولكن

بقوة وسلطان الله وأنه لا يبحث عن مجده الشخصى بل مجد الله وأنه يريد تثبيت حكم الله لا حكمه هو وبهذا الموقف الخاضع أرسله الله إلى الأرض ، وكان يعتمد على الله حتى فى هذه الأشياء التى يزعم المبطلون أنه فعلها بمعجزة كالله مثل إحياء الموتى أو تبليغ الأحكام الإلهية - والتى يقول فيها : بالنسبة لى لا أستطع أن أفعل أى شىء . ثم هو ينفى عن نفسه هذا الكمال اللا محدود مثل المعرفة الكاملة والإتقان التام والقدرة الخاصة به والتى يملكها فقط رب الأرباب ومن المعروف أنه إذا كانت تنقصه أية صفة من صفات الكمال هذه إذًا فهو ليس الله بنفس المعنى ، وإذا وجدناه ينفى عن نفسه صفة فهو لا يستطيع أن يقوم بالأخرى ، وسواء نفى عن نفسه صفات الكمال الإلهية أو نفى عن نفسه الألوهية فالأمر سيان .

وأراد إملين أن يوضح النقطة الأخيرة بقوله : «إن الكمال العظيم والفريد لله هو قدرة عظيمة والذى لا يستطيع أن يؤدى كل المعجزات وما يريده بنفسه فلا يمكن أن يكون الله خصوصًا إذا كان لا يستطيع أن يؤدى إلا بعون الله وهو هنا مخلوق بشرى غير كامل لأنه يحتاج إلى العون ويطلبه من ما هو خلافه وهكذا يتضح أن المسيح نفسه يعترف مرة ومرات أنه ليس لديه قدرة كاملة بنفسه : «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئًا». (يوحنا ٥-٣٠) .

وإذا كان يفعل معجزات كبيرة مثل إحياء الموتى فقد أوضح أن الناس ينبغى أن يعرفوا أن قدرته على القيام بهذه المعجزات إنما هى مستمدة من الله ففى البداية يقول :

«إن الابن لا يستطيع أن يفعل أى شىء ولكن ما يراه الأب يفعله» ويكرر هذا الكلام مرة ثانية ويقول كما لو أنه لم يقل هذا الشىء من قبل : «لا أستطيع أن أفعل هذا الأمر من نفسى» وبالتأكيد ليس هذا كلام الله بل كلام إنسان ، فالله لا يحتاج لأحد ولا يمكن تعظيم المسيح

إلى درجة الكمال المطلق لأنه لا يوجد كمال مطلق إلا فى إرادة الله ، وإذا كان الكمال يستمد فسيكون هذا تجديفًا على الله أن نضعه بين الكائنات التى تعتمد على الأخرى فكأننا ننزع منه الألوهية ، فالله سبحانه وتعالى هو مسبب كل شيء وهو منشئ كل شيء .

وبحث إملين أيضًا الجملة المنسوبة إلى المسيح فى إنجيل مرقص (١٢-٣٢) فهو يتكلم عن يوم القيامة كالآتى : «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الأب» ولاحظ إملين أنه بالنسبة لكل من يؤمن بألوهية المسيح هذه الجملة تعنى أن الله له طبيعتان أو حالتان مختلفتان من الوعى فهو من جانب فى موقف الذى يعرف ومن جانب آخر فى موقف الذى لا يعرف فى نفس الوقت فإذا كان المسيح إلهًا وكان الله يعرف ميعاد يوم القيامة لما قال هذه الجملة لأنه إذا كان لديه طبيعة إلهية فلابد أن يعرف هو أيضًا .

وكان إملين يدرك أن عددًا كبيرًا من المسيحيين قد يفهمه خطأ ولذلك دافع عن رأيه بتوضيح إيمانه بالمسيحية وبقوله إنه يعتبر المسيح المعلم الذى يجذبه والذى يحبه أكثر من أبيه وأمه وأصدقائه وقال : إنى أعرف أن المسيح لا يحب إلا الحقيقة وأن أى شخص سيدرك معنى قوله : «الأب أعظم منى» يوحنا (١٤-٢٨) وفى عرضه لهذه الجملة يقول إملين : «يصبح من الخطر أن نقول إن الله ليس أعظم من المسيح» وكان إملين عالمًا دينيًا حقًا مميزًا بعلمه ونزاهته وبالعزيمة التى احتمل بها الاضطهاد على ألا يضحى بمعتقداته فهو يمت بصلة إلى كوكبة القديسين الذين تحدوا من خالفوهم فقد تعرضوا إلى السجن والتعذيب حتى الموت ، ولكنهم لم يخضعوا لإرادة الكنيسة والدولة التى جندت الجنود من أجل معاقبتهم .

وكان كل موقف من مواقف الاضطهاد يزيد من شعبية رسالتهم التى

كانت بسيطة فى آرائها «لا يوجد ثلاثة بل إله واحد» .

وكان إملين واحداً من زعماء الحركة البروتستانتية الذين كانت لديهم الشجاعة لإعلان رأيهم فى عقيدة التثليث وعدم إيمانهم بها وكان عدد القساوسة الذين انضموا إليه واعتنقوا عقيدة آريوس والموحدين الآخرين فى بداية القرن الثامن عشر كبيراً وكانت العشر السنوات التى تلت محاكمة إملين قد حدث فيها اضطراب فى كنيسة إنجلترا نتيجة البحث فى ألوهية المسيح المفترضة واشتعلت الأحداث أكثر مع نشر كتاب صمويل كلارك «عقيدة التثليث والكتاب المقدس» عام ١٧١٢ .

وفى هذا الكتاب اقتبس صمويل ١٢٥١ نصًا من الكتب المقدسة تثبت أن الأب هو العظيم وأن المسيح والروح القدس منفصلان عنه وبعد ذلك نشر كلارك ترجمة كتاب الصلاة العامة وحذف فيه عقيدة أثناسيوس وعقائد التثليث الأخرى .

ثيوفيلس ليندسى (١٧٢٣-١٨٠٨) .

ولد عام ١٧٢٣ وكان منظم أول اجتماع لحركة الموحدين فى إنجلترا وكان يتبع تعاليم صمويل كلارك لإصلاح العبادة والتى ضمنها ترجمته قبل ذلك بستين عامًا وكان لا يلبس الرداء الكهنوتى الأبيض وقام ليندسى بأداء الصلاة فى حجرة للمزاد فى شارع إسيكس بلندن وكان ذلك فى ١٧ أبريل ١٧٧٤ ، وحضر هذه الصلاة عدد غفير من بينهم بنيامين فرانكلين وجوزيف برستلي ويروى ليندسى قصة الحدث فى خطابه لصديق له بعد ذلك بيوم «ستسر عندما تعلم أن كل شىء مر على ما يرام أمس وحضر الصلاة عدد كبير ومحترم من الناس أكثر مما كنت أتوقع وتصرفوا بمنتهى الذوق وأعلن كثير منهم رضاءه عن الصلاة ، أما مظاهر الانزعاج فقد بدت على ذوى النفوذ والشىء الوحيد الذى كان ينقص الصلاة أن المكان كان صغيراً .

ومن انطباعات الناس وجديتهم ورضائهم اقتنعت أن هذه المحاولة

ستكون ذات فائدة واحدة ؛ فالتناقض بين عبادتنا وعبادة الكنيسة يهز كل الناس وسامحنى إن قلت إننى أستحى من لبس رداء الكهنوت الأبيض فلا أحد على الأقل يريده .

ولقد سررت لأن لا شىء يقف فى طريقى وأن العبادة تمت كما يجب وهذا السرور لم يأت لى من قبل ويجب أن أشكر الله على ذلك ونستمر فى العبادة كما يحبه ويرضاه» .

وكان إنشاء حجرة الصلاة لشارع إسيكس قد ألهم الموحدين الآخرين لبناء أديرة لهم فى برمنجهام ومانشيستر والمدن الإنجليزية الأخرى ، وتبنى رجال الدين المسيحيون مبدأ الحرية الدينية ولذلك وجه ليندسى خطابًا إلى طلاب أكسفورد وكامبردج وذكرهم بهذه الحقائق :

«من الواضح والبسيط لكل من يؤمن بالكتل المقدسة أن يعترف بأن :

١ - هناك إلهًا واحدًا وذاتًا واحدة هى الذات الإلهية وهو الخالق الأوحد ورب كل الأشياء .

٢ - وأن المسيح رجل يهودى وعبد لله كرمه الله وميزه .

٣ - وأن الروح القدس ليس إقنيمًا أو كائنًا ذكيًا وإنما هو قدرة غير عادية وهبة من الله أرسله إلى الحواريين والمسيحيين الأوائل لكى يعظوا ويدعوا إلى الإنجيل ، كما فى أعمال الرسل (١-٢)» .

وهذا هو المذهب الخاص بالله والمسيح والروح القدس كما علمه الرسل ووعظوا به اليهود والكفار وبهذه الحجج العصرية وصلت حركة الموحدين الإنجليز إلى أوج ازدهارها ، وفى كتاباته برهن ليندسى على أن المسيح ليس الله بهذه العناصر :

«لم يقل المسيح إنه الله ولا صدرت منه أدنى إشارة بأنه خلق كل الأشياء وكتب العهد القديم لا تتكلم إلا عن إله واحد يهوه كإله قائم بذاته واحد وخالق لكل الأشياء وعندما نستدل من إنجيل يوحنا (٧٠٥) هذه الجملة الغريبة فلا نصدق أن يوحنا الرجل التقى يمكن أن

يشرك مع الله خالقًا آخر أو إلهًا جديدًا بدون أى اعتبار ، ومعروف من أين استمد هذه العقيدة الغريبة أو بأية طريقة ألقاها وخصوصًا عندما نعلم أن شريعة موسى التى يعترف هو بصحتها تقرر أن من يعبد إلهًا آخر غير الله يشرك بالله ويجدف عليه وأن معلمه المسيح لم يذكر أى إله إلا الله سبحانه وتعالى ولم يتكلم من تلقاء نفسه ولكن كرسول للأب والذى أوصاه بما يقوله وما يتكلم به كما هو مذكور فى إنجيل يوحنا (١٢-٤٩) .

وكتاب تاريخ الإنجيل يتكلمون عن إله واحد الأب وهو الإله الحقيقى كما هو مذكور فى إنجيل يوحنا (١٧-٣) وكذلك مرقص ومتى ولوقا كتبوا الأناجيل بدون أن يعرف كلٍ منهم الآخر ، ولم يذكروا أى ملمح فى أناجيلهم عن كون المسيح إلهًا ولا يمكن تخيل أو تصور أن هؤلاء الناس لو كانوا يعلمون أنه الله وخالق العالم كانوا سيسكتون عن هذا الموضوع الهام .

ويبدأ يوحنا إنجيله بأن الكلمة أصبحت الله وأن الكلمة صارت جسدًا ولكنه لا يخصص هذا الاسم للمسيح فى بقية أجزاء إنجيله وأية نظرة فى إنجيل لوقا تثبت أنه كان يعتقد أن المسيح لم يكن موجودًا فى العالم قبل ولادته من أمه مريم لأنه فى الأصحاح الثالث يقدم شجرة نسب المسيح (لوقا ٣ :٢٣-٢٨) .

وفى (٤-٢٤و٨-٣٣) يقرر أن المسيح نبى الله .

وفى (٧-١٦و٢٤-١٩) يسمى المسيح نبيًا .

وفى (٣-١٣ ،٢٦و٤-٢٧ ،٣٠) يسمى بطرس وبعض الحواريين الآخرين المسيح عبد الله وفى (١٧-٢٤ ،٣٠) يصف لوقا المسيح بابن الإنسان ، ووصل إلى هذه المرتبة المهمة بفضل الله الذى خلق العالم .

وسأل ليندسى هؤلاء الذين يعبدون المسيح ماذا سيكون رد فعلهم إذا ظهر لهم المسيح فجأة وسألهم الأسئلة التالية : لماذا توجهون

صلواتكم لي هل أمرتكم بفعل ذلك أو وضعت نفسى فى موضع المعبود؟!

أو لم أضع نفسى كقدوة لكم فى عبادة الأب أبى وأبيكم إلهى وإلهكم ؟! كما في يوحنا (٢٠-١٧) .

وعندما طلب منى تلاميذى أن أعلمهم الصلاة - كما فى (لوقا ١١-٢) - هل علمتهم أن يصلوا لى أو أى شخص آخر ؟ ولكن علمتهم أن يصلوا لله ، هل سميت نفسى الله أو أخبرتكم بأنى خالق العالم أو أنى أستحق العبادة ؟ وسليمان بعد بناءه للهيكل قال : «هل يسكن الله حقًا على الأرض هو ذا السموات وسماء السموات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت (الملوك الثانى ٨-٢٧) ويتضح إيمان ليندسى بالواحدانية من هذه الكلمات التى قالها : «إن الخالق الواسع يجب أن يعبد فى كل الأماكن لأنه موجود فى كل مكان» .

- ليس هناك مكان أكثر قداسة من الآخر ، ولكن كل مكان مقدس من أجل الصلاة والمصلون هم الذين يجعلون لهذا المكان قداسة ، حينما ينظر العقل المتواضع إلى الله يجده والعقل الخالى من الخطيئة هو الهيكل الحقيقى لله .

جوزيف بريستلى (١٧٣٣-١٨٠٤) .

ولد جوزيف بريستلى فى قرية صغيرة فى فيلدهيد على بعد ستة أميال من جنوب غرب ليدرز عام ١٧٣٣ وكان أكبر أولاد صانع ملابس من أبناء المنطقة وتوفيت والدته عندما كان عمره ست سنوات ، وكان قد تلقى تربية كليفينية حازمة فى بيته وفى المدرسة كان المدرسون يسخرون من القساوسة الذين يختلفون مع مذاهب كنيسة إنجلترا وكان يتطلع لأن يكون قسيسًا فتعلم اللغة اللاتينية واليونانية والعبرية ورفض آباء مدرسة الكريكرز الدينية قبوله لأنه لم يتب بصورة كافية عن خطاياه ، ورفضت الجامعات قبول أى شخص لا يؤمن بمذاهب الكنيسة

الأرثوذكسية وبدلاً من ذلك أرسله والده إلى أكاديمية مشهورة حيث كان المدرسون والطلاب فيها منقسمين بين مذهب الكنيسة القائمة ومذهب الوحدانية الذى كان يعتبر بدعة وهنا بدأ جوزيف يشك بصورة جادة فى حقيقة العقائد الأساسية للكنيسة المسيحية وخصوصًا عقيدة التثليث وكلما درس الكتاب المقدس أكثر كلما أصبح مقتنعًا أكثر بآرائه . وتركت كتابات آريوس وسيرفيتس وسوريني تأثيراً عميقًا عليه ووصل جوزيف مثلهم إلى نتيجة مؤداها أن الكتب المقدسة تؤيد مذهب التثليث تأييداً ضعيفًا وكذلك مذهب التكفير وبمجرد انتهائه من دراسته ترك الأكاديمية وهو يؤمن بمذهب آريوس وعين مساعداً لقسيس بمرتب ٣٠ جنيهًا فى السنة وعندما اكتشف أنه آريوسى طرد من وظيفته .

وفى عام ١٧٥٨ نجح فى الحصول على وظيفة قسيس فى ناتويش التابعة لمقاطعة شيشير واستمر فى هذه الوظيفة لمدة ثلاثة أعوام وكان دخله قليلاً ولكنه عوض ذلك بإعطاء دروس دينية خاصة وبسرعة زادت شهرته كمدرس ، وكان الآريوسيون قد بنوا أكاديمية فى وارينجتون عام ١٧٥٧ فترك جوزيف وظيفته فى ناتويش ، وأصبح مدرسًا بالأكاديمية وكان يزور لندن فى فترة الإجازة وفى إحدى زياراته تلك قابل بينامين فرانكلين للمرة الأولى وفى عام ١٧٦٧ أصبح قسيسًا فى ميل فى مقاطعة ليدز بالقرب من بيته الذى نشأ فيه وبقى هناك لمدة ستة أعوام .

وفى ليدز قام جوزيف بطباعة عدد من الكتب له وأصبح المتحدث الرسمى البارز والموثوق به لحركة الوحدانية .

وكان يقضى وقت فراغه فى دراسة علم الكيمياء وتفوق فى هذا العلم مما أدى بالجمعية الملكية لأن تعترف به ككميائى مشهور ، وفى عام ١٧٧٤ اكتشف غاز الأوكسچين وهذا الاكتشاف زاد من شهرته ، وفى البحوث التى قام بها بعد ذلك اكتشف مجموعة غازات جديدة لم

يكتشفها العلماء الذين سبقوه ولكنه كان مهتماً بالدين أكثر من اهتمامه بالعلوم الطبيعية ، ونظر إلى هذه الاكتشافات كماض مشرف لعالم دين ، ونجد فى مذكراته الشخصية أنه يذكر هذه الاكتشافات التى قام بها فى حيز يصل إلى صفحة كاملة وكان يقول فيها :

«لقد قمت ببعض الاكتشافات العلمية فى بعض مجالات علم الكيمياء ولم أكن أهتم بالنظام العام لهذا العلم ولا أعرف إلا القليل عن التجارب الشائعة لهذا العلم» ثم عمل جوزيف بعد ذلك مع إيرل أوف شيلبورن كأمين لمكتبته الخاصة ومستشاره الأدبى وأعطاه هذا النبيل مرتبًا كبيراً وترك له حرية التصرف فيما يريد واستمر فى هذه الوظيفة لمدة سبعة أعوام ، وكان يقضى الصيف فى قصر هذا الرجل الريفى أما الشتاء فكان يقضيه فى لندن ، وكان يصاحب الإيول فى رحلاته إلى باريس وهولندا وبلچيكا وألمانيا ووجد الإيرل أن صداقة جوزيف مع بنيامين فرانكلين قد أصبحت مصدر حرج له لأن بنيامين كان يؤيد الثورة الفرنسية فأنهى جوزيف علاقته ببنيامين وبعد ذلك بمدة قصيرة ذهب إلى برمنجهام وأقام هناك لمدة سبعة أعوام . وبالرغم من أن إقامته هناك قد انتهت بمأساة مروعة فقد كانت أسعد أيام حياته وكانت مهمته كقسيس تنحصر فى أيام الآحاد وخلال بقية الأسبوع سمح له بالعمل فى معمله وكتابة ما يريد .

وفى برمنجهام ألف جوزيف أهم وأعظم كتاب له بعنوان «تاريخ تحريفات المسيحية» والذى أغضب الكنيسة عليه لأنه لم ينكر فقط صحة عقيدة التثليث ولكنه أكد بشرية المسيح . وكتب فيه أن روايات ميلاد المسيح لا تتفق مع بعضها وكان يؤمن أن المسيح بشر مثل بقية الناس ويخضع لنفس الضعف البشرى ونفس الزلات والجهل والأحكام البشرية واختاره الله لكى يقدم لهذا العالم تعاليم أخلاقية وتعلم رسالته بوحى من الله ، وكان مؤيداً بالمعجزات وأرسله الله لكى يبشّر بالحياة

الآخرة والتى سيجازى فيها الناس بحسب أعمالهم فى الحياة الدنيا وليس بفضل التعميد الذى يقام لهم ولم تحبذ الكنيسة ولا الحكومة هذه المعتقدات .

ولم يقرر جوزيف فقط بشرية المسيح ولكنه أنكر مبدأ ألوهية مريم أو أنها أم الله وهكذا وضع جوزيف أساس تفكير جديد نتج عنه أن حركة الوحدانية أصبحت كالسفينة التى تسير فى بحر هائج بلا دفة . وكانت هذه العقيدة لا تنكرها حركة الوحدانية العالمية وكان إنكارها يتسبب فى جدال لا طائل منه يضر ولا يفيد حركة الوحدانية ، وكانت هناك حركة مماثلة لتلك الحركة تؤيد الثورة الفرنسية وحكمها المرعب ، وكانت هذه الأحداث على الجانب الآخر من القناة الإنجليزية لا تشجع الكثير ممن كان يؤمن بهذه الحركة وأعلنت الكنيسة الأرثوذكسية أن تعاليم جوزيف سينتج عنها نفس أحداث الثورة الفرنسية فى إنجلترا وبدأت خطابات التهديد والإهانة الغير محسوبة تصل إلى جوزيف وأحرقت تماثيل له فى أجزاء من إنجلترا .

وفى ١٤ يوليو ١٧٩١ اجتمع مجموعة من الناس للاحتفال بالذكرى السنوية لسقوط سجن الباستيل فى فندق برمنجهام واجتمعت مجموعة أخرى من العامة كان يتزعمها مجموعة من قضاة المدينة خارج الفندق ، وكانوا يعتقدون أن جوزيف يشارك فى الاحتفال فحطموا زجاج شبابيك الفندق ولم يكن جوزيف هناك فلما تيقنوا من ذلك ذهبوا إلى منزله وأحرقوه بدون رحمة كما يكتب هو فى مذكراته ، ونتج عن ذلك حرق أوراقه الشخصية ومخطوطاته ومعمله أما جوزيف فقد أنذره صديق له قبل ذلك بما سيحدث ففر بحياته ، وفى اليوم التالى أحرقت جميع منازل أعضاء حركة الموحدين المهمين ، وبعدها بيومين أحرقت منازل جميع الشخصيات التى لم تكن تعتنق عقيدة حركة الموحدين ولكنها كانت توفر الحماية والملجأ لمن كان منهم

بدون حماية ولا ملجأ . فى تلك الفترة عاش سكان مدينة برمنجهام فى رعب وهلع وأغلقت جميع الجوانب وكتب الناس على جدران منازلهم «الكنيسة والملك» لكى يأمنوا غضب تلك المجموعة وغادر جوزيف برمنجهام إلى لندن متنكّراً لأنه شعر بالخطر على حياته هناك ، وفى روايته عن حياته فى برمنجهام يقول : «بدلاً من الهرب من العنف الغير قانونى كنت أهرب من العدالة ولم أطارد فى حياتى بمثل ذلك الحقد» أما فى لندن فقد كان يخشى من السير فى الشوارع خشية التعرف عليه أما منزل مضيفه فقد دمر وأحرق وبعد فترة استأجر منزلاً وكان صاحب المنزل لا يخشى من تخريب المنزل الذى يؤجره له فقط ولكن المنزل الذى يقيم فيه .

وفى عام ١٧٩٤ أبحر جوزيف إلى أمريكا مع بنيامين فرانكلين وهناك قاما بتشييد أول كنائس للموحدين فى فيلادلفيا وحولها ، وفى الأعوام التالية أصبح الموقف فى إنجلترا أكثر هدوءاً وفى عام ١٨٠٢ افتتحت كنيسة جماعة الموحدين لإلقاء موعظة الافتتاح وكان جوزيف سعيداً بإقامته فى أمريكا إلى أن وافته المنية عام ١٨٠٤ .

وكان إسهام جوزيف فى حركة الموحدين فى إنجلترا هو جداله الشامل التاريخى والفلسفى لصالح وحدانية الله فهو يعتمد على الكتب المقدسة وكتابات الآباء الأوائل للمسيحية يدعمها منطق التعليل وتثبتها مشاكل عصره السياسية والدينية فهو يقول إن السخافة التى تؤيدها السلطة لن تستطيع أن تواجه منطق التعليل وكان أعظم كتاب ألفه من بين كل كتبه هو «تاريخ تحريفات المسيحية» وهو فى مجلدين وفيه يثبت أن المسيحية الحقة متمثلة فى معتقدات الكنيسة الأولى التى كانت تؤمن بوحدانية الله ، وأن كل خروج عن تلك العقيدة يعتبر تحريفاً وآثار هذا الكتاب الأرثوذكس وأدى إلى ابتهاج الأحرار فى كل من إنجلترا وأمريكا وأحرق فى النهاية أمام الناس فى

هولندا ونأخذ منه هذه المقتطفات :

«لكى نفكر فى نظام المسيحية يجب أن نعرف أنها معرضة للتحريف أو إساءة فهمها فالجانب العظيم فيها هو أنها تقول إن المسيح يدعو الناس إلى الفضيلة بإظهار رحمة الله على التائبين ويدعو إلى السعادة والحياة الأبدية كل الأطهار والصالحين فى العالم ، وهنا لا شىء يدعو إلى تفكير آخر يؤدى إلى إثارة العداوة فالعقيدة فى حد ذاتها بسيطة يستوعبها المتعلم والجاهل وأى شخص لا يعرف حالتها فى وقت الدعوة إليها سينظر سدى إلى أى مصدر محتمل للتحريفات الكثيرة التى زحفت إليها . والمسيح وحواريوه تنبأوا بأنه سيكون هناك تحريف كبير للحقيقة وأن الكنيسة ستسير فى طريق مخالف للعقيدة التى استمدت وجودها منها وستنقلب عليها .

وأسباب هذه التحريفات المتتابعة كانت موجودة فى الواقع مما أدى إلى ازديادها ومما يدعو إلى العجب أكثر أن هذه التحريفات قد تم تصحيحها ، وبدأت المسيحية تستعيد جمالها القديم ؛ وكانت أسباب التحريف موجودة فى آراء العالم الكافر وخصوصاً الجزء الفلسفى منها لدرجة أن هؤلاء الكفار عندما اعتنقوا المسيحية خلطوا معتقداتهم وآراءهم السابقة الكافرة بها .

وكان الكفار واليهود يشينهم فكرة كونهم حواريين لرجل صُلب وكأنه رجل شرير لدرجة أن المسيحيين عامة كانوا يتقبلون أى رأى يؤدى إلى إزالة هذه الإهانة عنهم ، أما فكرة أن الصفات العقلية للإنسان تخضع لمادة مميزة عن جسمه أو عقله أو فكرة أن هذا الجزء الغير مرئى وهو الروح كان موجوداً قبل أو بعد اتحاده بالجسد أو غيرها من الأفكار التى كان لها جذور عميقة فى عالم الفلسفة فقد كانوا يعتقدون أنها ممكن أن تؤدى هذا الغرض ولذلك فقد أعطى المسيحيون للمسيح مرتبة فى عالم السموات قبل أن يولد وعلى هذا المبدأ سار

الغنوصيون مستمدين عقيدتهم من الفلسفة الشرقية .

وبعد ذلك سار الفلاسفة المسيحيون على مبدأ آخر مجسمين حكمة وعقل المسيح وكأنه مساو لله الأب نفسه .

وكانت تحريفات تعاليم المسيحية كثيرة وكانت مستمدة من فكرة تطهير وتقديس فضائل الطقوس والشعائر وهى أساس عبادات الكفار والوثنيين ، وهذه التحريفات كانت مشابهة لتحريفات الديانة اليهودية ولذلك نجد مظاهر قوة الرهبان فى كل آراء وممارسات الكفار الذين فكروا فى تطهير وإعلاء شأن النفس بإماتة وامتهان الجسد .

وبالنسة لإساءة استعمال السلطة فى هيئة الكنيسة فهى تعتبر إساءة استعمال لسلطة مدنية وكل الدنيويين يبغون اغتنام كل فرصة لزيادة نفوذهم ولقد رأينا حوادث عديدة فى العصور المظلمة تعطى رجل الدين المسيحى ميزة كبيرة على الرجل العادى .

وعمومًا فإننى أكون متملقًا لنفسى لو قلت لأى قارئ مهتم بهذا الكتاب أن تحريف المسيحيةفى العقيدة أو العبادة كان نتيجة طبيعية للظروف التى نشأت فيها وأن خلاصها من هذه التحريفات كان أيضًا نتيجة طبيعية لظروف مختلفة ولكى يزداد تحريف المسيحية تحريفًا كان لابد من الخطوات الآتية :

١ - قام مجمع دينى بإعطاء الابن نفس طبيعة الأب .

٢ - وأضاف الروح القدس إلى الثالوث المقدس .

٣ - وقال إن الابن نفس بشرية بطبيعة إلهية .

٤ - وقام بحل الخلافات التى تتصل باتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح .

٥ - وقرر أن نتيجة هذا الاتحاد بين الطبيعتين الإلهية والبشرية قد تمثلت فى المسيح .

ونحتاج لذاكرة قوية جدًا كى نتذكر كل هذه الصفات المختلفة

وكانت مسألة لعب بالكلام ليس إلا ، أكثر منها مسألة أفكار» .

وألف بريستلى كتاباً آخر عنوانه «قصة المسيح» نذكر منه ما يلى :

«عندما نبحث فى معتقد أى كتاب أو مجموعة من الكتب تتعلق بأى موضع ونميل لآراء خاصة تجمع كل هذه الآراء المختلفة فيجب أن نفكر فى المعنى العام لهذا الكتاب وأى تأثير سيجلبه على القارئ المحايد ، ولذلك فعندما نستهدى بقصة موسى عن خلق العالم سنجد أنه لا يذكر أى إله إلا الله الذى خلق السموات والأرض والذى أمد الأرض بالنبات والحيوانات والذى خلق الإنسان أيضاً .

أما صيغة الجمع فلا تستخدم إلا عندما يقول الله فى سفر التكوين (١-٢٦) «وقال الله نعمل الإنسان» وهذا مجرد أسلوب فى الكلام ويتضح ذلك من قوله مباشرة بعد ذلك فى سفر التكوين (١-٢٧) «فخلق الله الإنسان على صورته» ولذلك فالله واحد وأيضاً فى قصة بناء برج بابل نقرأ فى سفر التكوين (١١-٧) «هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض» ولكن فى الآية التالية (١١-٨) نجد أن الذى فعل ذلك إله واحد .

وفى كل اتصال بين الله وآدم ونوح والرسل الآخرين لا نجد أى ذكر إلا لإله واحد يخاطبهم بهذه الصفة وأحياناً يسمى الله ياهوا وفى أحيان أخرى إله إبراهيم ، ولكن لا شك فى أن ذلك هو الله الذى ذكر أول مرة باسم الله والذى يعزى إليه خلق السموات والأرض وأيضاً يذكر مرات عديدة على لسان الملائكة الذين يتحدثون باسمه ولكنهم مخلوقات وعباد له ، إذاً على أى أساس يمكن أن نعتبر الملائكة آلهة مساوية للخالق الأعظم أو بمرتبة مساوية له ؟ وأوضح ذكر لمبدأ وحدانية الله وأهمية الإيمان به يتجلى فى العهد القديم حيث يذكر مرات عديدة فأول وصية فى سفر الخروج (٢٠-٣) «لا يكن لك آلهة أخرى أمامى» .

وهذا الوصف تكرر بأسلوب أكثر تشديداً فى سفر التثنية (٥-٧)

«لا يكن لك آلهة أخرى أمامى» (٥-٤) «اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد» وتكرر ذلك على لسان الأنبياء الذين أتوا بعد موسى وهذا هو الهدف* الأكبر للديانة اليهودية ولتميز الشعب اليهودى عن الأمم الأخرى بوجود الله ومراقبته لهم لكى يحفظ مبدأ الوحدانية بينهم بينما كان بقية العالم يعيش فى الوثنية ، وعن طريق هذا الشعب والشريعة التى سار على نهجها تم حفظ هذا المبدأ العظيم بين الناس حتى اليوم .

فهل هناك أى تميز للأقانيم بالطبيعة الإلهية كما يفترض مذهب التثليث الذى يعتبر خرقاً لهذا المبدأ أو المعتقد الأساسى للعقيدة اليهودية ويحتاج لتوضيح ويجب التحرز من الاستدلال الذى يسير فيه ؟!

فإذا كان لله الخالد ابن وأيضًا روح ، كل منهما مساو له فى القوة والمجد فسيكون هناك شعور زائف بأن كلا منهما هو الله حقًا ولكن الله فقط هو الذى يتكلم بحق وصدق وهو إله واحد .

ولكن لو ذكرنا الثلاثة فسنذكر ثلاثة آلهة ولا شىء من هذا القبيل يذكر فى العهد القديم وعندما نذكر ذلك فلن نجد إجابة بنعم ، وعندئذ نفهم أن هذه الفكرة لم تكن موجودة ولا يوجد أى تصريح بها .

وعندما نستهدى بنفس المعانى التى فهم بها اليهود كتبهم المقدسة سنستنتج أن العهد القديم لا يحتوى على عقيدة التثليث ولا يُعلم أن أى يهودى من العصور القديمة أو الحديثة قد أخذ هذه العقيدة عن آبائه ، ويفسر اليهود كتبهم المقدسة مبشرين بوحدانية الله بدون أى أقانيم وأن الله قد أوحى إلى الرسل والأنبياء بدون أية واسطة إلا الملائكة .

وتصور المسيحيون أن مسيا هو الإقنيم الثانى فى الثالوث المقدس أما اليهود فلم تكن توقعاتهم عن مسيا تتضمن هذا الاعتقاد ، وإذا نظرنا

---

* التوحيد .

إلى النبوءات التى تتعلق بهذه الشخصية العظيمة * فلن نجد صورته إلا صورة إنسان ، وأعلم آدم وحواء بوجود مسيا تحت مسمى «نسل المرأة» (التكوين ٣-١٥) .

ووعد الله إبراهيم فى سفر التكوين (١٢-٣) قائلاً : «بنسلك تتبارك كل أمم الأرض» وهذا الأمر يتعلق بمسيا على الإطلاق ويعطينا فكرة أن واحداً من نسل إبراهيم ** سيكون محملاً ببركات عظيمة على الجنس البشرى كله .

وماذا يمكن أن نستنتج غير ذلك من الوصف الذى قدمه موسى عن مسيا فى سفر التثنية (١٨-١٨) .

«أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»

وهنا لا نجد مثل ما يقال من الإقنيم الثانى فى الثالوث المقدس المساوى للأب ، ولكن ما نفهمه هو أنه نبى محض يتكلم باسم الله ، وما يأمره به يفعله .

وفى العهد الجديد نجد نفس الاعتقاد فى الله كما فى العهد القديم بالنسبة للكاتب الذى سأل المسيح عن أية وصية هى أول الكل فأجابه المسيح كما فى إنجيل مرقص (١٢-٢٩) «فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا هى : «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» فرد عليه الكاتب «الحق قلت لأنه إله واحد وليس آخر سواه» .

حتى المسيح نفسه كان يصلى لهذا الإله الواحد كإله له والأب وكان يتكلم عن نفسه وكأنه يتلقى عقيدته وقوته منه وكان ينكر فى مرات كثيرة أن يكون له قوة من نفسه ففى إنجيل يوحنا (٥-٩) «فأجاب يسوع وقال لهم : الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا

---

* مسيا .

** محمد صلى الله عليه وسلم .

ما ينظر الأب يعمل» (١٤-١٠) «الكلام الذى أتكلم به لست أتكلم به من نفسى لكن الأب الحال فى هو يعمل الأعمال» (٢٠-١٧) «اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد الآن إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» ولا يمكن أن يكون من يتكلم بمثل هذا الكلام هو الله ، وكذلك الحواريون كانوا يستخدمون نفس اللغة فى كتاباتهم حتى آخر فترة من حياتهم وكانوا يقولون إن الأب هو الإله الحقيقى ، وإن المسيح رجل وعبد لله أقامه من الأموات وأعطاه كل القدرة التى أبداها جزاء لطاعته إياه ، ففى أعمال الرسل (٢-٢٢) يقول بطرس : «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون» . ويقول بولس فى رسالته إلى تيموثاوس الأولى : «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح» .

ويمكن لنا أن نتأمل فى مسار هذه الحقبة التاريخية أن العامة من الناس الذين كتبت كتب العهد الجديد من أجلهم لم يكن عندهم علم بفكرة ألوهية المسيح كما يتصور علماء هذا الزمان * أنها كانت راسخة فى أذهانهم إذًا فلماذا لم تدرس هذه الفكرة جهارًا بين الناس وبأسلوب محدد كما هو موجود فى العهد الجديد والقديم إذا كانت حقيقة ولماذا كانت عقيدة الوحدانية تدرس بأسلوب غير متحفظ وبدون أى استثناء لصالح عقيدة التثليث ، ولمنع أخطائها كما يوجد الآن فى خطبنا وعقيدتنا وعبادتنا الدينية ، وعلماء اللاهوت سعداء بإدخال هذه العقيدة ** الغريبة والغامضة .

وهى محض استنتاجات من تعبيرات سطحية ولا يمكن أن تقدم للإنسان مصدرًا واضحًا وصريحًا وبيّنًا للمعرفة الدينية ، وتوجد

* يقصد علماء المسيحية .

** يقصد عقيدة التثليث .

نصوص دينية عديدة فى الكتاب المقدس تؤكد عقيدة الوحدانية بأحسن وأقوى أسلوب وهى ضد عقيدة التثليث . ولا ندرى لماذا كتب علينا أن نؤمن بعقيدة غامضة بدون أى دليل واضح .

ويجب على هؤلاء الذين يؤمنون أن المسيح هو الله أو خالق العالم أن يضعوا فى اعتبارهم الأسلوب الذى يتكلم به معلمنا عن نفسه وعن القوة التى منها يستمد معجزاته .

فهو لا يتمشى مع فكرة أنه يملك قدرة خاصة به تميزه عن غيره من الناس طبقًا للتركيب العام للغة .

فإذا كان المسيح هو خالق الكون لم يكن ليقول ذلك عن نفسه وهو أنه لا يستطيع أن يفعل شيئًا من تلقاء نفسه وأنه لا يتكلم من نفسه ولكن بكلام الله وأن الأب الحال فيه هو الذى يفعل المعجزات لأن أى إنسان عادى يفعل ما يفعله الآخرون يجب أن يطبق هذا الأسلوب على نفسه ، ويقول إنه ليس هو الذى تكلم وفعل المعجزات ولكن الله وخلاف ذلك لم يكن يتكلم أو يفعل ذلك بنفسه ويجب أن نحارب من يقول إن الأسلوب زائف أو يجدف على الله .

ومن مظاهر إساءة استعمال اللغة القول بأن المسيح عند قوله إن الأب أعظم منه كان يعنى طبيعته البشرية فقط بينما الإلهية بقيت مساوية للأب فلا شىء يسمى قصة ألوهية المسيح أو طبيعته فوق الملائكية تجده مذكورًا فى إنجيل متى ومرقص ولوقا بالرغم من وجود ذكر طفيف لذلك فى مقدمة إنجيل يوحنا ولكن من المعلوم أنه يحتوى على نصوص عديدة تبين آدمية المسيح البسيطة .

ولم يكن علماء الإنجيل ليتخيلوا أن كلا من اليهود أو الأميين الذين كتبت الأناجيل من أجلهم فى غير حاجة لأية معلومة مهمة عن هذا الموضوع * تكون بعيدة عن فهمهم وفى نفس الوقت تغطى

* التثليث .

موضوع الصلب الذى أذل مسيحيى هذا العصر .

ولو كان موضوع ألوهية وخلود المسيح حقيقيًا لكان ذلك يرفع من أسهم علماء الإنجيل لأن هؤلاء العلماء لا يقدمون قصة مميزة ومؤكدة ولايتكلمون عن أهميتها ؛ وهذا يعنى أنهم يجهلون عنها الكثير .

ويجب أن نسأل أنفسنا لماذا استمر الحواريون يسمون المسيح رجلاً كما كانوا يفعلون سواء فى أعمال الرسل أو رسائلهم بعد أن اكتشفوا أنه إله يحمل طبيعة إلهية ، وفى هذه الحالة سيكون مزريًا ومن غير المتصور ظهوره فى صورة آدمية ودعنا نضع أنفسنا فى مكان الرسل وحواريى المسيح الأوائل وهم فى أول الأمر رأوه وتحدثوا إليه على أنه رجل مثلهم ولا شك فى ذلك ! سيكون اندهاشهم عند إخبارهم أن المسيح ليس رجلاً ولكنه إله أو خالق العالم مثلنا تمامًا عند اكتشافنا أن رجلاً تعرفه يفترض أنه الله أو خالق العالم ودعنا نتصور حينئذ ماذا كنا سنشعر أو نتصرف نحو هذا الرجل وكيف سنتكلم عنه بعد ذلك فلا أحد وأنا واثق من ذلك سيسمى أى شخص رجلاً بعد أن يقتنع أنه إما أن يكون الله أو ملاكًا وسيتكلم عنه بأسلوب يماثل رفعته .

ودعنا نفترض أن رجلين من الذين تعرفهم تبين بعد البحث أنهما الملاكان ميكائيل وجبرائيل هل نسميهم رجالاً بعد ذلك ؟ وبالتأكيد لا وسنقول لأصدقائنا إن هذين الرجلين تصورنا أنهما رجلان وهما ليسا كذلك ولكنهما ملكان مستخفيان وهذا الأسلوب سيكون طبيعيًا فإذا كان المسيح له صفته فوق البشرية قبل قدومه للعالم أو كان الله أو خالق الكون لا يمكن أن نعتبره بعد ذلك رجلاً بينما هو غير ذلك لأنه لا يمكن أن يفصل نفسه عن طبيعته الإلهية مهما أجاد الاستخفاء فسيكون فى الواقع كما كان من قبل ولا يمكن أن يسميه الذين عرفوه فى الحقيقة بأسماء مختلفة .

وأقل الوسائل التى نستخدمها هو مبدأ الجدال ومنطق التعليل لأنه

من خلال إشاعة استخدامه كان يكشف حقيقة الناس مما أدى إلى كونه جديراً بهذه التسمية ، وأى شخص يلقى اهتماماً ولو قليلاً بأسلوب العهد الجديد سيذهل من كونه كلمتين كالمسيح والله تستخدمان بصورة دائمة بمعنيين متناقضين كما فى كلمتى الله والإنسان وإذا راعينا الاستخدام الطبيعى للكلمات سنصبح أكثر اقتناعاً بأن هذا لن يكون الحال إذا كانت كلمة المسيح والله متقاربتين أو كل منهما تدل على الأخرى .

فنحن نقول الأمير والملك لأن الأمير ليس الملك وإذا كان كذلك لكنا لم نلجأ لصفات أخرى كصفة أعظم وأدنى أكبر وأصغر الأب والابن .

ولذلك عندما قال بولس : إن الكنيسة فى كورنثوس كانت كنيسة المسيح ، وإن المسيح كان عبد الله . وتكرار هذا الأسلوب فى العهد الجديد يبرهن على أنه لم يكن عنده أدنى فكرة عن كون المسيح الله بالمعنى المتعارف عليه للكلمة وبنفس الأسلوب يطلق كليمنز رومانس على المسيح «صولجان» جلالة الله فهذا يبث بصورة كافية أنه فى تفكيره كان الصولجان شيئًا والله الذى يملكه شىء وهذا كان هو الحال عند استخدام هذه اللغة .

ولأننا أثبتنا أن عقائد الكتب المقدسة وما يمكن استنتاجه منها بوضوح لا تؤيد عقيدة التثليث أو عقيدة ألوهية أو خلود المسيح ، وهنا يوجد اعتبار لم ينظر إليه الناس إلا قليلاً ولكنه يقف بقوة ضد هذه العقائد وينكر كونها معروفة للحواريين ويثبت أنها ضد عقيدة الكتب المقدسة وهو أن المسيح هو مسيا فقد أخذت هذه العقيدة بحرص شديد من جانب الحواريين أو اليهود ولم يقل معلمنا أى شىء واضح بخصوص هذا الشأن ولكنه ترك الحكم على ذلك لحوارييه ولليهود مما رأوه وبهذا الأسلوب رد فقط على الرسل الذين قالوا إن يوحنا المعمدان أرسل له .

وإذا عبر كبير القساوسة عن هلعه بتمزيق ملابسه على المسيح مقراً أنه مسيا ماذا كان سيفعل إذا سمع أو شك أن المسيح يزعم ذلك ؟! لكانت هذه المزاعم قد ذهبت أدراج الرياح، وعندما رأى الناس معجزاته تعجبوا من كون الله يعطى هذه القدرة لإنسان ويقول متى (٩-٨) : «كلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطاناً مثل هذا» وعندما سمع هيرودس بما فعله المسيح ظن بعض الناس أنه إلياس والبعض الآخر أنه نبى والبعض الثالث أنه يوحنا المعمدان بعث من الأموات ، ولم يكن أى واحد من هؤلاء يضع فى تصوره أنه الله العظيم أو خالق الكون ولا يرى أى أحد ممن شاهدوه أنه فعل تلك الأشياء المعجزة من نفسه ولو كان مبدأ ألوهية المسيح يعظ به الحواريون أو المرتدون من اليهود لم يكن ليؤمن به إلا اليهود الكفار فى ذلك الزمان أما اليهود المؤمنون فكانوا ينشدون فى مبدأ وحدانية الله وما كانوا إلا أن يعارضوا المسيحية لأنها تعلم الإنسان أن يعبد آلهة متعددة بينما هو إله واحد ، ولو بحثنا فى سفر أعمال الرسل لا نجد أى أثر لعقيدة التثليث ولا نجد أى أثر لها فى أى سفر آخر من العهد الجديد ونجد أن الرد على تهمة عبادة إلهين أو ثلاثة آلهة هى الشغل الشاغل لكتابات كثير من آباء المسيحية الأوائل بينما لا نجد شيئاً من ذلك فى عصر الحواريين ، والإجابة على ذلك هو أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك مناسبة لذلك ولم تكن قضية ألوهية المسيح قيد البحث .

ماذا كانت تهمة ستيفن (أعمال الرسل ٦-١٣) تهمته أنه يتكلم بتجديف على الهيكل والشريعة ، وعندما نصاحب بولس فى كل رحلاته ونحضر موعظته لليهود فى كنيستهم واضطهادهم الدائم له لا نجد أى أثر لشكهم فيه على أنه يدعو إلى إله جديد كما يظهر من مبدأ ألوهية المسيح .

ولذلك من المهم بمكان أن ننظر لهذه الاعتبارات بجدية ولا نقول إن

الحواريين قد وعظهم المسيح بمثل تلك المبادئ كمبدأ التثليث وألوهية المسيح ، وإذا كان المسيح قد فعل ذلك لكنا قد حددنا الزمن الذى وعظوا هم به لأن عقيدة المسيحية كانت جديدة وغير عادية ولكانوا قد عبروا عن بعض الاندهاش لأن عقيدتهم لا يعتريها الشك ، وإذا كانوا قد تلقوا هذه العقائد بإيمان ثابت لكانوا قد بلغوها إلى الآخرين والذين كانوا لن يتقبلوها على الفور ولكن سيعتريهم بعض الشك فى صحتها وكانوا سيضطرون للرد على اعتراضات الآخرين عليها ، وعندما نلقى نظرة على قصتهم وكتاباتهم الوفيرة لا نشعر بأى أثر للاندهاش والشكوك والاعتراضات .

ويجب أن نقر أن الهدف المحض للصلاة هو الله الأب وهو الإقنيم الأول من الثالوث المقدس ، ولا نجد فى الكتب المقدسة أى نص يسمح لنا بأن نعبد أى إله آخر غير الله أما المثال الوحيد الذى جاء فى هذا السبيل وهو صلاة ستيفن القصيرة إلى المسيح بعد أن رآه فى المنام فلا يعتد به والمسيح نفسه كان يصلى للأب بخشوع وتجرُّد كما يفعل أى كائن مستقل فى العالم . وكان يخاطبه بالأب أو خالقه وكان يوجه الحواريين إلى الصلاة لله الأب كإله واحد يستحق العبادة .

وبناء عليه كانت الصلاة للأب فقط مستديمة فى الكنيسة المسيحية أما الصلوات القصيرة إلى المسيح كما فى الابتهالات : يا إلهى ارحمنا أيها المسيح ارحمنا . فكانت فى عصر متأخر ، وفى طقوس كليمنت كانت أقدم صلاة قصيرة متضمنة فى دساتير الرسل ترجع إلى القرن الرابع ولم يكن فيها هذا النص ، وفى كتابه الضخم بخصوص موضوع الصلاة يحثنا أوريجن بشدة أن نوجه صلاتنا للأب فقط وليس للمسيح وهنا لا يوضح لنا أن صيغ الصلاة تتضمن أى شىء توبيخى فى هذا السبيل ، ونستنتج من ذلك بصورة عادية أنه فى عهده لم تكن تلك التوسلات للمسيح معروفة فى مجالس العبادة الجماعية المسيحية .

وسنحاول أن نتأمل بعض التفصيلات فى تاريخ الحواريين فعندما حاول هيرودس أن يعدم جيمس أخا يوحنا وقام بسجن بطرس نقرأ فى أعمال الرسل (١٢-٥) «إن الكنيسة كانت تصير منها صلاة بلجاجة إلى الله من أجله» .

وعندما كان بولس وسيلا مسجونين فى فيليبى نقرأ فى أعمال الرسل (١٦-٥) «أنهما كانا يصليان ويسبحان الله» وليس المسيح وعندما حُذر بولس مما قد يصيبه لو ذهب إلى أورشليم كما فى أعمال الرسل (٢١-١٤) قال «لتكن مشيئة الرب» وهذا الدعاء من المفترض أنه موجه إلى الله الأب لأن المسيح نفسه استخدم نفس اللغة بنفس المعنى عندما صلى للأب قائلاً : «ليست مشيئتى ولكن مشيئتك هى التى ستكون» ونلاحظ أنه لا توجد عقيدة مثل عقيدة التثليث فى الكتب المقدسة والعقيدة نفسها كان مستحيلاً - كما ظهر ذلك - على أى إنسان عاقل أن يقبلها أو يضعها فى باله حيث إنها تحوى الكثير من المتناقضات التى تجعلها شيئًا بدون معنى . وعقيدة أثناسيوس لا تتضمن أى شىء محظور إذا عبدت الأب أو الابن أو الروح القدس على أنه الله فكل منهم خالد فى الأبدية وكلها آلهة كاملة والآن تتضمن أنهم ليسوا آلهة بل إله واحد به الثلاثة أقانيم وكلها إله واحد وهذا يحمل من المتناقضات ما تعنيه عندما تقول إن بطرس وجيمس ويوحنا يحمل كل منهم الصفة المطلوبة لتكوين إنسان كامل وأنهم ليسوا ثلاثة رجال بل رجل واحد ، لأن الأفكار المرتبطة بكلمات مثل الله والإنسان لا تتميز بالنسبة إلى طبيعة هاتين الكلمتين . وبعد انعقاد مجمع نيقية تم تفسير عقيدة التثليث بهذا الأسلوب ، وكان آباء ذلك العصر ينوون الحفاظ على الصفة الكاملة للأقانيم الثلاثة وبالتالى ضلو عن الوحدانية ولذلك لا يعرف كيف فُسرت هذه العقيدة وكان لابد من التضحية بعقيدة فى سبيل الأخرى لأن الناس معرضون للاضطراب فى استعمال الكلمات

مثل كلمة إقنيم وكائن فكلمة كائن يمكن أن تطلق على أى شىء أو كل شىء وبالتالى يمكن أن تطلق على أى من الأقانيم الثلاثة وعندما نقول إن المسيح هو الله كمثال ولكن ليس هناك كينونة أو مادة يمكن وصف صفاته بها فهو قول سخيف ولذلك عندما يقال إن كلا من هذه الأقانيم الثلاثة هو الله نفسه ، فهذا معناه أن الله له كينونة مستقلة ، وكذلك المسيح وكذلك الروح القدس وهؤلاء ثلاثة أقانيم وثلاثة موجودات وهذه الثلاثة موجودات لا يمكن أن تعتبر إلا ثلاثة آلهة بدون افتراض أنه يوجد ثلاثة آلهة أو ثلاثة أبناء أو ثلاثة من نوع الروح القدس ، وإذا كانت هذه القدرة الهائلة على الخلق يتميز بها الأب فلماذا لم تعد تعمل ؟ هل هو كائن لا يتغير وهو هو نفسه من البداية بكماله وقدرته على توقع نفس الشىء منهم فلماذا نخلق له ابناً هل هو غير قادر على الخلق كما يتساءل الآباء الآرثوذكس أم أن هذا يعتمد على إرادته ورضاه بهذه القدرة ؟ ! وإذا كان الأمر كذلك ألا يعتمد الابن على إرادة الخالق كأى مخلوق آخر خلقه سواء كان مثله أو مختلفاً عنه وهنا نتساءل عن كيفية وجود الإقنيم الثالث من الثالوث المقدس هل كان ذلك بإرادة مشتركة من الإقنيمين الأولين لاستكمال كمالهما الخاص بهما ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تخلق هذه الإرادة المشتركة إقنيماً رابعاً وهكذا .

وإذا قبلنا بهذه القصة الغريبة عن الثالوث وقدرتهم على الخلق فإن وجود الابن يعتمد بالضرورة على قدرة الخالق نفسه ، وهذا بالتأكيد يعنى أسبقية تفاضلية أو عظمة فى الأب عن الابن ولا يمكن لأى كائن أن يكون الله الذى لا يوجد من هو أعظم منه .

وهذا التفكير باختصار يقلب عقيدة المساواة التامة أو وحدة الثلاثة أقانيم فى الثالوث رأساً على عقب ووجه الاعتراض الأساسى على عقيدة التثليث أنها خرق لعقيدة الوحدانية كهدف وحيد للعبادة ،

وهذا هو المبدأ الرئيسى للوحى الإلهى ولذلك فأى تغيير فى عقيدة الوحدانية ينظر إليه بعين الشك لأنه يؤدى إلى الشرك فى العبادة وهذا بدوره يؤدى إلى الوثنية» .

وكان لعقيدة التوحيد وحركتها فى إنجلترا تأثير كبير على أمريكا وكانت فى بدايتها مذهباً خارجاً عن عقيدة كالفن ولكن مع قدوم القرن السابع عشر اتفقت حركات هذه العقيدة مع بعضها ولم تعد تركز على العقيدة وهكذا كان الطريق ممهداً لتغيير لاهوتى تدريجى فقام تشالز تشونسى (١٧٠٥-١٧٥٧) من بوسطن بدعوة واضحة إلى إنشاء مذهب الوحدانية فى أمريكا ، وتحت رئاسة جيمس فريمان (١٧٥٩-١٨٣٥) خلت الابتهالات الدينية الأنجليكية للمجتمعين فى دير الملك من أية إشارة إلى عقيدة التثليث وحدث ذلك عام ١٧٨٥ وبذلك أنشئت أول كنيسة للموحدين فى أمريكا وطبعت ووزعت عقائد بريستلى على الناس بحرية وتلقاها معظم الناس ، وكان نتيجة ذلك أن اعترف بها كل القساوسة فى بوسطن ما عدا قس واحد .

وليام إليرى تشابنج (١٧٨٠- ١٨٤٢)

ولد وليام تشابنج عام ١٧٨٠ وعندما تعدى عمره الثلاثة والعشرين عاماً سافر إلى بوسطن وبدأ رسالته الدينية التى كان لها تأثير كبير على فكر الموحدين فهو لم يعترف بعقيدة التثليث ولكن كان من الخطر فى ذلك الوقت إعلان ذلك جهاراً .

واتهم مع قساوسة آخرين من حركة الموحدين بنشر أفكاره ضد عقيدة التثليث سراً ورد تشابنج بأن آراءه فى عقيدة التثليث لم تكن خادعة وأنه وزملاءه القساوسة كانوا يعظون كأن عقيدة التثليث لم تكن معروفة وقد ساروا فى هذا الطريق بتلك الكيفية حتى لا يمزقوا وحدة المسيحيين وهكذا فى تلك المرحلة لم تكن حركة الموحدين معترفاً بها فى العالم المسيحى وفى عام ١٨١٩ ألقى تشابنج خطبة فى بيت

جيرد سباركز وبطريقته الفريدة حدد الملامح الأساسية لعقيدة الموحدين، وأوضح فيها أن العهد الجديد مبنى على العهد القديم وأن التعاليم التى نقلت إلى المسيحيين كانت استمراراً للتعاليم اليهودية وكان ذلكم استكمالاً لعدد كبير من الرسالات التى كانت تحتاج إلى أفق واسع لفهمها .

وعندما نضع ذلك فى اعتبارنا نستنتج أن الله لا يناقض فى كتاب من الكتب المقدسة ما يدعو إليه فى الكتب الأخرى ولا يناقض بالوحى ما يعلمه فى كتبه المقدسة ، ولذلك لا نثق فى أى تفسير يثبت بعد الفحص الدقيق أنه يناقض أية حقيقة قائمة . وأصر تشابنج فى كلامه على أن يستفيد الإنسان من منطق التعليل : «فالله خلق لنا طبيعة معللة يجب أن نضعها فى اعتبارنا وعندما لا نبرز هذه الطبيعة يكون ذلك خطراً علينا فالوحى نزل إلينا معللاً وربما نتمنى أن لا يعطينا الله عقلاً يقوم بالمقارنة والتحديد والاستدلال لأن هذا العقل ربما يختلف مع مقومات حياتنا ومهمة العقل هى فهم الوحى كما نزل إلينا وتفسيره بوصف الصفات التى من المفترض أن يكون نزل بها وإذا كان الله قد بلغ أعلى درجات الحكمة فلا يمكن أن يعول على فهم مخلوقاته كما أن المدرس يظهر قدرته بتكييف نفسه طبقاً لقدرات تلاميذه وليس بإرباكهم بالتعاليم الغبية والتى لا تؤدى إلا لمزيد من التناقضات وليس من مهمة العقل استعمال أسلوب غير ذكى للاتصال بما هو فوق قدرتنا لزيادة اضطراب وتشويش العقل بالمتناقضات ، والوحى هبة نورانية فلا يمكن له أن يزيد ضلالنا أو يضاعف حيرتنا .

وفى المقام الأول نحن نؤمن بوحدانية الله وأنه لا يوجد إلا إله واحد ولذلك نعطى لهذه الحقيقة جل اهتمامنا ومراعاتنا خشية أن يحاول أى أحد أن يفسد عقيدتنا بالفلسفة الفارغة ويعتبر مبدأ الإيمان بإله واحد مبدأ بسيطاً نؤمن فيه أنه لا يوجد إلا إله واحد وعقل واحد وذات إلهية

واحدة وخالق واحد وهو له مطلق الكمال ومطلق الإرادة .

ونحن نؤمن أن هذه الكلمات لا تنقل أى معنى آخر للناس البسطاء وغير المثقفين الذين توجه إليهم هذه الحقيقة العظيمة والذين لايستطيعون فهم هذه الفروق الكبيرة بين الذات والله وهى من نتائج عمل فلسفات العصور المتأخرة ولا يوجد أى تعارض بين وحدانية الله واستقلال الكائنات الأخرى كل منها بذاته .

ووجه اعتراضاً على عقيدة التثليث أنها عبارة عن كلمات تناقض فى تأثيرها عقيدة الوحدانية فطبقاً لهذه العقيدة توجد ثلاثة أقانيم غير محدودة ومتساوية تملك قدرة إلهية عظيمة تسمى الأب والابن والروح القدس . وكل إقنيم من هذه الأقانيم كما يصفه علماء اللاهوت له إرادته ومشاعره الخاصة به وكل منهم يحب الآخر ويتحدث معه ويفرح بإقرانه به ، وكل منهم يؤدى دوراً مختلفاً فى تخليص الإنسان من الخطيئة ، وكل منهم له مكانته الخاصة ولا يؤدى عمل الآخر فالأب يرسل الابن وليس هو ولا هو مثل الابن يتمثل فى صورة بشر ، وهناك لدينا ثلاثة أقانيم ذكية كل منهم له مشاعره الخاصة وإرادته الخاصة وأعماله الخاصة وعلاقاته المختلفة وإذا لم تكن كل هذه الأقانيم تُكوِّن ثلاثة عقول أو كائنات نقع فى حيرة لكى نتبين كيف تكونت هذه الأقانيم الثلاثة هل هو اختلاف فى الصفات والأفعال والمشاعر مما يؤدى إلى الإيمان بثلاثة كائنات ذكية وإذا خذلتنا هذه الملاحظة فإن معرفتنا أيضاً تخذلنا فليس لدينا دليل على أن كل الأقانيم فى الكون ليست إلهاً واحداً ، وإذا حاولنا أن نتصور وجود ثلاثة آلهة لا نفعل أكثر من تصور ثلاثة أقانيم يميز كل منهم عن الآخر علامات وصفات معينة مشابهة لما يفعله علماء اللاهوت عند تمييز الثلاثة أقانيم وعندما يسمع المسيحى العادى أن هذه الأقانيم تتكلم وتتحادث مع بعض وأنها يحب بعضها البعض وأنها تؤدى أعمالاً مختلفة لا يمكن أن يمنع نفسه من أن

ينظر إليهم على أنهم عقول وكائنات مختلفة .

ونحن نحتج بكل جدية وبدون توجيه اللوم إلى إخوتنا على مبدأ التثليث هذا الغير منطقى والغير مسجل فى الكتب المقدسة أما بالنسبة إلينا وبالنسبة للحواريين والمسيحيين الأوائل لا يوجد إلا إله واحد الأب ، فنحن نعبد الأب الحقيقى لأنه الإله الحقيقى والخالد ، ونحن نندهش عندما نقرأ العهد الجديد ولا نجد فيه إلا أن الأب هو وحده الله ولا نجد أى تمييز بين الله والمسيح فى أقوالنا إلا بهذا الكلام : «الله أرسل ابنه» «الله بشر بالمسيح» لنعرف أن هذا الأسلوب فى الكلام متفرد ولا يمكن تفسيره وهو موجود بكثرة فى العهد الجديد وإذا كان هذا الكلام قاله المسيح ، وإذا كان الهدف الأساسى من العهد الجديد اعتباره إلهاً وكأنه يشارك الأب فى الألوهية الكاملة فنحن نتحدى خصومنا أن يعطونا صفحة واحدة فى العهد الجديد تعنى فيها كلمة الله ثلاثة أقانيم حيث إنها لم تعد مقصورة على إقنيم واحد وبحيث إننا إذا لم نفصلها عن معناها العادى عن طريق ربط الكلام ببعضه فإنها لا تعنى الأب وأى دليل أقوى من أن عقيدة التثليث ليست أساس اعتقاد المسيحية ! وهذه العقيدة إذا كانت حقيقية يجب أن توضح توضيحاً كاملاً وأن ينظر إليها بحرص شديد ، وأن توضح بكل دقة ممكنة بسبب صعوبتها وأهميتها وتفردها ولكن أين نجد هذه الصفحة فى الكتاب المقدس من الصفحات العديدة التى تتحدث عن الله وفيها ذكر لهذه العقيدة ؟

ونحن نتحدث عن إله واحد ونتساءل عنه فيقال لنا إنه ذو ثلاثة أقانيم أو إنه ذو ثلاثة أوجه أو إنه الأب والابن والروح القدس ، وعلى العكس من ذلك نجد فى العهد الجديد حيث نتوقع تعبيرات عديدة واضحة عن وجود إله واحد بدون أية محاولة لمنع قبول هذه الكلمات عنه بلغة يفهمها الجميع والتى تعنى إلهاً واحداً ، ولا توجد أية فكرة أخرى عن الله بدون الإشارة إليها وهكذا تحرم الكتب المقدسة عقيدة

التثليث والتى إن وضعها خصومنا فى معتقداتهم وتسبيحاتهم فإنهم بذلك يكونون قد خرجوا على الكتاب المقدس باختراعهم لصيغ كلامية لا تقننها أساليب الكتاب المقدس وهذه العقيدة غريبة جداً وغالباً ما تؤدى إلى سوء الفهم ويقال إنها أساسية جداً وتحتاج إلى هذا العرض الدقيق لها ولذلك يجب تركها بدون حماية ولا هوية ولا استدلال وأن يحاول الآخرون تجميع أدلة لها من خلال أجزاء متفرقة من الكتاب المقدس ، وهذا الأمر من الصعوبة بمكان بحيث لا يستطيع عبقرى أن يفسره .

ونحن نواجه صعوبة أخرى وهو أن المسيحية نمت وازدهرت بين أعداء ألداء لم يكونوا يريدون إلا أن يروا أجزاء متناقضة فيها ولذلك تمسكوا بحدة بهذه العقيدة التى تحوى متناقضات واضحة ، ولا يمكن لنا أن نتصور عقيدة رفع عليها اليهود راية العصيان مثل تلك العقيدة واليهود معروفون بافتخارهم بوحدانية الله ولكن كيف حدث ذلك ؟ عندما ننظر إلى كتابات الرسل التى تروى مظاهر المعارضة للمسيحية وإلى الاختلافات التى نشأت من تلك الديانة لا يمكن أن نروى كلمة واحدة ، وخصوصاً عن مظاهر الاعتراض على الإنجيل فى عقيدة التثليث حيث لم تكتب كلمة واحدة دفاعاً عن هذه العقيدة وتفسيراً لها ولم تكتب كلمة واحدة لإنقاذها من الخطأ واللوم . ولذلك فنحن نجادل بوضوح هل الأقانيم الثلاثة دعا إليها الوعاظ الأوائل للمسيحية وقيل فيهم إنهم متساوون وغير محدودين وكان المسيح واحداً منهم ومات على الصليب لكى يمتص خطايا الناس ، وكانت هذه الخصوصية فى المسيحية تجذب إليها الآخرين وكانت المهمة الأساسية للرسل هى التنفير من الهجوم المستمر عليها وإضعافه والذى كان يصل إلى أسماعنا منذ ذلك العهد أما فى رسائل الرسل فلا نجد أى أثر للتناقض يسببه مذهب التثليث .

وهناك وجه للاعتراض على عقيدة التثليث ينبثق من تأثيرها العملى وهو غير مفضل بالنسبة للعبادة وهو تشتيت وإلهاء العقل بعبادة ثلاثة آلهة فإن من أعظم مميزات عقيدة الوحدانية أنها تقدم لنا صوراً من الإجلال والعبادة والحب العظيم لإله واسع وهو المهيمن على كل الكائنات وهو أصل كل شىء ومنبعه وإليه تنسب كل صفة طيبة ، والذى نتأمل فيه بكل مشاعرنا وقوانا والذى تسيطر قدرته الجليلة والعظيمة على كل أفكارنا فالتقوى الحقيقية عندما توجه إلى إله واحد يكون لها تفرد وبساطة ويغلب عليها الخشية والحب الدينى أما الآن فعقيدة التثليث تصنع أمامنا ثلاثة أقانيم للعبادة كل منها مستقل بذاته ، وهى غير محدودة ونقوم بتسبيحها معاً وتؤدى هذه الأقانيم أعمالاً مختلفة وتعبد بطرق مختلفة ونحن بدورنا نتساءل هل يمكن لعقل الإنسان الضعيف والمحدود أن يقرن نفسه بتلك القوة العظيمة كما هو للأب الواسع وهو السبب الذى يتجمع إليه كل بركات الطبيعة كمركز ومصدر للكون أو ليست عبادتنا ستتشتت عن طريق عبادة ثلاثة أقانيم فى وقت واحد أو ليست عبادة المسيحى المستقيم ستشرد عن طريق خشيته إن عبد إقنيما وترك الآخر أن يفقد مفهومه الحقيقى للعبادة والإجلال ؟!

ونحن نؤمن لذلك بأن عقيدة التثليث تؤذى العبادة ليس فقط عن طريق أن تقرن عبادة الأب بأشياء أخرى ولكن عن طريق أن تأخذ من الأب الحب العظيم الذى يستحقه وتنقله إلى الابن ، وهذا هو أهم شىء فى وجهة نظرنا فلو رفع المسيح إلى مرتبة المعبود فسيكون أكثر أهمية من الأب وهذا هو ما نتوقعه من التاريخ ومن الطبيعة البشرية فالناس تريد أن تعبد إلهاً مثلها وهذا هو سر الوثنية فالناس تريد إلهاً بشرياً يشعر برغباتهم وأحزانهم ويخاطب طبيعتها الضعيفة بقوة أكبر من الأب فى السماء فهو مجرد إله نورانى بحت لا يرى ولا يمكن الاقتراب

منه إلا من الأتقياء والأطهار ونحن نعتقد أن المعجزات الفريدة التى ينسبها علم اللاهوت إلى المسيح تجعله أكثر الأقانيم جاذبية فالأب فى نظر هذا العلم هو مستودع العدل والمدافع عن الحق ومدبر الشرائع القدسية ومن ناحية أخرى يكون الابن هدى الرحمة الإلهية وهو يقف وسيطاً بين القدسية الإلهية والبشرية المذنبة معرضاً حياته للخطر وصدره المليء بالحب لسيف العدالة الإلهية حاملاً عنا خطايانا بدمه ومستمداً بركاته من السماء .

هل نحتاج إلى تقرير تأثيرات هذه التمثيلات على المواطن العادى الذى نزلت المسيحية خصيصاً من أجله لكى ترجعه للأب مرضياً عنه .

وأنا كإنسان يؤمن بوحدانية الله فإنى فى المقام الثانى أؤمن بوحدانية المسيح فأنا أؤمن أن المسيح نفس واحدة وعقل واحد وكائن واحد مثلنا تماماً ومنفصل عن الله ، والذى يضايقنا فى عقيدة التثليث هى أنها لا تكتفى بجعل الله ثلاثة أقانيم بل تجعل المسيح كائنين وهكذا تدخل اضطراباً لا حد له فى مفهومنا عن شخصيته وهذا التحريف فى المسيحية ينافى الشعور العام كما أنه ينافى أيضاً الكتاب المقدس وهو دليل ملحوظ على قدرة الفلسفة الزائفة على تشويه حقيقة المسيح البسيطة وهذه العقيدة بدلاً من تقريرها أن المسيح عقلية واحدة مستنيرة وذكية نستطيع أن نفهمها فإنه يتكون من عقلين الأول إلهى والثانى عالم بكل شيء ، وهذا يقسم المسيح إلى شخصيتين : الشخصية الأولى إقنيم فى الثالوث المقدس والشخصية الثانية مكونة من عقلين غير محدودين يختلف كل منهما عن الآخر وهذا من مظاهر إساءة استعمال اللغة والخلط بينها ، وهذا بدوره يلقى بظلاله على كل مفاهيمنا عن الله وطبقاً لما عرف عن هذه العقيدة فإن كلا من عقليتى المسيح لها إرادتها ووعيها ومشاعرها الخاصة بها وليس لهما أية صفات مشتركة فالعقل الإلهى فيه لا يشعر برغبات وأحزان

الجنس البشرى لأن الجنس البشرى بعيد بصورة كبيرة عن كمال ورضا الله فهل يمكن لنا أن نتصور وجود كائنين فى الكون مميزين عن بعضهما ونحن نؤمن بأن الذى يميز شخصاً عن آخر هو شعوره ، أما الاعتقاد بأن نفس الشخص يمكن أن يملك شعورين وإرادتين ونفسين كل منهما مختلفة عن الأخرى بلا حدود فهو ضريبة باهظة تدفعها السذاجة الإنسانية ، وإذا كان هناك أى اعتقاد عسير وغريب وبعيد جداً عن كل المفاهيم الإنسانية السابقة عليه ونزل به الوحى يجب علينا أن نتعلمه بحرص شديد ونحن نسأل إخواننا أن يرشدونا إلى أى موضوع بسيط ومباشر وصريح في الكتاب المقدس يقال فيه إن المسيح يتكون من طبيعتين مختلفتين تماماً فلا نجد أنه شخص واحد ويخبرنا المسيحيون الآخرون أن هذا الاعتقاد ضرورى لتوحيد الكتب المقدسة ، وبينما نجد أن بعض النصوص تنسب إلى المسيح طبيعة بشرية والأخرى تنسب إليه صفات إلهية نحاول أن نوفق بين تلك النصوص ولذلك فنحن نفترض فيه طبيعتين تنسب إليهما هذه الصفات وبمعنى آخر لكى نوفق بين عدة نصوص مؤكدة صعبة الفهم نختلق افتراضاً أكثر صعوبة وقد يتضمن كثيراً من السخافات فنخرج من متاهة لنقع فى أخدود لا يمكن الخلاص منه .

وإذا كان المسيح يقيناً يدرك أنه مكون من طبيعتين وأن هذا ملمح أساسى من ملامح رسالته لكانت هاتان الطبيعتان قد أثرتا على أسلوبه فى الكلام .

وأية لغة فى العالم ترتكز على هذه الفكرة وهى أن كل إنسان عبارة عن نفس واحدة وعقل واحد وعندما سمعت الجموع اللغة التى تكلم بها المسيح فهمتها بمعناها العام وأنها كانت نابعة من نفس واحدة إذ لم يفسرها هو بمعنى مختلف ولكن أين نجد هذه التعاليم الغريبة فى العهد الجديد ، أين نجد هذه اللغة التى تتضمنها كتب التثليث والتى

نشأت بالضرورة من الاعتقاد بوجود طبيعتين للمسيح وأين يقول هذا المعلم بما معناه : «هذا ينطبق على عقلى البشرى وهذا ينطبق على صفاتى الإلهية» وأين يمكن أن نجد فى رسائل الرسل أى أثر لهذا الأسلوب الغريب ؟! لا نجد مكاناً لذلك فلم يكن ذلك مطلوباً فى ذلك العهد ولكنه نتاج أخطاء عهود لاحقة .

ولذلك فنحن نؤمن أن المسيح كائن واحد وعقل واحد منفصل عن الله ونتمنى أن تكون مظاهر اختلافنا هذه حقيقة مدهشة لها وزنها .

والمسيح فى مواعظه كان يتكلم عن الله باستمرار وكانت هذه الكلمة فى فمه وهنا نتساءل هل هو بنطقه هذه الكلمة كان يعنى نفسه؟ والجواب لا ولكن على العكس كان يفصل فى كلامه بينه وبين الله . وكذلك كان يفعل حواريوه فكيف يمكن أن نوفق ذلك مع فكرة أن ألوهية المسيح كانت الهدف الأساسى للمسيحية وهذا ما يجب أن يعترف به خصومنا .

وإذا بحثنا فى نصوص الكتب المقدسة التى تميز المسيح عن الله سنرى أنها لا تتكلم عنه فقط ككائن آخر ولكنها تعبر عن عبوديته لله فنرى الكلام عنه باستمرار كابن لله مرسل من الله وأنه كان يستمد قدرته منه وأنه كان يفعل المعجزات لأن الله كان معه وأنه كان يحكم بالحق لأن الله علمه ذلك ، وكان يعيب على إيماننا لأن الله أرسله وكان يتكلم بكلامه وليس من نفسه ونرى العهد الجديد كله يمتلئ بهذه اللغة والآن نتساءل ما هو التأثير الذى كانت تؤديه هذه اللغة وهل تصور الذين سمعوه أن المسيح كان الله نفسه الذى كانوا سيعبدوه بصورة آلية والذى أرسله وأعطى له رسالته وقدرته ؟!

ويعترف أتباع عقيدة التثليث أنهم استمدوا بعض المزايا المهمة فى طريقهم لوصف المسيح فقد ألهمتهم بفكرة التكفير اللا محدود فهى تصور المسيح وكأنه يعانى ويتعذب من أجل خلاص البشر من الخطايا

وتدهشنا طريقتهم الواثقة فى تكرار هذه الفكرة الخاطئة وعندما نتساءل عما إذا كانوا يؤمنون بأن الله الذى لا يتغير واللامحدود قد عانى ومات على الصليب يجيبون بأن هذا ليس حقيقيًا وإنما طبيعة المسيح البشرية هى التى عانت من الموت إذ كيف يعانى إلهنا من الموت وهذه اللغة فى الكلام تبدو لنا أنها مفروضة على العقل البشرى وأنها تنقص من العدالة الإلهية وكأن شطحات الصوفية والخيال تبررها».

وهكذا بالرغم من إيمان تشابنج بأن المسيح قد صلب وبعث فإنه كان يتصور مدى سخافة معتقد التكفير بالرغم من عدم علمه بأن الأحداث التى بنى عليها مذهب التثليث لم تقع وكان تشابنج يفند معتقد التكفير على الأسس التالية :

أولا : لا يوجد نص فى الكتاب المقدس يخبرنا أن ابن الإنسان إله ، وأنه كان يكفر عن خطايا البشر .

ثانياً : أن هذا المعتقد يخبرنا أن الإنسان بالرغم من أن الله خلقه مخلوق ناقص وخاطئ وغير كامل فإن الله ينظر إليه وكأنه متهم بأبشع الخطايا .

ثالثاً : أن الموحدين يؤمنون بأن الله يغفر الخطايا بدون هذا المبدأ المتصلب .

رابعاً : أن هذا المعتقد الذى يتحدث عن الله وكأنه ضحية وفداء لعبيده الخطاة غير منطقى لأنه لا يوجد فى الكتب المقدسة .

خامساً : أن التكفير يحدث لله وليس من الله .

سادساً : إذا كان التكفير قد حدث من الله كما هو متصور وعانى من الألم فسيضع ذلك فى باله ويبتلينا بأشياء لا يمكن أن يتصورها العقل .

سابعاً : وللخروج من هذا المأزق قيل لنا إن المسيح عانى كرجل وليس كإله وإذا كان قد عانى لفترة قصيرة ومحدودة فما هى ضرورة التكفير عن خطايا البشر .

ثامناً : أن الله فى السماوات له قدرة وكمال غير محدود ولا نحتاج لإنسان كي يخلصنا .

تاسعاً : أن هذا المعتقد يقلل من مكانة الله حيث يقول إنه بدون مساعدة الإقنيم الثاني والثالث لم يكن يخلص لخلاص الإنسان وإذا كان إرضاء العدالة ضرورياً لخلاص الإنسان فقد كنا سنجد ذلك معبراً عنه بوضوح وتحديد فى نص واحد على الأقل من الكتاب المقدس .

عاشراً : هذه العقيدة تشبه القاضى الذى يحكم على نفسه لجريمة ارتكبها متهم فى المحكمة يقول الكتاب المقدس فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس : «لأنه لابد أننا جميعاً نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً» وأيضاً : «فإن كل واحد منا سيعطى عن نفسه حساباً لله» .

إذاً إذا كان صلب المسيح يرضى العدالة الإلهية عن خطايا الناس الماضية والحاضرة والقادمة يكون الله قد فقد القدرة على التقوى والحياة الفاضلة بعقاب المسيح على خطايا البشر .

وإذا كان الله يعاقب المسىء فى يوم الحساب فهذا يعنى أن الله لا يخلف الميعاد وأن عقيدة التكفير ليست صحيحة .

وحتى عام ١٨١٩ كانت اجتماعات حركة الموحدين تعقد إما فى المنازل أوفى قائمة الكلية الطبيعية فى شارع باركليى فى بوسطن وفى عام ١٨٢٠ بدأ العمل فى بناء كنيسة للموحدين وتم إنشاؤها عام ١٨٢١ وبالرغم من استتباب الأمر لحركة الموحدين فلا زال الناس فى ذلك الوقت يسمونهم الهراطقة والخونة أو الكفرة وشهد ذلك العام تغييراً فى سياسة الدعوة الحذرة لحركة الموحدين .

وحتى ذلك الوقت تلقى تشابنج هجوماً حاداً من جانب وعاظ الكنيسة الأرثوذكسية وبدون أن يرد عليهم شعر أن الوقت قد حان لكى يدافع عن عقيدته بكل القوة التى فى حوزته وبكل جرأة ضد تحيز

الكنيسة الأرثوذكسية وفى كتابه «تاريخ حركة الوحدانية» يكتب إى إم ويلبر عن تشابنج بقوله : «كان المبدأ الذى يدافع عنه أن الكتب المقدسة عندما تفسر بطريقة منطقية فإنها تظهر عقيدة الموحدين» وكان هذا الكتاب يشرح العقائد الأساسية التى يختلف فيها مذهب الموحدين عن المذهب الأرثوذكسى ويضعها تحت المحك والبحث المستفيض ، وشن هذا الكتاب هجوماً شديداً على الكالفينية كمذهب غير منطقى وغير إنسانى وغامض كما هاجم المذهب الأرثوذكسى وطالب ببحثه بطريقة منطقية ترضى ضمائر الناس .

ومما زاد فى دعم حركة الموحدين فى أمريكا الاجتماع الذى عقد فى مدينة ماسوشيتس عام ١٨٢٣ حيث حاولت الأرثوذكسية أن تجرى اختباراً لعقيدة القساوسة الذين يدعون لعقيدة الوحدانية وفشلت هذه المحاولة مما أدى إلى انتشار صيت عقيدة الموحدين وتوحد أتباعها بمختلف صورهم دفاعاً عنها .

وفى عام ١٨٢٧ أنشئت ثانى كنيسة للموحدين وتم افتتاحها وألقى تشابنج أول موعظة فيها ويقول إى إم ويلبر إن الفضل يرجع إلى تشابنج فى أن مذهب التثليث بالرغم من الاعتراف به رسمياً لم يعد أساس العقيدة الأرثوذكسية ولم يعد يتم التركيز عليه كما كان فيما مضى كما يرجع إليه الفضل أيضاً فى أن عقائد الكالفينية كانت تفسر بطريقة جديدة كان يرفضها مؤسسها من قبل .

ولم تحدث هذه التطورات بدون مقاومة ففى عام ١٨٣٣ هوجمت حركة الموحدين ووصف أتباعها بالخونة ذوى الدم البارد ووجهت إليهم بعض الإهانات التى لم توجه من قبل حتى فى عصر القهر الدينى والتعصب الأعمى ، ويروى أنه فى عام ١٩٢٤ اجتمع عدد من الموحدين يصل إلى ثلاثين أو أربعين فى بوسطن وشكل هذا الجمع جميعة مترابطة وهذا يعنى أنه بالرغم من أن الموحدين فى العصر

الحديث لم يلاقوا نفس المصير الذى لاقاه أجدادهم فقد كان أى مسيحى يعتنق عقيدة الوحدانية يضع نفسه فى مأزق خطر .

وبقى تشابنج ثابتاً على عقيدته حتى وفاته ولم يكن المسيح بالنسبة إليه إنساناً فقط ولكنه نبى موحى إليه من الله .

وخالف تشابنج عقائد الكالفينية فى فسوق الإنسان والغضب الإلهى وتضحية المسيح للتكفير عن أخطاء البشر بفكره المستنير الذى يتضمن عظمة النفس الإنسانية والحب الروحى المتواصل بين الإنسان والله وتقبل النفس للروح وقدرتها على تكوين واستكمال ذاتها وخلودها وكان هذا تغييراً جديداً فى العقيدة يختلف عن المنطق الثابت ووصف ظواهر الطبيعة كما كان يفعل بريستلى مما أدى إلى ازدهار حركة الموحدين ليس فقط فى أمريكا ولكن فى إنجلترا أيضاً . فبريستلى كان مجرد عالم طبيعة وكان منطقه سليماً ولكن كانت نظرته مادية ، أما تشابنج فرفع هذه النظرة إلى آفاق روحية وكان لكلماته تأثيرعجيب على أوربا وأمريكا عندما كان يقول : «إن منطق الإنسان وتفكيره مستمد من الله» وكان يثور على أى شكل من أشكال ضيق الأفق وكان العداء الطائفى ينافى طبيعته السمحة وانتشرت هذه الروح السمحة فى زعماء هذه الحركة مما أدى إلى إنشاء مدرسة جامعة هارفارد للاهوت عام ١٨٦١ . وكان ميثاق إنشائها يتضمن أنها تشجع أى بحث جاد وغير متحيز ومستقيم يبحث فى حقيقة المسيحية ولا وجود للروح الطائفية فيها سواء من جانب الطلبة أو من جانب الأساتذة .

وفى عام ١٨٢٥ أنشئت جمعية الموحدين الأمريكية فى نفس العام الذى أنشئت فيه جمعية الموحدين البريطانية فى إنجلترا وترك رالف والدوإميرسون (١٨٠٣-١٨٨٢) منبر الوعظ فى كنيسة بوسطن لأن الفجوة بين التفكير القديم والجديد كانت كبيرة ونادى أعضاء الحركة بأن ديانة المسيح تدعو إلى حب الله وعبادة الإنسان لله وكان هذا فى

حد ذاته ديانة كاملة ، واستمرت هذه الحركة فى المسيحية حتى يومنا هذا ، وكثير من الطوائف المسيحية - بالرغم من جهلها بحقيقة وجود المسيح وكيف كان ، وكيف كان سلوكه نحو الناس ومعاملته لهم ، وكيف كان يعيش حياته ويؤدى أعماله - لازالت تؤمن بإله واحد وتعيش طبقاً لتعاليم الكتاب المقدس بالرغم من الاختلاقات بينها ، وبالرغم من الاضطراب الذى سببته عقائد مثل التكفير والفداء والتثليث مع غياب أى مصدر هداية حقيقى يبين كيف كان المسيح يعيش والذى كان السبب فى رفض اعتناق المسيحية من جانب كثيرين مما أدى إلى أن نرى الكنائس اليوم فارغة من الناس .

الفصل الثامن
المسيحيـــة اليـــوم

لكى نصف طبيعة المسيحية اليوم يجب أن نضع فى اعتبارنا الفرق بين المعرفة التى تصل للإنسان عن طريق الملاحظة والاستنتاج وتلك التى يوحى بها إلى الإنسان من الله .

فالمعرفة الاستقرائية أو الاستنتاجية دائماً ما تتغير فى ضوء الملاحظات والتجارب الجديدة وبالتالى لا تكون يقينية أما المعرفة الموحى بها فمن الله وفى أى رسالة سماوية يوجد الجانبان المادى والروحى أما الجانب الروحى فيعلمها ويجسدها رسول موحى إليه من الله وتتمثل فى طريقة حياته وعندما نقتدى برسول فإننا نهتدى بهذه الرسالة وفى هذا الهدى اليقين .

والمسيحية اليوم يقال إنها رسالة موحى بها من الله ولكن لا يوجد أى كتاب مقدس يتضمن تعاليم المسيح ورسالته مجسمة وتماماً كما أوحى بها إليه من الله ولا يكاد يوجد أى نص على سلوكه وطريقته فى التصرف ، ولا تتضمن كتب العهد الجديد أية روايات شاهدة على أقواله وأفعاله والذين كتبوها استمدوا معرفتهم من الذين اتبعوه ولم يشاهدوه وهذه الروايات ليست شاملة ، أما كل شيء قاله المسيح وفعله ولم يسجل تاريخياً فقد فقد إلى الأبد .

وهؤلاء الذين يحاولون تصحيح روايات العهد الجديد يقولون إنه إن لم يكن شاملاً فهو دقيق على الأقل ومن المعلوم أن كل مخطوطات العهد الجديد القديمة والباقية ، وحتى أقدم المخطوطات التى أخذت منها الترجمات الحالية للكتاب المقدس قد كتبت بعد انعقاد مجمع نيقيا ؛

فيرجع تاريخ كتابة مخطوطات الفاتيكان ومخطوطات السينت إلى آخر القرن الرابع الميلادى ، أما مخطوطات الإسكندرية فترجع إلى القرن الخامس الميلادى .

وكنتيجة لانعقاد مجمع نيقية تم التخلص من ثلاثمائة إنجيل عن حياة المسيح بعضها كان شاهد عيان لها وكانت وقائع مجمع نيقية توحى بأن الكنيسة البولسية كان لديها كل الأسباب التى تدعو إلى تغيير الأربعة أناجيل التى بقيت ، وتختلف مخطوطات العهد الجديد التى كتبت بعد مجمع نيقية عن تلك التى كتبت قبله ومن المعلوم أنه قد تم منع نشر بعض لفائف البحر الميت التى لا تتفق مع مخطوطات العهد الجديد التى كتبت بعد انعقاد المجمع . وتعترف الكنيسة ذاتها بعدم مصداقية الأناجيل ، ولذلك لا تتفق الفلسفة الروحية للمسيحية اليوم مع ما كتب فى الأناجيل والكنيسة اليوم ترتكز دعائمها على عقيدة الخطيئة الأولى والتكفير والفداء وألوهية المسيح وألوهية الروح القدس ومبدأ التثليث ولم تكن أى من هذه العقائد مذكورة فى الأناجيل ولم يدعُ إليها السيد المسيح بل كانت نتاج البدع التى جاء بها بولس وتأثير الفلسفة والثقافة اليونانية ولم يصاحب بولس السيد المسيح ، ولا نقل عنه تعاليمه نقلاً مباشراً وكان قبل اعتناقه المسيحية يضطهد أتباع المسيح وكان لا يلتزم بسلوكيات وتصرفات المسيح عندما نقل المسيحية إلى اليونانيين وغيرهم من الأمميين أما صورة المسيح التى ادعى أنها جاءته فى المنام وعلمه عقيدته الجديدة فهى محض خيال وترتكز عقيدته على حادثة لم تقع مثل صلب المسيح وانبعاثه من الأموات .

وبالرغم من أن هذه العقائد ذات أصول مشتبه فيها إلا أنها تدرس لكل من يتعلم تعليماً مسيحيًا وبالرغم من عدم تقبل كثيرين لهذه التعاليم فإن السحر الذى يجعلها مقبولة من الناس هو أن كثيراً ممن يدعو إلى صحتها يدفعهم المنطق إلى الإيمان بهذا المبدأ المشهور : «خارج الكنيسة لا يوجد

خلاص» أما فلسفة الكنيسة الروحية فتقول إن عقيدتى الكفارة والفداء تثبت أن المسيح كان إلهاً فى صورة بشر ومات لكى يخلص الجنس البشرى من جميع خطاياه .

وتضمن الكنيسة بذلك غفران الخطايا والخلاص فى يوم الحساب لأى إنسان يؤمن بالمسيح ويتبع هداها ، وهذا العقد بين الكنيسة والمسيحيين سار إلى نهاية العالم وكانت نتائج الإيمان بهذه العقيدة كما يلى :

أولاً : أنها تتضمن أن الإنسان ليس مسئولاً عن أفعاله وأنه لن يحاسب عليها بعد وفاته لأن أى شىء سيفعله مهما كان جرمه سيكفر عنه فداء المسيح له ، وهذا لا يعنى بطبيعة الحال حياة سعيدة على الأرض وإيمانه بعقيدة الخطيئة الأولى التى تعنى أن كل الناس قد ولدوا خطاة منذ وقعت خطيئة آدم الأولى وبسببها وهذا يعنى أن الإنسان يعيش منذ بداية حياته فى حياة لا يستحقها وكمذنب بسبب ذلك .

وهذا الموقف المأساوى يفسره لنا جيه فوس وهو مسيحى ولكنه يقارن بين المسيحية والإسلام :

«لايوجد شىء فى الإسلام يدعو المرء إلى أن يقول : «أيها الرجل الساحر الذى سيخلصنى من براثن الموت وإنى أعرف أننى لست رجلاً صالحاً من داخلى» فأية ديانة لها أهداف منطقية لا تقدم للمذنب صورة الذنب ولا محاولته الفاشلة لإصلاح نفسه وبلوغها درجة الكمال ؟ .

وإنى أقول باختصار إن الإسلام يجعل الإنسان يشعر بصلاحه بينما المسيحية تجعل الإنسان يشعر بذنبه ولذلك تعتبر المسيحية ديانة القلب المحطم وليس الإسلام » .

ثانياً : يؤدى الإيمان بعقيدة التكفير والفداء إلى وقوع اضطراب فى تفكير المسيحى وخصوصاً عندما يعقد مقارنة بين التعاليم المرسلة إليه والرسالات السماوية الأخرى فهى تتضمن أن تضحية المسيح ورسالته فريدة وأخيرة ، ولذلك لا يتقبل المسيحى تعاليم الأنبياء الآخرين وفى

نفس الوقت لا يمكن له أن ينكر صحة هذه التعاليم وهكذا يرفض المسيحى اليهودية ، ولكنه يتقبل العهد القديم والذى تستمد تعاليمه من تعاليم موسى التى دعا إليها اليهود ويضع المسيحى نفسه بذلك فى موقف متناقض حيث يؤمن بكتابين متناقضين أشد التناقض والنص التالى يوضح ذلك :

«تشتمل العقائد غير المسيحية على مبادئ صالحة نسبياً فبينما يدعو الكتاب المقدس إلى الابتعاد عن الديانات الكاذبة ونجد آثار الديانات الوثنية فيه ، لا نزال نعتقد بأن بعض المبادئ الصالحة توجد فى هذه الديانات وبينما نعتقد أن طبيعة هذه الديانات أسطورية نجد أنها من نتاج تفسير الإنسان الفاسد للوحى الإلهى وقد تكون هذه الديانات من عمل الشيطان .

ولكنها ليست من عمل الشيطان فقط وإنما هى نتاج سوء فهم الإنسان للوحى الإلهى من ناحية وإساءة استعمال نعمة الله من ناحية أخرى» .

وهنا يتضح أن فوس وهو مؤلف هذا النص لا يذكر كل التحريفات التى توجد فى الكتاب المقدس وللتغلب على مشكلة الاعتراف بالعقائد غير المسيحية أو عدم الاعتراف بها من جانب المسيحيين قيل إن بعض المسيحيين يلمسون فيها تأثير المسيح الكونى الذى يرسل الوحى الخالد وهو النور الذى يهدى كل إنسان فى نظرهم .

ولقد لخص وجهة النظر هذه وليام تيمبل بقوله :

« كلمة الله تعنى الحقائق التى قال بها وكتبها المسيح وإشعيا وأفلاطون وزوروستر وبوذا وكونفوشيوس وهى تعنى : إله واحد يستضىء بهديه كل إنسان» .

ويعتمد المنطق فى هذا الكلام على افتراض أن الله والمسيح سيان ولأن المسيح هنا مجرد خيال فإن هذه العقيدة تهتز ولكن تبقى هذه المشكلة .

ولقد صور جورج أورويل ذلك في كتابه «التفكير المزدوج» ووصف هذه الكلمة كالتالي :

«تعني كلمة التفكير المزدوج القدرة على اعتناق عقيدتين متناقضتين وقبولهما ، فالفيلسوف يعرف أنه يتعدى الواقع ولكن عن طريق التفكير المزدوج يرضي نفسه بأنه لم يفعل ذلك » .

والتفكير المزدوج هنا يتمثل في اعتقاد المسيحي أن المسيح هو الله وحول ذلك الاعتقاد نشأ الخلاف حول طبيعة المسيح فيقال في وقت إنه إنسان وفي وقت آخر إنه إله وعن طريق هذا التفكير المزدوج يمكن لإنسان أن يعتنق هاتين العقيدتين المتناقضتين وأن يثبت إيمانه بمذهب التثليث لذلك .

ويبدأ القانون رقم سبعة من التسعة والثلاثين قانوناً للكنيسة الإنجليزية بالآتي : «العهد القديم ليس مناقضاً للعهد الجديد» .

وكما أوضح ميلتون من قبل أن العهد القديم مليء بالنصوص التي تؤكد وحدانية الله ولا يوجد نص واحد يصف ألوهية المسيح بمقتضى عقيدة التثليث .

وعندما نؤمن بالعهد القديم والأناجيل ونؤمن في نفس الوقت بعقيدة التثليث فإن ذلك أكبر أثر للتفكير المزدوج في المسيحية اليوم وهكذا يرتكز المنطق الفلسفي للكنيسة اليوم ، على تعاليم وعقائد لم يعظ بها المسيح ومبادئ غامضة ليس فقط عن طبيعة المسيح ولكن عن الله نفسه .

وفلسفة الكنيسة اليوم مناقضة لتعاليم المسيح والجانب المادي منها مثل سلوك المسيح وتصرفاته لم يعد موجوداً ولكي نقتدي بالمسيح يجب أن نفهم رسالته ، ولا يوجد أي تسجيل تاريخي لسلوكه وحتى القليل الذي نعرفه من الممكن تجاهله وكان أبرز شيء في المسيح هو عبادته للخالق وهذا هو سبب خلق الإنسان ولا يوجد أي مسيحي اليوم يعبد الله بالطريقة التي كان يعبده بها المسيح . وكان المسيح يصلي دائماً في الهيكل وتبعاً

لأوقات محددة يومية في الصباح وفي وقت الظهر وفي المساء ولم تعد طريقة صلاته معروفة اليوم ولكن من المعلوم أنها كانت مثل الصلاة التي كان يؤديها موسى . ولقد قال المسيح صراحة أنه ما جاء لينقض الناموس ولكن ليكمله وتلقى المسيح تعليمه في أورشليم عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة وقام بإلقاء المواعظ في الهيكل ولذلك كان يحافظ دائماً على نظافة الهيكل ولا يؤدى المسيحيون اليوم العبادات كما كان يؤديها ، وهنا نسأل سؤالاً : كم عدد المسيحيين الذين ختنوا كما ختن المسيح ؟ أما العبادات التي تؤدى اليوم في الكنيسة فإنها نشأت بعد اختفاء المسيح ، وكثير منها مستمد من شعائر الطقوس الوثنية الأسطورية اليونانية والرومانية .

والصلاة التي تؤدى اليوم في الكنائس ليست هي الصلاة التي كان يؤديها المسيح ولا الابتهالات التي تقال قد قالها هو ، ونظراً للبدع التي أدخلها بولس وأتباعه على المسيحية لا توجد أية تعاليم موحي بها عما يؤكل ومالا يؤكل من الطعام وكل من يتلقى تعليماً مسيحياً يأكل على حسب هواه وكان المسيح وأتباعه لا يأكلون إلا لحم الكوشير وكانوا لا يأكلون لحم الخنزير لأن الله حرمه عليهم وكانت وجبة الفصح هي آخر وجبة تناولها المسيح قبل اختفائه ، ولا يحتفل أى مسيحى اليوم بهذا العيد اليهودى القديم الذى كان المسيح يحرص على الاحتفال به ، ولا يعرف حتى الآن بأية طريقة كان المسيح يأكل ويشرب ومن كان يأكل معه ومن كان لا يأكل معه وأين كان يأكل وأين كان لا يأكل وكان المسيح يصوم ، ولكن بأية طريقة ؟ لا يعرف ، وأين ومتى كان يصوم ؟ لا يعرف ، ولا يوجد أى سجل تاريخي بنوع الطعام الذى كان يحبه والطعام الذى كان لا يحبه ولم يتزوج المسيح وهو على وجه الأرض ولكنه لم يحرِّم الزواج ولا يوجد أى نص في الأناجيل يقرر على أتباع المسيح أن يأخذوا على أنفسهم العهد بالتبتل أو الرهبنة ولا أى نص ينص على إقامة مجتمعات للرهبان أو

الراهبات بالرغم من أن هذه المجتمعات قد تستمد صحة وجودها فى صورة أديرة من مجتمعات الإسينيين ، أما أتباع المسيح الأوائل الذين تزوجوا فقد اتبعوا تعاليم موسى عند زواجهم ولا يقتدى بهم اليوم ويظهر التفكك الأسرى فى الغرب الحاجة إلى وجود دليل أخلاقى لسلوكيات الزواج وكيفية معاشرة الزوج لزوجته ومعاشرة الزوجة لزوجها أما اقتباس مبدأ أخلاقى من الأناجيل ومحاولة السير على هديه فلا يساوى اتباع أى مبدأ بطريقة مؤكدة عن طريق الاقتداء بالمسيح لأنه كان يتصرف فى هذا الموقف بهدى من الوحى الإلهى وكل ما تم فى هذا السبيل فهو نتاج البحث الاستنتاجى . ولا يعلم كيف كان المسيح يمشى وكيف كان يجلس وكيف كان يستيقظ وكيف كان يُحيّى الناس وكيف كان يعامل كبار السن من الرجال والنساء ، وكيف كان يعامل النساء ، وكيف كان يعامل الغرباء ، وكيف كان يعامل الضيوف ، وكيف كان يعامل أعداءه ، وكيف كان يتعامل فى الأسواق وكيف كان يسافر ، وما الذى حلل له وما الذى حرم عليه .

وجميع المعلومات المتعلقة برسالة المسيح كما أوحى الله بها إليه غير كاملة وغير دقيقة والعقائد التى ترتكز عليها المسيحية اليوم لا توجد فى الكتب المقدسة ولا يعرف كيف كان يتصرف المسيح لأنه لا يوجد أى سجل تاريخى بذلك ، أما القليل الذى نعرفه عنه فيتم تجاهله عن طريق الكنيسة التى أعلنت نفسها المفسر والحارس لرسالة المسيح ونظام الكنيسة المعروف اليوم لم يقرره المسيح فهو لم يقرر تسلسلاً للقساوسة فى المراتب بحيث إن القسيس يكون وسيطاً بين الإنسان وربه فحتى الآن ومنذ زمن قديم جداً جعلت الكنيسة المسيحيين يؤمنون أن خلاصهم مؤكد إذا آمنوا وتصرفوا بالطريقة التى تدعوهم إليها ، ونحن بدورنا نتساءل من أين تستمد الكنيسة هذه السلطة ؟

وهذه السلطة الدينية موجودة بصورة مغالى فيها فى عقيدة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والتى تقول بعصمة الباباوات ولقد لخص

الكاردينال هينان هذه العقيدة بتلك الكلمات :

«يرجع سر وحدة كنيستنا فى وعد المسيح بأن الكنيسة لن تفشل فى تعليم الحقيقة وبمجرد أن نعلم أن الكنيسة تعلمنا فنحن نتقبل هذا التعليم لأننا نعلم أنه حقيقة وكل القساوسة الكاثوليك يعلمون نفس العقيدة لأنهم يطيعون البابا وكلمة البابا تعنى الرجل الذى يحل محل المسيح كرئيس للكنيسة وتبقى الكنيسة متحدة لأن كل أعضائها يؤمنون بنفس العقيدة وهم يؤمنون بها لأن الكنيسة لا يمكن أن تعلم تعليماً كاذباً وهذا هو ما نعنيه عندما نقول إن الكنيسة معصومة والمسيح نفسه وعد بهداية الكنيسة بعدة طرق منها أن يترك الرجل الذى يحل محله على الأرض لكى يعظ باسمه ؛ وهذا هو سبب قولنا إن البابا معصوم فهو رئيس الكنيسة المعصومة ولا يمكن لله أن يسمح له بأن يقودها إلى الخطأ .

نلاحظ هنا أن الكاردينال هينان يتحدث فقط عن المسيح وليس عن يسوع ولا يشير إلى الأناجيل لكى يؤيد مزاعمه .

وكانت هذه العقيدة يثبت خطؤها على الدوام لأنه لو كان كل الباباوات معصومين فلماذا لُعن البابا هونوريوس ؟ وهل المنشور البابوى الحديث الذى يقرر عدم مسئولية اليهود عن قتل المسيح يعنى أن كل البابوات السابقين ليسوا معصومين على الإطلاق .

ويرفض كثير من الروم الكاثوليك صحة القول بأن المسيح وعد بأن الكنيسة لن تفشل فى تعليم الحقيقة والدعوة إليها وهذا القول غير موجود فى أى من الأناجيل الموجودة ، وتوجد فجوة كبيرة بين تعاليم الكنيسة والمشاكل التى تنتج من ممارسة هذه التعاليم . ويقول كبير أساقفة السينساتيين وهى إحدى الطوائف ويدعى جوزيف . ل برنادين فى مقابلة فى إحدى كنائس الروم الكاثوليك الأمريكية : «يعتبر الكثير من الكاثوليك أنفسهم صالحين رغم أن ممارساتهم ومعتقداتهم قد تتعارض مع تعاليم الكنيسة الرسمية» .

وهذه هى المفاهيم الجديدة التى يؤمن بها الكاثوليك اليوم فبمجرد أن يصدر البابا فتوى بتحليل أكل اللحوم يوم الجمعة كما حدث عام ١٩٦٦ ينظر إليه الكثيرون بعين الشك أو أن يصدر فتوى بتحليل تحديد النسل فعليه أن يترك البابوية أو أن يتزوج أو يفعل أى شىء آخر يهواه ويقول جريلى فى ذلك :

«إن الامتناع عن أكل اللحوم يوم الجمعة معناه مجاراة المسيح فى صومه والاحتفال بذكرى صلب المسيح معناه الالتزام بتعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والتى أصبح هذا التقليد عنصراً مميزاً لها لعدة قرون» .

وكتب دوريس جرومباخ فى مجلة الناقد :

«لقد أدهشنى مجلس الفاتيكان الثانى الذى انعقد عام ١٩٦٢ لأنه أجاب على استفسارات كثيرة ولأنه كان يعبر عن عالم خاص من السلوك والضمير ولأن هذا المجمع مثل كل أماكن النفوذ بمجرد أن فتح الباب لمسائل كانت محرمة انهالت عليه الأسئلة والاستفسارات ولم تعد هناك أشياء مطلقة للجدال أو دائمة وأصبحت الكنيسة بالنسبة لى قضية مثيرة للجدال ولازلت حتى الآن متعلقاً بالأناجيل وبالمسيح وبالرغم من أن بعض أتباعه كانوا يمثلون شخصيات مهمة فى حياتى فلم تعد تعاليم الكنيسة ذات أثر فى حياتى ولم أعد أتبعها» .

ولا زال استغلال السلطة فى الكنيسة موجوداً وله جذوره فى الكنائس التى رفضت الاعتراف بسلطة البابا عليها أما مدى صحة هذه السلطة المطلقة للكنيسة فأصبحت محل شك ورفضها الكثيرون على نطاق واسع.

ويقول جورج هاريسون :

«عندما تكون صغيراً يجذبك والداك إلى الكنيسة وتتعلم الدين فى المدرسة ويحاولون أن يلقنوك شيئاً لأنه لا أحد يذهب إلى الكنيسة ويؤمن بالله ، لماذا ؟ لأنهم لم يفسروا الكتاب المقدس كما هو متوقع ولذلك لم أؤمن بالله كما لقنونى لأن ذلك كان أشبه بروايات الخيال العلمى فأنت

تلقن لكى تؤمن ولا حاجة بك لأن تقلق من ذلك فقط آمن كما تعلم» .

ويوزع أتباع المسيح بين اتجاهين إما القبول التام أو الرفض التام لمصداقية الكنيسة كحامية لرسالة المسيح وهنا تتنوع الآراء عن ماهية المسيحى .

ونجد ويلفريد سمث يقول :

«يوجد العديد من مظاهر الخلاف والتراشق والفوضى فى الكنيسة اليوم لدرجة أن المثال القديم للمسيحى التقى قد انتهى ولذلك فات الآوان على توحيد المسيحية عالمياً ، وما حدث هو أن العالم المسيحى تحول إلى عالم يمتلئ بالاختلافات ولذلك لم يعد ممكناً على أى مسيحى أن يقال عليه أو أن يتصور أنه مسيحى بصفة رسمية وكذلك يجب أن يقرر هو لنفسه ما يجب عليه أن يفعله» وهذه النتيجة تعنى أنه يوجد عدد من الطوائف المسيحية مماثل لعدد المسيحيين أنفسهم وأن مكانة الكنيسة كمؤسسة دينية حامية لرسالة المسيح قد انتهت ويتساءل أحد الطلاب فى جامعة كاليفورنيا .

«ما هى فائدة الكنيسة إذا كانت تتعالى على تفكيرى؟» ومع ذلك فقد بقيت الكنيسة جزءاً متكاملاً من الثقافة الغربية اليوم والعلاقة بين الاثنين أصبحت ذات قيمة كبيرة .

وظهر عدد كبير من الكتب فى الغرب خلال القرون القليلة الأخيرة تناقش طبيعة الوجود وهذه الكتب تقدم مصدراً للمعلومات عن كل اتجاهات الفكر الإنسانى التى تبين كيف يكون الإنسان عندما لا يملك رسالة موحى بها من السماء ، تبين له كيف يعيش ويفهم حياته ! وهناك بعض الكتاب مثل باسكال أدركوا كيف أن العقل أداة محدودة وأن القلب هو مركز الوجود الإنسانى وحامل المعرفة الحقيقية وفى ذلك يقول :

«إن القلب له أسبابه التى لاتخضع للمنطق ، والقلب هو الذى يعى وجود الله وليس العقل ، والعقيدة معناها أن الله يشعر به ببصيرة القلب وليس بالعقل» .

ولقد رفض الكثيرون اعتناق المسيحية فى محاولة منهم للوصول إلى القلب واستعملوا طرقاً أخرى للوصول إلى الله وفى ذلك يقال أن التجربة الصوفية هى التى تؤدى إلى معرفة الحقيقة الكونية وهذه الحقيقة لايمكن التعبير عنها بكلمات ولكن يُشعر بها والوسيط قد يكون الموسيقى أو الطب ولقد جرب كثيرون فى الغرب هذه الطرق البديلة للوصول إلى الحقيقة كوسيلة من وسائل شكر النفس لله ، ولقد حاولت الكنيسة أن تكيف نفسها مع هذه الاتجاهات الثقافية الغربية .

وفى محاولة من جانب قساوسة الكنيسة لجذب الشباب قاموا باستضافة فرق البوب الموسيقية وشباب الديسكو ، وهذه الاتجاهات لجذب الفرق الموسيقية وإقامة الحفلات والمعارض والأسواق الخيرية قد تجعل هناك هدفاً للمنضمين إليها ، وتحديث الكنيسة يعتبر اتجاهاً قديماً للكنيسة البولسية لكى تتوافق مع كل الآراء .

وإذا لم تكن الكنيسة تدعو إلى رسالة المسيح فهى تقوم بأداء وظيفة اجتماعية مفيدة وهذه المحاولة للتوافق مع كل الآراء وخصوصاً فى العقد الأخير نتج عنها تداخل الكنيسة فى الثقافة وإعادة استيعاب الثقافة إليها وهى عملية ذات حدين كانت لا تتغير بصورة دائمة منذ أن بدأ بولس وأتباعه دعوتهم وعاد كثير من المسيحيين إلى المسيحية بعد تجاربهم مع الموسيقى والتأمل واستعمال الأدوية وكثير من الناس يميل إلى رفض هذه التجارب كلية وتبنى صورة نقية للمسيحية .

وكل من هذه الاتجاهات تكشف حقيقة نبوة المسيح فهو لا يرقى إلى مرتبة الألوهية أو ينظر إليه كشخصية عقيدية ساحرة كانت تهدف إلى الصلاح ولكن أسىء فهمها ، أما تداخل هوية الكنيسة مع ثقافة الغرب فيتجلى لنا فيما يعيشه الغربيون اليوم باستثناء هؤلاء الذين تراجعوا إلى حياة الأديرة والرهبنة لكى يذكروا الله ، وتعد حياة المسيحيين اليوم مقاربة لحياة الروحيين أو الماديين أو الكفرة وبالرغم من الاختلاف فى

المعتقدات فإن السلوك العام متشابه أما الشرائع التى تسود فى دول الغرب المسيحية والتى تشمل الميلاد والوفاة والزواج والطلاق وحقوق الملكية سواء أثناء الزواج أو بعد الطلاق أو الموت والتبنى والوصاية والتجارة والصناعة فإنها لا توجد فى الأناجيل وهى ليست الشرائع التى أوحى الله بها ولكنها نتاج المعرفة الاستدلالية وهى إما أن تكون مستوحاة من القانون الرومانى أو الممارسات الإنسانية خلال فترة كبيرة من الزمان أو تشريعات معدلة أو موفقة لتتمشى مع النظام الديمقراطى الذى يعتبر إرثاً للحضارة اليونانية القديمة ولا أحد اليوم فى المحاكم القانونية يعتمد على الأناجيل كسلطة ملزمة سواء فى معاملاته مع الآخرين أو يلزم الآخرين بقبولها .

والمسيحية اليوم لا تنفصل عن الثقافة الغربية وتتعامل مع الناس كما تتعامل معهم الدولة ولا يحيا رعايا الكنيسة اليوم كما كان يحيا المسيح ويرجع ثقل الكنيسة أو قيمتها إلى حقيقة أن مسيحيى اليوم تنقصهم قواعد السلوك الاجتماعى ، وهذا النقص يجعلهم فقراء فى هذه الحياة وغير مستعدين لتحمل ما سيحدث بعد الموت ويقول ويلفريد سميث :

«عندما نقول إن المسيحية دين حقيقى فإننا لا نقول شيئاً ذا بال والسؤال الوحيد الذى يشغلنى ويهم الله أو يهم جارى هو : هل المسيحية دين حقيقى سواء كانت دينى أو دينك ؟ وأمام هذا السؤال المصيرى تكون الإجابة فى حالتى : آسف ، هى ليست كذلك» .

والشيء المدهش أمام هذه الحقيقة هو أنه بما أن الكنائس يهرب منها الناس فإن المساجد تمتلئ بالناس .

الفصل التاسع

المسيح فى القرآن

يعتبر القرآن وهو آخر الكتب السماوية التى أرسلها الله إلى خاتم الأنبياء والمرسلين مصدراً لمعرفة المسيح لم يكن معروفاً لمعظم دارسى المسيحية بصفة عامة وهو لا يجعلنا نفهم من هو المسيح فقط ولكنه من خلال هذا الفهم يزيد من احترامنا وتقديرنا له ، والقرآن نزل بعد خمسمائة عام من ميلاد المسيح كآخر كتاب من الكتب السماوية لكى يرشدنا إلى ما هو مهم فى حياة المسيح وتعاليمه ولكى يضع المسيح فى مكانته كنبى بمعناها الواسع ، وهى المكانة التى فهمها الموحدون المسيحيون ويقدم لنا القرآن معلومات عن هذه الصورة بصورة لم يسبقه إليها أى مصدر آخر ، والقرآن لا يقدم لنا معلومات تفصيلية عن حياة المسيح إلا بخصوص وقائع معينة ويذكر لنا المعجزات والقدرات الخاصة التى وهبها الله له ولكن بأسلوب مجمل عام وكذلك يذكر لنا الكتاب الذى أوحى الله به إليه وهو الإنجيل مرات عدة ولكنه لا يذكر لنا مضمون هذا الكتاب بالتفصيل وعموماً يقدم القرآن أسلوباً فريداً فى عرض قصة المسيح فهو يعرض لنا كيف ولد ومن هو ومن لا يستحق أن يكون وكيف انتهت رسالته .

وقبل أن ننظر إلى حياة المسيح قد يكون مفيداً أن نتأمل ما هى رسالته على الأرض وكيف كان يكمل الرسل الذين جاءوا من قبله ومن سيأتى من بعده والمسيح يعتبر واحداً من الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر ورسولاً تعتبر تعاليمه ورسالته تكملة وامتداداً لتعاليم الرسل الذين جاءوا من قبله وتهيئة للتعاليم التى سيأتى بها النبى صلى الله عليه وسلم ونرى أول ذكر للمسيح فى القرآن فى أوائل السور حيث يقول فى سورة البقرة .

«ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون» . (الآية ٨٧)

وتذكر الآيات التالية بالرسل الذين كان المسيح واحداً منهم وبعد ذكر إبراهيم تقول الآيات في سورة الأنعام :

«ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين» (الآيتان ٨٤،٨٥) .

وعدد هؤلاء الرسل كان كاملاً لأنه كما تقول الآيات في سورة النساء :

«ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما» . (الآية :١٦٤) .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه إن المسيح كان واحداً من مائة وأربعة وعشرين ألف نبى لم يكن بينهم أى سبب للجدال أو الخصومة ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى القرآن فى سورة آل عمران : «قل آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون». (الآية:٨٤) .

والمقصود بالروح القدس فى القرآن الملاك جبريل وكل الأنبياء يعلمون أن الله أرسلهم بنفس الرسالة ولنفس الغرض ونرى ذلك فى سورة الأحزاب :

«وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً . ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً» (الأيتان ٧،٨) .

وفى سورة المؤمنين : «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون»

(الآيتان : ٥١، ٥٢)

وفى سورة الشورى : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »(الآية :١٣)

وهكذا تتضح لنا صورة المسيح ليس كرجل مميز ظهر للناس كحدث فريد فى عالم مضطرب ولكن كرسول مرسل مثل الرسل الآخرين لعالمه وعصره وهو واحد من الرسل ونرى ذلك فى سورة المائدة :

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» . (الآية : ٤٦) .

وكان المسيح يعلم جيداً أن زمنه له حدود وأن الزمن الذى جاء فيه يتقيد بالزمن الذى قبله والذى يأتى بعده ونرى ذلك فى سورة الصف :

«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (الآية : ٦) .

ويسجل القرآن تفاصيل ميلاد المسيح ولذلك نبدأ بقصة ميلاد أمه مريم ونشأتها لأن ذلك يساعدنا فى فهم كيف أن الله أعدها لكى تكون أم المسيح وأنه اختارها على العالمين ونرى ذلك فى سورة آل عمران :

«إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى

مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار» (الآيات : ٣٥-٤١) .

وكان يحيى هو النبي الذي سبق عيسى مباشرة ونرى مرة ثانية في سورة مريم ذكر الميلاد المعجز ليحيى عليه السلام .

«كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً . قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» (الآيات :١-١٥) .

أما قصة المسيح فنراها في سورتين في القرآن أولاهما سورة آل عمران .

«وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن

فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين» . (الآيات : ٤٥-٥٣) .

وثانيتهما فى سورة مريم

«واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقرى عيناً . فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم

قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» . (الآيات : ١٦-٣٦) .

أما المكان الذى ولد فيه المسيح فمذكور فى آية أخرى فى سورة المؤمنين :

«وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين» .

(الآية : ٥٠) .

أما طفولته وشبابه فلم يذكرا وإنما نرى فى سورة الصف رد الحواريين عليه «يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين» .

(الآية : ١٤) .

ونرى ذلك بتفصيل أكثر فى سورة المائدة :

«وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريون يعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» .

(الآيات : ١١١-١١٥) .

وعندما بدأت تعاليم المسيح فى الانتشار قبل البعض رسالته ولم يقبلها البعض الآخر ونرى ذلك فى سورة الزخرف «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا ءألهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» .

(الآيات : ٥٧-٥٩) .

وفى سورة الحديد :

«ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون» (الآية : ٢٧) .

وكانت الرسالة التى جاء بها المسيح بسيطة ونرى ذلك فى سورة الزخرف :

«ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم» . (الآية : ٥٣) .

ونرى معجزاته مذكورة مرة ثانية فى سورة المائدة : «إذ قال الله يعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرئيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين» (الآية : ١١٠) .

ونتج عن ظروف ميلاد المسيح اعتقاد خاطئ بأنه ابن الله ونرى ذلك فى سورة يونس :

«قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون» . (الآية : ٦٨) .

وفى سورة آل عمران :

«إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا

فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» (الآيات : ٥٥-٥٩) .

وفى سورة البقرة :

«وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السماوات والأرض كل له قانتون . بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون»
(الآيتان : ١١٦، ١١٧) .

وفى سورة الأنبياء :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين» (الآيات : ٢٦-٢٨) .

وفى سورة مريم :

«وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدًا . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً» . (الآيات : ٨٨-٩٣) .

وينكر القرآن ألوهية المسيح :

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير»
(المائدة : ١٧)

وفى سورة المائدة أيضاً :

«إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من

دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» (الآيات : ١١٦-١١٨) .

وفى سورة التوبة :

«وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» (الآيات : ٣٠-٣٢) .

ويرفض القرآن عقيدة التثليث ونرى ذلك فى سورة النساء :

«يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أنى يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً» .(الآيات :١٧١-١٧٣) .

ويرفض القرآن أيضاً مبدأ صلب المسيح ويؤكد رفعه إلى السماء ونرى ذلك فى سورة النساء :

«وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً» .(الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨) .

وأخيراً نرى في سورة المائدة :

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون» (الآيات : ٧٢-٧٥) .

وفي سورة البقرة :

«تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد» .
(الآية : ٢٥٣) .

وفي سورة المائدة :

«لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون» . (الآية : ٨٢) .

الفصل العاشر

المسيح فى الحديث والأثر

يعتبر الحديث مصدراً آخر من مصادر المعرفة أهمله دارسو المسيحية فهو يتضمن بياناً تفصيلياً بما قاله وفعله نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وقد وضعت الكنيسة الرومانية والبعثات التبشيرية درجة دراسية علمية لدراسة الحديث النبوى وتكذيبه مع أن هذا الحديث خضع لأقصى درجات الحيطة والتوثيق عند كتابته من جانب جامعى كتب الحديث ، والحديث خلاف أناجيل العهد الجديد لا يمكن تصديقه إلا إذا كان ناقلوه على مستوى معين من الصدق والأمانة والنزاهة ويجب أن يكون ناقله رجلاً ممن صحب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وشهد واقعة قوله أو سمع الكلمات التى يرويها الحديث وكان أكثر مصادر الحديث ورواته رجالاً أتقياء يخافون الله ويحبونه وقد جمع البخارى أهم الأحاديث ، وكذلك الإمام مسلم فى صحيحه ، حوالى مائة وخمسين عاماً بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهذه الأحاديث تغطى كل جوانب سيرته وعمله .

والحديث يعتبر جزءاً مهماً من تعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وقد جمع البخارى ومسلم صحيحيهما من رواية الصحابة الذين شاهدوا الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وبالإضافة إلى الأحاديث التى تشير إلى المسيح توجد عدة روايات إسلامية تقدم نماذج من أقوال وأفعال المسيح وقد جمع هذه الروايات أتباع المسيح الأوائل خصوصاً هؤلاء الذين هاجروا إلى الجزيرة العربية وشمال إفريقيا ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل هؤلاء فى الإسلام

واحتفظوا بكل الروايات التى كانت عندهم عن المسيح والتى تتنبأ بقدوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد انتقلت هذه الروايات من جيل إلى جيل وفى النهاية قام الثعلبى بجمعها فى كتابه (قصص الأنبياء) وكذلك فعل الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) .

والذى يفيدنا أن نعلم كيف أن هذه الروايات تقدم صورة واضحة ومتفقاً عليها عن المسيح الذى مهد الطريق لظهور النبى الخاتم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ويقول كعب الأحبار إن المسيح كان رجلاً مُشرَبًا بالحمرة التى تميل إلى البياض ولم يكن له شعر طويل ولم يكن يفرق شعره وكان يمشى حافياً ولم يكن يمتلك منزلاً أو يتزين ولم يكن له ملابس أو تجارة أو طعام إلا طعام يومه وعندما تغرب الشمس كان يصلى حتى شروق شمس النهار التالى وكان يبرئ الأعمى من وقت ولادته وكذلك الأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وكان يخبر قومه بما يدخرونه فى بيوتهم وما يأكلون ، وكان يمشى على الماء وكان شعره أشعث ووجهه صغيراً وكان زاهداً فى الدنيا وراغباً فى الآخرة ومتلهفاً على عبادة الله ، وكان يسيح فى الأرض حتى بحث عنه اليهود لكى يقتلوه ورفعه الله إليه والله أعلم . وروى مالك بن دينار أن المسيح عليه السلام مر هو وحواريوه على جثة كلب فقال أحدهما : «ماهذه الرائحة الكريهة التى تنبعث من هذا الكلب» فرد عليه المسيح عليه السلام : «كم كانت أسنانه بيضاء» .

ويروى عن معروف الكرخى أن المسيح عليه السلام قال : «تذكروا عندما يوضع القطن على أعينكم» وفى رواية أن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قابل رجلاً وقال له : ماذا تفعل ؟ فأجاب : إنى أعبد الله. فقال له : ومن يسد حاجتك ؟ قال الرجل : أخى . قال : المسيح : إنه يعبد الله أكثر منك .

قال المسيح عيسى ابن مريم : تتكون الدنيا من ثلاثة أيام اليوم الذى مر الذى لا تملك منه شيئاً والغد الذى لا تعرف أيأتى عليك أم لا ويومك الذى

أنت فيه فحاول أن تستفيد منه .

قال الحواريون للمسيح عليه السلام : كيف تمشى أنت على الماء ولانستطيع نحن ؟ فقال لهم : ما ترون فى الدينار والدرهم ؟ فأجابوا : إنها حسنة فى نظرنا . فقال : إنها والطين سيان بالنسبة لى .

عندما كان يقال للمسيح : كيف حالك هذا الصباح ؟ كان يرد : غير قادر على تحقيق ما آمل فيه أو أن أزيل مخاوفى ، تربطنى أعمالى وكل ما أعمله لصالح الآخرين ولذلك ليس هناك رجل أفقر منى . وقال أيضاً : الدنيا تبحث عنها وتبحث عنك ، فمن يبحث عن الآخرة تبحث عنه الدينا حتى يكمل استعداده لها ومن يبحث عن الدينا تبحث عنه الآخرة حتى يدركه الموت .

وإذا كنت تريد أن تقتدى بالمسيح فإنه كان يقول :

توابلى هى الجوع ولباسى هو التقوى والصوف ونارى فى الشتاء هى أشعة الشمس ومشعلى هو القمر ودابتى هى قدمى وطعامى وفاكهتى ما تخرجه الأرض وفى الليل لا أملك شيئاً وفى النهار لا أملك شيئاً وليس على الأرض من هو أغنى منى .

قال المسيح : إن مثل من يبحث عن الدينا مثل من يشرب ماء البحر كلما شرب أكثر كلما ازداد عطشاً حتى يموت . ويروى أن المسيح عليه السلام مر فى طريقه على رجل نائم يلتحف بردائه فأيقظه وقال يا أيها النائم استيقظ وسبح الله العلى . فقال الرجل : ماذا تريد منى ؟ لقد تركت الدنيا لمن فيها . فقال له حينئذ : نم أيها الرجل . وروى عبيد الله ابن عمر أن المسيح ابن مريم كان يلبس غطاء على رأسه وكان يأكل الفواكه البرية ولم يكن له ولد لكى لا يموت من أجله ولا مأوى لكى لا يخاف من زواله ولم يكن يدخر أى شىء للغد وكان ينام عندما يطل الظلام ويروى أن المسيح لم يكن يأخذ معه أى شىء إلا مشطاً وإبريقاً ، وفى أحد الأيام رأى رجلاً يمشط لحيته بأصابعه فرمى المشط الذى كان معه ، ورأى آخر يشرب

من ماء النهر ببطن يده فتخلص أيضاً من الإبريق الذى كان معه وقال المسيح يوماً للحواريين : اجعلوا أماكن العبادة كالمنازل واجعلوا المنازل مضاءة وكلوا من النباتات البرية واشربوا الماء النقى وفروا من الدنيا . وقال المسيح ابن مريم عليه السلام :

فى آخر الزمان سيكون هناك معلمون يعلمون الناس الزهد ولايزهدون ويرغبونهم فى الآخرة ولا يرغبون هم فيها ويحذرون الناس من التقرب إلى الحكام ولا يمتنعون هم عن ذلك ويتقربون إلى الأثرياء ويبتعدون عن الفقراء ويسرون العظماء من الناس ، ويسيئون إلى المتواضعين من الناس وهؤلاء هم إخوان الشياطين وأعداء الرحمن .

ويروى جابر عن الليث أن رجلاً صاحب المسيح عيسى ابن مريم وقال له : سأصاحبك وأكون معك فارتحلا وأتيا على شاطئ نهر وجلسا معا لتناول طعام الإفطار وكان معهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغفين وتركا واحداً ثم قام المسيح عليه السلام وذهب إلى شاطئ النهر لكى يشرب وبعد رجوعه لم يجد الرغيف الباقى ، فقال للرجل : من أخذ الرغيف ؟ فرد : لا أعرف ثم انطلق مع رفيقه فشاهدا غزالاً مع وليديها فناداها فأتت إليه فذبحها وشوى جزءاً منها فأكل هو والرجل الذى معه وبعد ذلك نادى المسيح على أحد وليديها فقام وكان لا يستطيع القيام وقال له قم بإذن الله فانطلق الوليد واختفى عن الأنظار فقال للرجل الذى معه : أستقسمك بالذى أظهر لك هذه المعجزة من أخذ الرغيف الباقى ؟ فرد الرجل : لا أعرف . وبعد ذلك ذهبا حتى أتيا على نهر فيه ماء فأخذ المسيح يد الرجل ومشيا على الماء وعندما عبرا النهر قال المسيح للرجل : أستقسمك بالذى أظهر لك هذه المعجزة من أخذ الرغيف ؟ فرد الرجل : لا أعرف . فذهبا حتى وجدا صحراء فجلسا فبدأ المسيح يجمع التراب إلى كومة من الرمل ثم قال : كونى ذهباً بإذن الله العلى القدير فتحولت الكومة إلى ذهب فقسمها المسيح إلى ثلاثة أجزاء وقال : جزء لى وجزء لك - يقصد الرجل - وجزء

لمن أخذ الرغيف . فرد الرجل : أنا الذى أخذت الرعيف . فقال له المسيح : الكنز كله لك . وتركه وانصرف وبينما كان هذا الرجل يسير بالكنز الذى معه وحده فى الصحراء إذ وجده رجلان وأرادا أن يسلبا ما معه ويقتلاه فقال لهما : سنقسمه بيننا ثلاثة أثلاث لكل واحد منا ثلث فابعثا واحداً منكما إلى القرية لكى يشترى لنا طعاماً . فأرسلا واحداً منهما فقال الذى أُرسل لنفسه : لماذا ينبغى على أن أقتسم هذا الكنز معهم سأضع لهما سماً فى الطعام وأقتلهما وآخذ الكنز لنفسى . وعندما قال ذلك ، قال الرجلان الآخران فى أنفسهما : لماذا ينبغى أن نقسم هذا الكنز مع الرجل الذى أرسلناه عندما يرجع نقتله ونأخذه لنا . وعندما عاد الرجل قتلاه وأكلا الطعام فماتا وبقى هذا الكنز فى الصحراء وبجواره جثث الرجال الثلاثة ، فمر عليهم المسيح عليه السلام مع حوارييه وهم على تلك الحالة فقال لهم هذه هى الدنيا فاحذروا منها .

ويروى أن المسيح عليه السلام مر على ثلاثة رجال كانت أجسامهم هزيلة وشاحبة فقال لهم ما الذى جعلكم كذلك؟ فقالوا : خشية النار. فقال لهم : حق على الله أن يبعث الطمأنينة فيمن يخشاه فتركهم . ومر على ثلاثة رجال آخرين فكانوا أكثر هزلاً وشحوباً فقال لهم : ما الذى جعلكم كذلك ؟ فردوا : الرغبة فى الجنة . فقال لهم : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون منه . فتركهم ومر على ثلاثة رجال آخرين أكثر هزالاً وشحوباً من الآخرين وكأن مرايا من الضوء كانت على وجوههم فقال لهم: ما الذى جعلكم كذلك ؟ فقالوا : حب الله العظيم والمجيد . فقال لهم : أنتم الأقرب إلى الله أنتم الأقرب إلى الله . ويروى بإسناد محمد بن موسى عن المسيح أنه مر على رجل مريض فأحسن معاملته ودعا له الله قائلاً : بالله أتضرع إليك أن تشفيه . فأوحى له الله : كيف أشفيه مما به أشفيه وهو كفارة له . ويروى أن المسيح عليه السلام مر يوماً على تل فيه صومعه فافترق منها ووجد فيها رجلاً عابداً منثنى الظهر وهزيل الجسم وبلغت

قسوة الزمن فيه أقصاها فحياه ورأى آثار العبادة عليه فقال له ما المدة التى مكثتها فى هذا المكان فقال له لقد ظللت لمدة سبعين عاماً فى هذا المكان أطلب من الله شيئاً لم يعطنى إياه بعد ، فلعلك يا روح الله تدعو الله لى فيستجيب لك . فقال له المسيح : وما هو طلبك ؟ فقال له : لقد دعوت الله أن يغمرنى بقدر ذرة من حبه . فقال له : سأدعوا الله . ودعا له الله ، فأوحى الله إليه أنه قد استجاب دعوته فعاد إليه بعد عدة أيام لكى يرى ماذا سيكون حاله فوجد أن الصومعة قد انهارت وظهرت فتحة فى الأرض مكانها فهبط المسيح من هذه الفتحة عدة درجات فوجد هذا الرجل العابد فى كهف تحت ذلك التل فاتحاً فمه وناظراً بعينيه ، فحياه ولكنه لم يرد تحيته ، فأخذ يتعجب من حاله هذه فيسمع من يقول له : لقد سألنا هذا الرجل مقدار ذرة من حبنا فأعطيناه سبعين جزءاً من مقدار هذه الذرة فهو كذلك فماذا سيكون حاله لو أعطيناه أكثر من ذلك .

وروى عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «بينما أنا فى الكعبة إذ رأيت رجلاً سبط الرأس كأحسن ما يكون يكاد الماء يقطر من جبينه وكان يرتكز على كتفى رجلين آخرين ويطوف بالبيت فسألت من هو فقيل لى : إنه المسيح ابن مريم» . من صحيح البخارى ومسلم.

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «والذى نفسى بيده لينزلن ابن مريم بينكم كحكم عدل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه وستكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته)» . (من البخارى ومسلم)

وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ابن مريم ينزل على الأرض ويتزوج وينجب وسيبقى

فى الأرض مدة خمسة وأربعين عاماً وسيدفن معى فى قبرى هذا بين أبى بكر وعمر» . (عن ابن الجوزى فى كتاب الوفا)

وروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أنا أقرب الناس للمسيح ابن مريم فى هذه الدنيا وفى الآخرة ليس بينى وبينه أحد ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى وأبوهم واحد ودينهم واحد» . (من البخارى ومسلم) .

ومن هذا الحديث المشهور نجد أن خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جمل الأمر كله فى الآتى :

أولاً : إن الأنبياء إخوة متساوون ولا فرق بينهم .

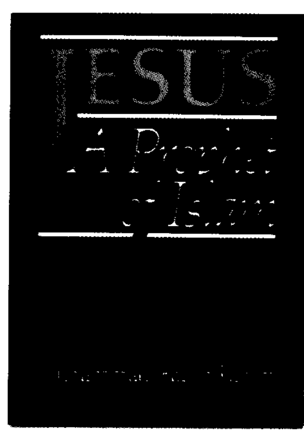
ثانياً : إنهم أبناء أب واحد فكلهم يدعو إلى عقيدة لا إله إلا الله الواحد ولا يشرك به .

ثالثاً : إن أمهاتهم شتى فكل نبى أرسل إلى أمة معينة فى وقت معين وكل نبى أوحى إليه بالسنة التى يقتدى ويحيا بها قومه وعندما يأتى نبى جديد إلى الناس فإنه يأتى بشكل جديد لهذه السنة يتلاءم مع العصر الذى أرسل فيه وهذه هى شريعة الأنبياء ، ومع قدوم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اكتملت الرسالات السماوية بالرسول الخاتم والرسالة الخاتمة وهى آخر الكتب السماوية القرآن الكريم واختتمت الشرائع بسنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلمة العبادة نفسها تعنى القرب من الله وقد ختمت بكتاب وسنة النبى صلى الله عليه وسلم وبمجرد أن دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى اتباع شريعته تكون شريعة المسيح عليه السلام قد انتهت ونرى ذلك الأمر فى هذه الآية القرآنية :

«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» .

المحتويات



يعتبر الإنجيل واحداً من الكتب المقدسة التى أنزلها الله على عباده، ونزل فى جبل الزيتون فى القدس، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة التين: «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين» حيث يقسم الله بأماكن نزول الرسالات، فجبل التين بلبنان نزل فيه الزبور على نبى الله داود عليه السلام، والزيتون هو جبل الزيتون حيث نزل الإنجيل على المسيح عليه السلام، وجبل الطور حيث نزلت التوراة على موسى عليه السلام، والبلد الأمين المقصود به مكة المكرمة حيث نزل القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وكلمة الإنجيل تعنى البشارة باللغة العبرية القديمة، ونزلت هذه الرسالة السماوية نقية طاهرة على السيد المسيح فى وقت ازدادت فيه المادية فى الحياة وحب الشهوات والزنا، ونسى الناس التوراة وأحكامها أو كادوا أن ينسوها، نظراً لأن الدولة الرومانية كانت مسيطرة على الدولة اليهودية فى ذلك الوقت، وخرج كثير من اليهود من ديانتهم واتبعوا ديانة الدولة الرومانية الوثنية.

كانت رسالة الإنجيل بسيطة وكانت تدعو الناس إلى ترك المادية والاتجاه إلى الروح.

وهذا الكتاب يعرض لرسالة المسيح عليه السلام وسيرته وبعض الظروف التى أحاطت بميلاده وقصة الحواريين...

